وسائل النصر

من

القرآن والسنة

للدكتور
محمد جمعة عبد الله
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥

يطلب من
مكتبة الكليات الأزهرية
٩ شارع الصنادقيه - الأزهر - القاهرة

مقـــدمـة

بسـم الله الرحمـن الرحيـم

الحمد لله رب العالمين، ينصر من ينصر دينه، ويرعى شرائعه وتعاليمه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المجاهد الكبير، الذى جاهد فى الله حق جهاده، حتى بلغ رسالة الله، وأدى أمانته، ونصره الله نصراً عزيزاً كريماً، صلى الله عليه وعلى آله، وصحبه، الذين كانوا كما وصفهم الله ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾(1) فحازوا شرف الدنيا وكرامتها، وعز الآخرة وسعادتها، رضى الله عنهم، وعمن سلك طريقهم، وسار على نهجهم إلى يوم الدين.

وبعد

فلما كان جهاد كل من يعتدى على المسلمين فى دينهم، أو أوطانهم، أو أموالهم، أو أعراضهم، قد فرضه الله على المسلمين فى كل زمان ومكان، وكان الواجب على الأمة الإسلامية إذا اعتدى معتد على شعب من شعوبها فى شىء من ذلك أن تتناسى خلافاتها، وتدفن عداواتها، وتجمع كلمتها، وترفع راية وحدتها، وتلقى بكل ثقلها فى المعركة مع كل معتد أثيم، وتتعاون وتتكاتف على صده، ودحره، عملاً بقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾(2)، وقوله: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾(3).

وكان الله لايرضى منا أن نعطى الدنية فى ديننا، ونستسلم لأعدائنا، ولذا

---

١ ــ المائدة ٥٤.　　٢ ــ البقرة ١٩٤.　　٣ ــ المائدة ٢.

مدح الذين ينتصرون لأنفسهم من الظالمين إذا لم يرد التسامح كيد المعتدين، فقال تعالى: ﴿والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون﴾[1]، وترجم ذلك الشاعر الحكيم فقال:

فحارب إذا لم تعط إلا ظلامة ... شبا الحرب[2] خير من قبول المظالم

وكان الواجب على كل مسلم أن يسهم فى أية معركة ضد الإسلام والمسلمين بما فى وسعه: صاحب القوة بقوته، وصاحب المال بماله، والرأى برأيه، والقلم بقلمه، والعمل بعمله.

وكان للنصر أسباب مادية وأخرى معنوية، تحدث الله عنها فى كتابه الكريم، الذى نزّله هدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وسار على نهجها الرسول الأمين ﷺ.

ولا شىء يسعدنا فى الدنيا والآخرة، وينصرنا على أعدائنا، وينقذنا من المحن القاسية التى تنزل بالمسلمين من وقت لآخر، إلا أن نرجع إلى كتاب ربنا نهتدى بهديه، ونسير على نهجه، ونعتصم بما جاء فيه، ونتمسك بأسسه ومبانيه، ونتعرف منه على أسباب النصر ووسائله التى ذكرها الله فى كتابه الكريم، وهو العليم الحكيم، وبينها وطبقها عملياً فى حروبه رسولنا الأمين، سيدنا محمد ﷺ، فنعمل بها، ونسير على هديها، حتى ينصرنا الله كما نصر المسلمين السابقين، ويهبنا العزة التى وهبها للمؤمنين الصادقين، ويحقق لنا وعده الذى وعده المؤمنين العاملين، فقال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنَنّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[3].

لما كان ذلك رأيت من الواجب أن أستعرض كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وأستخرج منهما وسائل النصر وأسبابه فى جهادنا ضد أعدائنا، وأضعها أمام المؤمنين المخلصين، والمجاهدين الصادقين، كى يسيروا فى حروبهم

---

١ ــ الشورى ٣٩. ٢ ــ شبا الحرب: إشعالها. ٣ ــ النور ٥٥.

على هداها، ويعملوا بمقتضاها، إذا اعتدى عليهم معتد، أو بغى عليهم باغ، ولا يعطوا الدنية في دينهم، ويستيسلموا لأعدائهم، وهم أصحاب دين العزة والكرامة، وقد حثهم الله على الدفاع عن حقوقهم فقال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾(١).

أى ولولا أن الله يدفع أهل الباطل والفساد بأهل الإصلاح والخير لغلب أهل الفساد وبغوا على الصالحين، وأهلكوهم، وصار للمفسدين السلطان فى الأرض، ولكن من رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن أذن لأهل دين الحق المصلحين فى الأرض بقتال المفسدين فيها، من الكافرين والعتاة الظالمين.

هذا وقد اشتمل هذا الكتاب على تمهيد وثلاثة أبواب تضمنت خمسين وسيلة من وسائل النصر، وعلى خاتمة.

فالتمهيد به أربعة مباحث: تكلمت فى الأول عن بعض المبادىء الإنسانية فى الشريعة الإسلامية، وفى الثانى عن الجهاد والحرب وأنواعهما وعلاقتهما بالقتال، وفى الثالث عن حكمة مشروعية القتال فى الإسلام وأنواعه وأسبابه، وفى الرابع عن أحكام الجهاد فى سبيل الله تعالى.

والباب الأول تحدثت فيه عن وسائل النصر من القرآن، وبه فصلان: الأول فى أسباب النصر المادية، والثانى فى أسباب النصر المعنوية.

والباب الثانى تحدثت فيه عن وسائل النصر من السنة، وقد ذكرت تحت هذا الباب عشرين وسيلة من وسائل النصر اقتبستها من عمله ﷺ فى غزواته.

والباب الثالث تحدثت فيه عن التعبئة الروحية للمجاهدين فى سبيل الله فى ضوء الآيات القرآنية التى نزلت فى غزوة أحد مع شرح كل آية مستخلصاً منها مايفيدنا فى جهادنا، وكفاحنا ضد أعدائنا.

---

١ ــ البقرة ٢٥١

والخاتمة اشتملت على كلمة عن صلاح الدين، وموقعة حطين، كمثال للتطبيق العملى فى الإعداد والاستعداد، وعناية الله بالمجاهدين المخلصين، وعلى كلمة الختام.

ومن الله تعالى أستمد العون والتوفيق، فهو حسبى ونعم النصير

د. محمد جمعة عبدالله

التمهيد
وبه أربعة مباحث

- من المبادىء الإنسانية فى الشريعة الإسلامية
- الجهاد والحرب وأنواعهما وعلاقتهما بالقتال
- حكمة مشروعية القتال فى الإسلام وأنواعه وأسبابه
- أحكام الجهاد فى سبيل الله تعالى

المبحث الأول
من المبادىء الإنسانية فى الشريعة الإسلامية

الإسلام تشريع الله صاحب الكمال المطلق والعلم المحيط والحكمة التامة وخاتم الديانات السماوية، وعالمى، وخالد مادامت الأرض والسموات لهذا كان ديناً سامياً، ارتفع عن الزمان والمكان ليكون كفاء لحاجات الناس ومتطلباتهم وإن اختلفوا زماناً ومكاناً كما قال تعالى: ﴿**تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**﴾(١) وكما قال سبحانه ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾(٢) وكان ديناً كاملاً مرضياً، وتشريعاً شاملاً، ونعمة تامة، قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾(٣)، وكان رائده مصلحة البشرية ومنفعة الإنسانية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ولذلك كان من تشريعاته مايأتى:

١ ــ الدعوة إلى التوحيد، وتحرير العقول من الخرافات والأوهام وتكـريم بنى الإنسان فقال تعالى: ﴿**شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لاإله إلا هو العزيز الحكيم**﴾(٤) وذلك ليجمع العالم كله على عبادة إله واحد هو خالق الكون ومدبر الأمر الذى أحاط بكل شىء علماً ووسع كل شىء رحمة وفضلاً. وليعتق رقاب المستعبدين لغير الله سبحانه وليغرس فى نفوسهم الشرف والعزة والأنفة والحمية، والكرامة الإنسانية فلا يذلون لغيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم ولا يكون لأحد سلطان عليهم إلا بالحق والعدل، قال تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر**

---

١ ــ الفرقان ١.   ٢ ــ سبأ ٢٨.   ٣ ــ المائدة ٣.   ٤ ــ آل عمران ١٨.

ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[1] وقد أمرنا الله سبحانه أن نغرس هذه العزة وهذه الكرامة فى نفوسنا ونفوس أبنائنا وأحفادنا فقال تعالى: **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون﴾**[2]

٢ — والدعوة إلى الخير العالمى والكمال الإنسانى فقال تعالى: **﴿يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾**[3] وقال: **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾**[4] وقال النعمان بن مقرن ليزدجرد ملك الفرس «إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به ويعرفنا الشر وينهانا عنه»[5].

٣ — وإلى المساواة بين البشرية عامة فأعلن أن الناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة **﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾**[6] فلا فضل لشعب على شعب ولا لقبيلة على قبيلة ولا لون على لون إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما قال تعالى: **﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾**[7] ومن خطبته ﷺ فى حجة الوداع: «**يأيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لافضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى..**» رواه أحمد[8].

٤ — وإلى العدل بين الناس كافة فلا فرق بين حاكم ومحكوم وشريف ووضيع، وغنى وفقير، وقريب وبعيد، وعدو وصديق، ومسلم وذمى، قال تعالى: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾**[9] وقال: **﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين**

---

١ — الإسراء ٧٠. ٢ — المنافقون ٨. ٣ — الحج ٧٧. ٤ — آل عمران ١٠٤.
٥ — ابن الأثير ٢/٢٧٧. ٦ — النساء ١. ٧ — الحجرات ١٣.
٨ — منتقى الأخبار ٢/٢٨٦. ٩ — النحل ٩٠.

إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾[1] كما قال: ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[2] وقال ﷺ: «**وأيم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها**» متفق عليه[3] وقال البطل الإسلامى ربعى بن عامر لرستم قائد الفرس فى معركة القادسية: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام...»[4].

٥ ــ وإلى السلام العالمى، لأن الإسلام ليس موقوتاً بزمان ولا محدوداً بمكان ولا لشعب دون شعب، بل للناس جميعاً وللإنسانية كلها، ولأنه صادر عن الله الملك القدوس السلام الذى منه السلام وإليه السلام جاء يدعو إلى السلام فى الدنيا كما يدعو إلى دار السلام فى الآخرة ليعيش الناس فى محبة ووئام وأمان واطمئنان فأمر المؤمنين بالدخول فى الإسلام بجميع شعبه وأحكامه، وألا يتبعوا خطوات الشيطان ونزغاته، فقال تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾[5] وجعل السلام تحية المؤمنين فى الدنيا كما هو تحيتهم فى الآخرة فقال تعالى: ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً** ﴾[6] كما قال: ﴿ **تحيتهم يوم يلقونه سلام** ﴾[7].

وجعل علاقة الناس والأمم بعضها ببعض قائمة على السلام فقال تعالى: ﴿ **فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾[8] كما قال: ﴿ **لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس** ﴾[9] وقال: ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون** ﴾[10]، ورسم لنا الصورة الكاملة التى ينبغى أن يكون عليها المؤمنون الصادقون فى علاقة بعضهم

---

١ ــ النساء ١٣٥. ٢ ــ المائدة ٨. ٣ ــ اللؤلؤ والمرجان ٢/١٨٦.
٤ ــ البداية لابن كثير ٧/٣٩. ٥ ــ البقرة ٢٠٨. ٦ ــ النساء ٩٤.
٧ ــ الأحزاب ٤٤. ٨ ــ أول الأنفال. ٩ ــ النساء ١١٤. ١٠ ــ الحجرات ١٠.

ببعض، فقال تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم**﴾(١)، وقال ﷺ: «**ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**» رواه الشيخان عن النعمان بن بشير(٢)، كما قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه**» رواه الشيخان عن عبدالله بن عمرو بن العاص (ض)(٣).

٦ــ وإلى التعاون الإنسانى، فيسمو الإسلام بمبادئه وتشريعاته سمواً يرتفع به إلى أعلى المستويات، فيدعو إلى التعاون على كل مافيه فائدة ومنفعة للفرد وللأمة، وللإنسانية كلها، فى الدنيا والآخرة، وعلى دفع كل مايضر الفرد أو الجماعة فى الدنيا والآخرة كذلك، وحذر من كل مايوجب ذنباً أو اعتداء على الغير، وتوعد المقصر فى ذلك بأشد العقوبات، فقال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب**﴾(٤).

فالإسلام دين تضامن وتكافل على جلب الخير ودفع الشر، ولذا قال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ثم شبك بين أصابعه**» رواه الشيخان عن أبى موسى(٥)، وقال: «**المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه**» رواه الشيخان عن عبدالله بن عمر(٦)

٧ــ وإلى المودة والبر والعدل والمساواة مع غير المسلمين الذين لم يقاتلونا فى الدين، ولم يعتدوا علينا فى شيء، فقال تعالى: ﴿**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾(٧)، وقال ﷺ: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**» رواه البخارى عن عبدالله

١ ــ التوبة ٧١ . ٢ ــ اللؤلؤ ٣/١٩٦ . ٣ ــ رياض الصالحين ٥٧٣ .
٤ ــ المائدة ٢ . ٥ ــ اللؤلؤ ٣/١٩٥ . ٦ ــ اللؤلؤ ٣/١٩٣ .
٧ ــ الممتحنة ٨ .

بن عمر[1] ــ وما ورد من النهى عن موالاة الكافرين فالمقصود به النهى عن محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، كما يقصد به النهى عن الرضا بما هم فيه من كفر، لأن مناصرة الكافرين على المسلمين مضرة بالغة بالمسلمين، وإضعاف لشوكتهم، والرضا بالكفر كفر.

٨ ــ وإلى عدم الإكراه فى الدين، فالإسلام رحب الصدر، سمح المعاملة، لم يضق ذرعاً بالأديان السماوية كلها، لأنها نزلت معه من مشكاة واحدة، ولم يتعصب لمذهب من المذاهب، بل شعاره: ﴿**فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾[2]، وبناء على ذلك فالإسلام لايكره أحداً على الدخول فيه كما قال سبحانه ﴿**لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾[3] أى لاإكراه فى دخول الدين، لأن الإيمان خضوع وإذعان، ولا يكون ذلك بالإكراه والإلزام، وإنما بالحجة والبرهان، فبداهة العقول ترفض أن يكون للإكراه سلطان على مستقر العقائد من القلوب، فالقلوب لاتفتح مغاليقها لعقيدة حتى تطرقها قوة غالبة من الحجة والبرهان، وهذه الآية حجة قائمة على من زعم من أعداء الإسلام، أو من أوليائه الجاهلين به أن الإسلام ماقام إلا والسيف ناصره، فكان يعرض على الناس، فإن قبلوه نجوا، وإن رفضوه حكم فيهم السيف، والتاريخ شاهد صدق على كذب هذا الادعاء، فهل كان السيف يعمل عمله لإكراه الناس على الإسلام والنبى ﷺ وأصحابه فى مكة يصلون مستخفين، والمشركون يفتنون المسلمين بضروب من التعذيب، ولا يجدون زاجراً حتى اضطر النبى وصحبه إلى الهجرة؟ أو كان فى المدينة بعد أن اعتز الإسلام ونزلت هذه الآية الكريمة؟ اللهم لاهذا ولا ذاك، وبين الله السبب فى عدم الإكراه فى الدين بقوله ﴿**قد تبين الرشد من الغى**﴾ أى قد ظهر أن فى هذا الدين الرشد والفلاح، وأن ماخالفه غى وضلال.

وسبب نزول هذه الآية مارواه ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً من الأنصار يقال له (الحصين) كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً، فقال للنبى ﷺ ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا

---

١ ــ فى ٤/٢١١. ٢ ــ الزمر ١٧، ١٨. ٣ ــ البقرة ٢٥٦.

النصرانية؟ فأنزل الله هذه الآية.

وروى السدى نحو ذلك، وزاد وكانا قد تنصرا على أيدى تجار قدموا من الشام يحملون زبيباً، فلما عزما على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرهما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث فى آثارهم، فنزلت هذه الآية.

وفى تيسير الوصول ١/٩٨: عن ابن عباس (ض) قال: نزل قوله تعالى ﴿**لاإكراه فى الدين**﴾ فى الأنصار، كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار، فقالوا: لاندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى ﴿**لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾ أخرجه أبو داود، وقال: المقلاة: التى لايعيش لها ولد.

وقال سبحانه ــ مؤكداً عدم الإكراه فى الدين ــ: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾[1]، وخاطب رسوله قائلاً: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمصيطر**﴾[2].

وليس معنى عدم الإكراه فى الدين أن من لم يعتنق الإسلام ناج من عقاب الله وعذابه فى الآخرة، أو أن من رفض الإسلام من غيرنا يجوز له ذلك، وإنما معنى عدم الإكراه فى الدخول فى دين الإسلام أنه شريعة واضحة، ونيِّرة، وبراهينها قائمة على أنها حق، فمن تأملها بعقله، وفتح لها قلبه عرف أنها حق.

وأن على المسلمين أن يدعوا الناس جميعاً بالأسلوب والطريقة البعيدة عن العنف، كما قال تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾[3]

وإذا كان الإسلام هو دين العزة والكرامة، والمحبة والمودة، والحرية الدينية، والسلام العالمى، فلماذا فرض الجهاد وشرع القتال؟ الجواب أنه شرعه لرد

١ــ يونس ٩٩. ٢ــ الغاشية ٢١، ٢٢. ٣ــ النحل ١٢٥.

العدوان ، ودفع الضرر ، كما يتضح تفصيل ذلك فى المبحث الثالث من هذا التمهيد .

* * *

المبحث الثانى

الجهاد والحرب وأنواعهما وعلاقتهما بالقتال

الجهاد وأنواعه وعلاقته بالقتال

معنى الجهاد: الجهاد لغة: مأخوذ من الجهد، وهو التعب والمشقة، وشرعا: استفراغ الوسع فى مدافعة العدو. وهو كما يقول الراغب: ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس.

فمجاهدة العدو الظاهر، إن كان من الكفار تكون باليد والمال واللسان والقلب، وإن كان من الفساق تكون باليد، ثم باللسان، ثم بالقلب. وأما مجاهدة الشيطان فتكون بدفع مايأتى به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات. وأما مجاهدة النفس فتكون بتعلم أمور الدين، ثم بالعمل بها، ثم السعى فى تعليمها للغير، وثلاثتها واجبة، وتدخل فى قوله تعالى: ﴿**وجاهدوا فى الله حق جهاده**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله**﴾[2]

وأجل أنواع الجهاد وأفضلها القتال فى سبيل الله، وبين الجهاد والقتال فرق دقيق، فكل قتال جهاد، وليس كل جهاد قتالا، فالجهاد جنس والقتال نوع منه، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جهاد وقول الحق فى وجه الباغى جهاد، والصبر الكريم على شهوات النفس جهاد والسعى فى تحصيل الرزق جهاد، وأخذ الزوج والولد بأمر الله والتزام طاعته جهاد. وقد صار الجهاد حقيقة شرعية فى بذل الجهد فى قتال الكفار.

١ــ آخر الحج. ٢ــ التوبة ٤١.

الحرب وأنواعها وعلاقتها بالقتال :

معنى الحرب : قال فى القاموس : الحرب مؤنثة ، وقد تذكر ، وجمعها حروب ، ودار الحرب : بلاد المشركين الذين لاصلح بيننا وبينهم ، ورجل حرب : عدو محارب ، وإن لم يكن محاربا ، للذكر والأنثى ، والجمع والواحد ، وحاربه محاربة وحرابا وتحاربوا واحتربوا ، وحربه حربا كطلبه طلبا : سلب ماله فهو محروب وحريب ، . ا هـ

أقول : ولذا سمى القتال حربا لأنه يسلب الأرواح والأموال ، وما يتعلق بالغير ، فمعناهما واحد .

وتنازع البقاء ، والتنافس فى وسائل الحياة ، وفى الحصول على الثروة والجاه ، والدفاع عن الحق ، والوقوف فى وجه الباطل ، جعل الحرب سنة طبيعية فى المجتمعات البشرية . والحروب الإسلامية إنما شرعت لرد العدوان ، والدفاع عن الحق ، كما يأتى ، ولولا هذا لجاء الإسلام بإلغائها ، بدلا من الاعتراف بها ، وتعديلها ، أو تنظيمها .

قال ابن خلدون فى مقدمته ٢٣٥ : اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، ويتعصب لكل منهما أهل عصبيته ، فإذا تذا مروا لذلك وتواقفت الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام ، والأخرى تدافع كانت الحرب ، وهو أمر طبيعى فى البشر لاتخلو منه أمة ولا جيل ، وسبب هذا الانتقام فى الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك ، وسعى فى تمهيده .

فالأول أكثر مايجرى بين القبائل المتجاورة ، والعشائر المتناظرة ، والثانى وهو العدوان أكثر مايكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر ، كالعرب والتركمان والأكراد ، وأشباههم ، لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم ، ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم ، ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ، ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك ، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على مافى أيديهم والثالث : هو المسمى فى الشريعة بالجهاد ، والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها ، فهذه أربعة أصناف من الحروب ، الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة ، والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل .

المبحث الثالث

حكمة مشروعية القتال فى الإسلام وأنواعه وأسبابه

أرسل الله محمداً ﷺ إلى الناس كافة، وأمره أن يدعوهم إلى دين الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان يلقى من قومه أشد أنواع العنت، وأقسى صنوف العذاب، ومن رحمة الله به لم يدعه لبلائهم، بل كان ينزل عليه من الآيات مايقويه على الصبر ويهون عليه الأذى والعذاب مثل قوله تعالى: ﴿**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**﴾[1] وقوله: ﴿**فاصفح الصفح الجميل**﴾[2] وقوله: ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم**﴾[3]، وكان كثيرا مايقص عليه أنباء إخوته من المرسلين قبله ليثبت به فؤاده، كما قال سبحانه: ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾[4]

ومع أن الدعوة المحمدية قامت على الرفق واللين والصفح الجميل ومضت فى طريقها بالحكمة والموعظة الحسنة فقد أقام المسلمون فى مكة ثلاثة عشر عاما يسامون سوء العذاب ويصادرون فى حريتهم الدينية ويضطهدون فى عقيدتهم التى اطمأنوا إليها ويفتنون فى دينهم وأموالهم وأنفسهم، وكان أصحابه ﷺ يأتونه شاكين باكين وهم مابين مضروب ومشجوج، فيحثهم على الثبات والصبر ولكن طغيان أهل مكة الذى لم يقف عند حد، وصدهم الناس عن سبيل الله وتنافسهم فى اضطهاد الرسول وصحبه، وتآمرهم على قتله، ألجأ الرسول وصحابته للهجرة إلى المدينة فهاجروا إليها فرارا بدينهم. فكان المشركون هم البادئين بالعدوان على المسلمين حيث اضطهدوهم فى دينهم ودبروا المؤامرة للفتك برسولهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق بغية هلاكهم والقضاء على دعوتهم.

فلما استقر ﷺ بالمدينة وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين وألف بين قلوب

---

١ ــ الطور ٤٨ .　　٢ ــ الحجر ٨٥ .　　٣ ــ الأحقاف ٣٥ .

٤ ــ هود ١٢٠ .

المؤمنين من الأوس والخزرج بعد الإحن والعداوة، وبين قلوب المهاجرين والأنصار وكان ﷺ أولى بهم من أنفسهم، أذن الله للمؤمنين فى القتال بقوله تعالى: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات**[1] **ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾[2]. قال فى نيل الأوطار ٧/ ١٧٤: وأول ماشرع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة إتفاقا.

وقد بين الله فى هذه الآيات الكريمة أنه أذن للمؤمنين فى القتال بسبب ظلمهم بالاعتداء عليهم، وإخراجهم من ديارهم وأموالهم بغير موجب إلا أنهم يدينون بدين الله ويقولون: ربنا الله

ثم بين حكمة الإذن فى القتال، وهى أنه لولا أن الله يدفع أهل الباطل والشرك بأهل الإصلاح والخير لغلب أهل الفساد، وبغوا على الصالحين وأهلكوهم، وصارلهم السلطان فى الأرض، ولهدموا جميع المعابد التى يذكر فيها اسم الله كثيرا، فكان من رحمة الله بعباده، وفضله عليهم أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين فى الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة الظالمين.

ثم بين الله أنه لاينصر بمقتضى سنته إلا من ينصر دينه ويتقيه، ومن إذا تمكنوا فى الأرض وحكموها أطاعوا الله، فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وكانوا دعاة خير ومعروف، ونهاة منكر وفساد، والله يعلم المفسد من المصلح وإليه مرد الأمور ونهايتها.

وفى السنة الثانية من الهجرة فرض الله القتال بقوله تعالى: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون**﴾[3]

---

١ ــ الصوامع: معابد رهبان النصارى. والبيع: كنائس النصارى واحدها بيعة بكسر الباء. والصلوات: كنائس اليهود.

٢ ــ الحج ٣٩، ٤٠، ٤١. ٣ــ البقرة ٢١٦.

القتال فى الإسلام نوعان:

الأول قتال المسلمين للمسلمين

وهو شأن من الشئون الداخلية للأمة الإسلامية، وقد ذكره الله فى قوله تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾[١] فبينت الآية الأولى أنه إذا وقع نزاع بين جماعتين من المؤمنين وجب الإصلاح بينهما وحل النزاع سلميا، فإن بغت إحداهما على الأخرى ورفضت الحل السلمى والنزول على حكم المؤمنين، وجب قتالها حتى تخضع وترجع إلى الحق فإن رجعت إليه وجب الإصلاح بالعدل لأن الله يحب العادلين.

وبينت الآية الثانية أن المقصود من هذا التشريع هو المحافظة على وحدة الأمة وعدم تفرقها، إذ جاء فيها ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾

والثانى: قتال المسلمين لغيرهم

أسبابه:

لم يشرع الله قتال المسلمين لغيرهم للإكراه فى الدين، فإن المكره على شىء لايلبث أن يتركه متى سنحت له الفرصة، وتهيأت الأسباب للتخلص منه، قال تعالى: ﴿**لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾[٢] ولأن الدعوة إنما قامت على الحجة والبرهان، ولم يشرع لسلب الحريات وإذلال الشعوب واستغلال مواردها وخيراتها، كما تفعل الدول الإستعمارية الآثمة، وإنما شرعه الله وأمر به للأسباب الآتية: ــ

(١): رد الاعتداء على الأنفس والأموال والأوطان، ومدافعة الإيذاء والظلم، قال تعالى: ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث**

١ ــ الحجرات ٩، ١٠. ٢ ــ البقرة ٢٥٦.

أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾[1]، فالله أمر بالقتال دفاعاً لااعتداء مع التزام آداب الإسلام عند القتال.

فالآية الأولى تأمر المسلمين أن يقاتلوا فى سبيل الله كل من يقاتلهم محاولا الاعتداء على أنفسهم أو أموالهم أو أوطانهم، والقتال فى سبيل الله هو القتال لابتغاء مرضاته وطلب مثوبته، ولا يكون كذلك إلا إذا كان وفق تعليماته.

وتنهاهم أن يتجاوزوا الحد المشروع فى القتال فيبدءوا به ظالمين، أو يعتدوا فيه على الآمنين المسالمين من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة والعباد المنقطعين للعبادة ولا من ألقى السلم وكف أذاه عن المسلمين، ومن دخل فى عهدهم من الذميين وتعضد الآية هذا النهى وتقويه بكراهة الله للعدوان وعدم محبته للمعتدين فتقرنه بعلة لاتقبل النسخ، وهى أنه تعالى لايحب المعتدين، على أن الجملة الأولى يؤخذ من مفهومها معنى الجملة الثانية، إذ مفهومها: وقاتلوا فى سبيل الله المقاتلين لاالمسالمين، فالبدء بالعدوان منهى عنه نهياً مؤكداً.

ويزيد التحذير من العدوان تأكيداً أن الرسول ﷺ كان يؤثر السلم ماوجد إليه سبيلا، وما قاتل قط إلا مضطرا، والشواهد على ذلك من قوله وفعله وسياسته مع عدوه كثيرة، منها ماجاء فى الصحيحين من قوله ﷺ: «أيها الناس لاتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[2]

وإذا كان الرسول ﷺ قد نهى عن تمنى لقاء العدو، فهل يأمر ببدء العدوان والبدء درجة بعد التمنى؟ على أن الدارس لغزواته ﷺ وسراياه يجدها كلها ردا على عدوان.

وتؤكد الآية الثانية ذلك الأمر فتأمر المؤمنين بتتبع الباغين وقتلهم حيث وجدوا فى حل أو حرم، وإخراجهم من مكة كما اعتدوا عليهم من قبل فأخرجوهم منها وألجئوهم إلى الهجرة. ولا حرج على المؤمنين من القتال

---

١ ــ البقرة ١٩٠: ١٩٢. ٢ ــ اللؤلؤ ٢/٢٠٢.

فى هذه الحالة لأنهم يقاومون فتنة موجهة إلى الدين، تبغى القضاء عليه وعلى مبادئه ومعتنقيه، وهذا بلا ريب أشد من القتل كما أنه لاحرج عليهم فى القتال عند المسجد الحرام إذا لم يرع الكفار حرمته، لأن ذلك جزاء عدل لمثل هؤلاء المعتدين— وتبين الآية الثالثة أنهم إذا كفوا عن قتال المسلمين هادنهم المسلمون وإذا رجعوا إلى الله منتهين عن الكفر طامعين فى مغفرته ورحمته فإن الله غفور رحيم.

(٢) : الدفاع عن الدعوة الإسلامية، والحرية الدينية، ومقاومة كل من يحاول فتنة أهلها، أو الوقوف فى طريقها، قال تعالى: ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم**﴾[١] والقتال فى سبيل الله هو القتال لإعلاء كلمة الله، وتأمين الدعوة ونشر الدين، ومنع الفتنة فيه. ولذا قال تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾[٢] فأمرت هذه الآية الكريمة بقتال أعداء الدين حتى لاتبقى لهم قوة يفتنون بها المؤمنين فى دينهم، ويؤذونهم فى سبيله أو يمنعونهم من إظهاره والدعوة إليه، وحتى يكون دين كل شخص خالصاً لله، لاأثر فيه لخشية غيره، فلا يفتن بصده عنه، ولا يؤذى بسببه، ولا يحتاج إلى محاباة، أو استخفاء ومداراة، وحتى تكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فإذا انتهى هؤلاء عن ظلمهم فليس للمسلمين سبيل عليهم— وقال أيضاً: ﴿**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير**﴾[٣]، فبين الله فى هذه الآية أن السبب فى القتال أيضاً هو منع فتنة المسلمين فى دينهم والوقوف فى طريق دعوة ربهم، فأمرهم بالقتال إلى أن تزول الفتنة، وتسير الدعوة فى طريقها آمنة، فيسلم الناس، ويذهب الشرك، ويصير الدين كله خالصاً لله، يدخل فيه من يشاء وهو آمن على نفسه وعرضه وماله وكل مايتعلق به. فإذا انتهى المشركون عن الكفر وإيذاء المؤمنين، وخلص الدين، كله لله رب العالمين، وصار الناس أحراراً فى عقائدهم لاينالهم بسببها أى أذى. فكفوا عن قتالهم فإن الله تعالى عليم بأعمالهم ومجازيهم عليها وقد أكد ﷺ ماجاء فى الآيات السابقة، فقال: «**من قتل**

١— البقرة ٢٤٤ .　　٢— البقرة ١٩٣ .　　٣— الانفال ٣٩ .

دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد» أخرجه أصحاب السنن[1].
ومعنى الحديث أن القتال دفاعاً عن المال والنفس والدين والعرض والأهل جهاد فى سبيل الله واستشهاد فى طلب مثوبته

(٣) : مقاومة من ينكثون العهد وينقضون المحالفات، ولا يحترمون مابينهم وبين المسلمين من معاهدات ويشوهون حقائق الإسلام، وينفرون الناس منه، قال تعالى: **﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون. ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾**[2]
فبين الله فى هذه الآيات أن سبب القتال تلك الجرائم: نقض العهود. الطعن فى دين المسلمين. الهم بإخراج الرسول حين تآمروا عليه فى دار الندوة. بدؤهم بالقتال أول مرة، فهم المعتدون أولا والناقضون عهدهم ثانيا وأنتم قد أبيح لكم مجازاة المعتدين بالمثل.

(٤) : تخليص الجماعات والشعوب المرهقة من أثقال الظلم وأوزار الإستعمار والإستغلال فالقرآن لايقبل من أتباعه أن يناموا على ضيم أو يقيموا على ذل أو يعيشوا فى هوان، وهو يرغب فى الجهاد دفاعاً عن النفس والوطن، ودفاعاً عن الدين والمظلومين.
قال تعالى: **﴿وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾**[3] فحثت هذه الآية الكريمة المؤمنين على القتال فى سبيل الله بأية طريقة لأن سبيل الله كله حق وعدل وخير، ثم خصت من سبيل الله إنقاذ المستضعفين من ظلم الأقوياء الجبارين وهم إخوانكم وقد استذلهم أهل مكة ونالوا منهم بالعذاب والقهر كل منال ومنعوهم من الهجرة ليفتنوهم عن دينهم

١ ــ تيسير الوصول ١/٢٣٣. ٢ ــ التوبة ١٢: ١٤. ٣ ــ النساء ٧٥.

ويردوهم فى ماتهم، وقد جعل الله للمستضعفين من المؤمنين سبيلاً خاصاً عطفه على سبيل الله مع أنه داخل فيه لإثارة النخوة والحمية، ووصفهم بما يجعل نفس الحر تشتعل حماسة وغيرة على إنقاذهم والسعى فى رفع الظلم عنهم وعن أمثالهم، فقال: ﴿**الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا**﴾ أى إن هؤلاء فقدوا النصير والمعين وتقطعت بهم أسباب الرجاء فاستغاثوا بربهم ودعوه ليفرج كربهم ويخرجهم من تلك القرية (مكة) لظلم أهلها لهم، ويسخر لهم بعنايته من يتولى أمرهم وينصرهم على من ظلمهم فيتمكنوا بذلك من الهجرة إلى إخوانهم.

ثم قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا**﴾[1] الطاغوت من الطغيان وهو مجاوزة الحق والعدل والخير إلى الباطل والظلم والشر وقد بينت هذه الآية أن الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله، لرفع راية الحق والعدل والخير، وأما الذين كفروا فيقاتلون فى سبيل الباطل والظلم والشر، وأمرت أولياء الرحمن أن يقاتلوا أولياء الشيطان وألا تخيفهم قوتهم وعددهم وعتادهم فإنها لاشىء فى جنب قوة الله، فحسبكم أيها المؤمنين أن وليكم الرحمن وأن الكافرين وليهم الشيطان.

ولما تجمع المشركون من كل جانب وانضموا إلى قريش فى غزوة الخندق وحاصروا المسلمين فى المدينة ورموهم عن قوس واحدة ليفتكوا بهم ويقضوا عليهم وعلى دينهم، أمر الله بقتال المشركين جميعاً والقضاء عليهم وعلى شركهم جزاء وفاقا، فقال تعالى: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[2] فالعلة فى ذلك الأمر، بينها الله فى هذه الآية وهى: اتحادهم ضد الإسلام والمسلمين، واجتماعهم لقتالهم، ووقوفهم صفاً واحداً فى سبيل دعوته.

ومن ذلك نرى أن حروب الرسول ﷺ مع مشركى العرب لم تكن عدوانا بل كانت دفاعاً ورداً للعدوان، وكانت مع مشركى قريش أولا ثم معهم ومن انضم إليهم أو سلك سبيلهم ثانيا.

---

١ ــ النساء ٧٦.   ٢ ــ التوبة ٣٦.

أسباب قتال المسلمين لليهود :ـــ

وأما قتال المسلمين لليهود فلأن اليهود كانوا أنكى وأشد على المسلمين من غيرهم فقد وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف الجاحد الهادم لها المتآمر عليها رغم علمهم بصدقها وصدقه ﷺ ومن جرائمهم التى قاموا بها ضد الإسلام:

(١) : إثارتهم للضغائن والأحقاد القديمة التى كانت بين الأوس والخزرج لإشعال نار الحرب بينهم بعد أن وحدهم وجمعهم الإسلام ولولا حكمته ﷺ لعادت الحرب بينهم من جديد وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين**﴾[1]

(٢) : إذاعة الشائعات التى تهون من شأن انتصار المسلمين فى معاركهم والشائعات التى تظهر الشماتة بالمسلمين إذا ابتلوا فى بعض حروبهم، كما حصل منهم فى بدر وأحد.

(٣) : قول أحبار اليهود لزعماء قريش (حينما سألوهم: ديننا خير أم دين محمد..؟): (دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه)[2]، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت**[3] **والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا**﴾[4] كما نزل مايؤكد حقدهم على الإسلام والمسلمين وهو قوله تعالى: ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق**﴾[5] وما يؤكد عداوتهم للمؤمنين ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا**﴾[6]

(٤) : نقضهم للعهود والمواثيق التى عقدها ﷺ معهم عقب هجرته إلى المدينة بحسن الجوار وألاّ يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوا وأن يدافعوا مع

١ ــ آل عمران ١٠٠ . ٢ ــ لباب النقول للسيوطى ١/ ٨٢ .
٣ ــ الجبت: كل ماخضع له الناس من دون الله من شيطان أو ساحر أو كاهن.
٤ ــ النساء ٥١ . ٥ ــ البقرة ١٠٩ . ٦ ــ المائدة ٨٢ .

المسلمين عن المدينة إذا تعرضت لعدوان، وأن يكونوا آمنين على دينهم وأنفسهم وأموالهم[1] فنقضوا العهد مرارا وتآمروا على قتل النبى ﷺ مرة بالسم ومرة بإلقاء حجر كبير عليه وهو جالس معهم بجوار حائط لهم. والمرة الأخيرة كانت فى غزوة الخندق، والغرض منها القضاء النهائى التام على الإسلام والمسلمين

(٥) : التحالف مع أعداء المسلمين واشتراكهم معهم فى غزوة الخندق ليقضوا على المسلمين لولا أن الله سلم وهزم الأحزاب وقضى على اليهود، وفى شأن اليهود ونقضهم للعهود نزل قوله تعالى: ﴿**إن شر الدواب عند الله الذين كفروافهم لايؤمنون.الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون. فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون**﴾[2]

قال مجاهد[3]:نزلت هذه الآيات فى يهود المدينة ــ وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف وهو فيهم كأبى جهل فى مشركى مكة ــ، وقد بين الله تعالى فيها أنهم شر الدواب وأن السبب فى قتالهم هو نقضهم العهد مرة بعد أخرى، وروى عن ابن عباس أنهم بنو قريظة نقضوا عهد رسول الله ﷺ وأعانوا عليه بالسلاح فى يوم بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ومالئوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم على محاربة النبى ﷺ أهـ[4]، فأمر الله نبيه أن يجاهدهم ويوقع بهم أشد النكال حتى يعتبر بهم غيرهم فلا ينقض له عهدا ولا يعلن عليه حربا وروى الشيخان عن ابن عمر (ض) قال : حاربت النضير وقريظة فأجلى بنى النضير وأقر قريظة، ومن عليهم حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم

---

١ ــ ومن حكمة الرسول ﷺ وحسن سياسته أنه لم يجمع اليهود كلهم فى معاهدة واحدة بحيث لو اختلف مع طائفة منهم كان خلافاً مع جميع اليهود فيتحد الجميع ضد المسلمين.
وإنما عقد مع كل طائفة منهم معاهدة مستقلة، وقد ظهرت نتيجة ذلك فى النهاية فحينما نقض بنو قينقاع معاهدتهم لزم غيرهم الحياد فى هذا النزاع وتكرر ذلك مع بنى النضير فحينما نقضوا المعاهدة مع المسلمين لم يتدخل الباقون فسهل على المسلمين التغلب عليهم وطردهم من المدينة.
٢ ــ الأنفال ٥٥ : ٥٧ .　　٣ ــ ابن جرير ١٠/٢٥ .　　٤ ــ المنار ١٠/٥٦ .

وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبى ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم: بنى قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام ويهود بنى حارثة وكل يهود المدينة[1].

فلما نقض اليهود العهد وانضموا إلى المشركين والمنافقين ضد المسلمين جماعة بعد جماعة وفريقا بعد فريق فعل ذلك بنو قينقاع وبنو النضير، وبنو قريظة فى وقت عصيب كان فيه المسلمون فى حاجة ماسة إلى قلة الخصوم وتضييق ميادين القتال، لم يجد المسلمون بدا من أن ينبذوا إليهم عهدهم وأن يدخلوا معهم فى طور المحاربة بعد طور السلم والمعاهدة، فأجلى ﷺ بنى قينقاع وبنى النضير عن المدينة وحارب بنى قريظة فقتل الرجال وأسر النساء والذرية.

وقد تنوعت عقوبات اليهود تبعا لجرائمهم، فقد أجلى بنى قينقاع بكافة مالهم ومتاعهم، وأجلى بنى النضير بما حملته إبلهم مما كانوا يملكونه ماخلا عدة الحرب وسلاح القتال، وأما بنو قريظة فقد قتل منهم الرجال وسبى الذرارى والنساء، واستولى على ماكان لهم من المال والمتاع.

والتفرقة فى المعاملة بين طوائف اليهود الثلاث واختلاف الحكم فيهم، يعود إلى الجرائم التى ارتكبوها، فلو تمت خيانة بنى قريظة وجريمتهم لقضت على الإسلام والمسلمين قضاء مبرما فلا جرم أن كان عقابهم أشد والجزاء من جنس العمل.

وينكر الله عليهم ماتعودوه من نقض العهود فيقول: ﴿**أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لايؤمنون**﴾[2] فالاستفهام فى (أو كلما) للإنكار والتوبيخ والتعجب من شأنهم، وكلما لإفادة تكرارهم لنبذ العهد، والواو قبلها للعطف على مقدر يستدعيه المقام، والتقدير أكفروا بهذه الآيات وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم.

وعبر عن نقضهم العهد بالنبذ ليشير إلى أنهم تركوه مستهينين به، لأن النبذ يكون للشىء الذى لايعتد به، وإسناد النبذ إلى فريق منهم يؤذن بأن منهم من لم ينبذه وهم من آمن منهم ومن سار على شاكلته ﴿**بل أكثرهم لايؤمنون**﴾ أى: بل أكثر اليهود لايؤمنون بالتوراة إلى جانب أن أكثرهم

---

١ ــ اللؤلؤ والمرجان ٢/٢١٤ .   ٢ ــ البقرة ١٠٠ .

ينقضون العهد، فإيمانهم بالتوراة لايجاوز حناجرهم، ولو آمنوا بها حقا لسارعوا إلى الإيمان بمحمد فهو منعوت بأوصافه فيها.

(٦): اعتناق بعضهم للنفاق واندساسهم بين المسلمين مظهرين إسلامهم ومبطنين كفرهم بقصد العمل على نشر الفساد والإفساد بين المسلمين فى عقائدهم، الأمر الذى دعا النبى ﷺ إلى إجلائهم عن المدينة وما حولها من القرى وإلى قوله ﷺ: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لاأدع إلا مسلما» أخرجه مسلم عن عمر[1] — وهو مافعله عمر إتقاء لشرهم — ومما يؤكد أن خيانتهم مستمرة لاتنقطع قوله تعالى: ﴿**ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم**﴾[2] أى ولا تزال يامحمد تطلع من هؤلاء اليهود على خيانة إثر خيانة فهم قوم لاوفاء لهم ولا أمان إلا قليلا منهم كعبد الله بن سلام وإخوانه ممن أسلموا وأخلصوا.

أسباب قتالهم للنصارى:

وأما النصارى فلم يقاتلهم ﷺ حتى أرسل رسله بعد صلح الحديبية إلى جميع الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشى وملوك العرب بالمشرق والشام فدخل من النصارى وغيرهم من دخل فى الإسلام، فعمد النصارى بالشام إلى اضطهاد المسلمين فقتلوا بعض من أسلم، ولما بعث النبى ﷺ وفدا من دعاة المسلمين إلى ذات أطلاح يعلمون الناس مبادىء الإسلام وكانوا خمسة عشر رجلا رئيسهم كعب بن عمير الغفارى وثبت عليهم جموع العرب الموالين للروم فقتلتهم جميعا ولم ينج منهم إلا رئيسهم[3].

وقتلوا الحارث بن عمير الأزدى رسوله ﷺ إلى أمير بصرى فأرسل إليهم جيشاً بقيادة زيد بن حارثة للانتقام ممن اعتدوا على رسوله، وعلى من أسلم، ولم يخرج ﷺ لمحاربتهم فى غزوة تبوك إلا بعد أن بلغه أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه فى المدينة ونزل قوله تعالى: ﴿**قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾[4]

---

١ — ق ١٢ / ٩٢ ٢ — المائدة ١٣ ٣ — نور اليقين ص ٢١٣ ٤ — التوبة ٢٩

فليس فى القرآن كله آية واحدة فى الحرب إلا وهى دفاع ورد لعدوان ويؤيد ذلك قوله تعالى: **﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾**[1] وقوله: **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾**[2].

وفى أبى داود وغيره قال ﷺ: «دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ماتركوكم»[3] وما جهز ﷺ فى آخر حياته جيشا بقيادة أسامة بن زيد إلا لأنهم قتلوا أباه وبعض من كان معه، وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل»[4]. وتوالت بعد ذلك حروب المسلمين مع الروم حتى فتح المسلمون بلادهم، ومكنوا عباد الله من دين الله.

ولا يقول قائل إن آية ٢٩ من سورة التوبة وهى قوله تعالى: **﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون﴾** إن فيها أمرا بمقاتلة أهل الكتاب ولو لم يعتدوا على المسلمين أو يفتنوهم فى دينهم أو ينقضوا عهودهم معهم، لأن هذه الآية نزلت بين يدى غزوة تبوك، وقد سبق أن سببها رد على عدوان، ولأن الله تعالى ذكر فى آية ٣٢، ٣٤ من هذه السورة أن أهل الكتاب يعملون على إطفاء نور الله وإبطال دين الإسلام بالطعن فيه، وصد الناس عنه، وأن كثيراً من أهل الكتاب وأحبارهم ورهبانهم وقفوا من الإسلام موقف الصدِّ عنه والبغى عليه وعلى أهله، ولأن نزول الآية بين يدى غزوة تبوك، وهى فى مشارف الشام التى يسكنها كثير من قبائل النصارى، وتتصل بالبلقاء ومعان ومؤتة، والروايات المؤكدة ذكرت أخبار سرايا وغزوات إسلامية إلى مؤتة، ودومة الجندل وذات أطلاح قبل غزوة تبوك بسبب ماكان من عدوان القبائل النصرانية على سابلة المسلمين ورسلهم وبعثاتهم، ففى هذه الحوادث تفسير لذلك الأمر، وتأكيد لما سبق، من أن الأمر بقتال أهل الكتاب كان بسبب دفع البغى والعدوان، والمقابلة بالمثل، وتأمين حرية الدعوة الإسلامية، وكفا للصد

---

١ ــ النساء ٩٠ ٢ ــ الأنفال ٦١ ٣ ــ سنن أبى داود ٢ / ٢١٠

٤ ــ نور اليقين ٢٧٠، وفى ابن هشام حـ ٤ ص ٢١٢ : وبعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون.

عنها كما صدر من نصارى مشارف الشام وإليك الآيات ٣٢، ٣٣، ٣٤ من سورة التوبة التى تبين اعتداء أهل الكتاب على الإسلام وأهله وشرحها قال تعالى: **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾**

(٣٢) : والمعنى: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يريدون بمزاعمهم الباطلة إبطال دين الله الذى جاء به محمد ﷺ بالطعن فيه وصد الناس عنه ولا يريد الله إلا إتمام نوره بإظهار دينه ونصر رسوله ولو كانوا كارهين لذلك.

(٣٣) : هو الله الذى كفل إتمام نوره بإرسال رسوله محمد ﷺ بالقرآن الذى هو هدى للمتقين وبدين الإسلام المحقق الثابت الذى لاينسخ ولا يبطله شىء آخر ليعلى هذا الدين على جميع الأديان السابقة عليه بالحجة والبرهان وبنسخه لها وألا يعبد الله إلا به، وإن كره المشركون ذلك الإعلاء والإظهار — والشرك أخص من الكفر — والآية الثانية تأكيد وتقرير لمعنى الآية الأولى وفى الآيتين إخبار بأن إتمام الله لدينه وإظهاره على جميع الأديان سيكون بالرغم من أنوف جميع الكفار والمشركين منهم بالله تعالى.

(٣٤) : يأيها المؤمنون: اعلموا أن كثيراً من علماء اليهود ورهبان النصارى يستحلون أكل أموال الناس بغير حق، ويستغلون ثقة الناس فيهم واتباعهم لهم فى كل مايقولون، ويمنعون الناس عن الدخول فى الإسلام ويستحوذون على الأموال من ذهب وفضة، حابسين لها، ولا يؤدون زكاتها، فأنذرهم أيها الرسول بعذاب موجع.

أسباب قتالهم للفرس:

وكما تجلت الروح العدوانية من الروم على هذا الوجه تجلت أيضا من الفرس وهم أشد غطرسة وجبروتا من الروم فحينما بعث ﷺ كتابه إلى كسرى مزقه

ورمى به إلى الأرض، عتوا واستكبارا، وأرسل إلى عامله باليمن أن يبعث برجلين جلدين إلى محمد يأتيان به، وفعلا توجها إلى الرسول ﷺ وأخبراه بالمهمة التى جاءا من أجلها، فقال ﷺ: «فى هذا اليوم قتل كسرى» ولما علم الرجلان صدق الرسول أسلما، وكان إسلامهما سببا فى إسلام عامل اليمن، ثم انضمت إلى اليمن بلاد البحرين وعمان، وكانت كلها تحت حماية الفرس، فعند ذلك شرع الفرس فى الإغارة على القبائل العربية المجاورة لهم، واستغلوا ملوك الحيرة فى ذلك، فأمعن هؤلاء فى الإعتداء على المسلمين وعندئذ سار إليهم جيش المسلمين ونشبت حروب بين الفريقين انتهت بانتصار المسلمين وفرار معتمد الفرس إلى المدائن وخضوع ملوك الحيرة والبلاد المجاورة للجزيرة العربية للمسلمين، فأشعل ذلك نار العداوة والحقد فى قلوب الفرس فألّفوا جيشا كثيفا لإخراج المسلمين من بلادهم، ودارت بين الفريقين حروب طاحنة انتهت بانتصار المسلمين الساحق فى القادسية وغيرها من المدن الفارسية وسقوط عرش كسرى ودانت كل بلاد فارس للمسلمين، وتحقق فيهم قول الشاعر:

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم ... كباطل من جلال الحق منهزم

ومن هذا العرض يتبين أن القتال الذى قام به ﷺ وأصحابه من بعده لم يكن لإكراه أحد على الدخول فى الإسلام لأن طبيعته تأبى ذلك ولم يكن لاستعباد الشعوب واستنزاف خيراتها كما تفعل الدول الإستعمارية، بل كان إما لرد الظلم والعدوان وإما للدفاع عن النفس والوقوف فى سبيل المعتدين، وإما لمنع الفتنة فى الدين وتأمين دعوة المسلمين، وتبليغها للناس أجمعين، حتى يدخل فى الإسلام من يشاء، وهو فى جو آمن، وبيئة صالحة وأمر مستتب وعدل سائد والدين كله لله **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون﴾**[1]

---

١ ــ المنافقون ٨

المبحث الرابع

أحكام الجهاد فى سبيل الله تعالى

متى يكون الجهاد فرض كفاية، ومتى يكون فرض عين؟

الأصل فى الجهاد أنه فرض كفاية على المكلف الحر الذكر القادر. وفرض الكفاية إذا قام به البعض وحصل به المطلوب سقط عن الباقين، وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا** ﴾[2] ثبات: جماعة تلو جماعة. النفير: الخروج لقتال الكفار.

وقوله ﷺ ــ فى غزوة بنى لحيان ــ: «لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما» رواه مسلم[3]. وعن أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله ﷺ بعث إلى بنى لحيان، وقال: «ليخرج من كل رجلين رجل، ثم قال للقاعد: أيكم خلف الخارج فى أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج» رواه أبو داود[4] ولأنه لو وجب على الكل لتعطلت المصالح الأخرى.

ويكون الجهاد فرض عين فيما يأتى:

١ ــ إذا عينه الإمام (الرئيس أو الحاكم) على شخص ولو عبدا أو امرأة، أو صبيا مستطيعا له، فعن ابن عباس (ض) أن النبى ﷺ قال: «لاهجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» أى إذا طلب منكم الخروج إلى الحرب فاخرجوا والحديث رواه الجماعة إلا ابن ماجه[5]

١ ــ التوبة ١٢٢ ٢ ــ النساء ٧١ ٣ ــ رياض الصالحين ٤٨١
٤ ــ ق ٢ / ٣٩٣ ٥ ــ المنتقى ٢ / ٧١٧

٢ — إذا حضر المكلف صف القتال، لقوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا** ﴾[٦]

٣ — إذا نذره الشخص على نفسه، لتعين الوفاء بالنذر.

٤ — إذا هاجم العدو بلدا من بلاد المسلمين تعين على كل مستطيع القيام به، يستوى فى ذلك الرجل والمرأة، والحر والعبد، والبالغ والصبى القادر، كل يجاهد حسب استطاعته: الجندى بسلاحه، والعالم بالكلمة والحض على الجهاد، والغنى بماله، والمرأة بمداواة الجرحى، ومعالجة المرضى، والعامل بالإخلاص والتفانى فى عمله، والصبى فى الخدمة وراء الميدان.

هذا إذا لم يتيسر لمن ذكر حمل السلاح، وإلا فميدان القتال مقرهم جميعا، لقوله تعالى: ﴿**انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله**﴾[٢] كما يتعين على أهل البلاد المجاورة للمعتدى عليهم مشاركتهم فى إخراج العدو من بلادهم، فإن تركوا نصرتهم باءوا بغضب من الله، ومأواهم جهنم وبئس المصير، والجهاد واجب عينى على كل من احتلت بلادهم، أو اعتدى عليهم، وواجب على كل من يحتاجون إلى مساعدته وعونه من المسلمين، الأقرب فالأقرب.

الوعيد الشديد لتاركه والمتثاقل عنه: قال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير**﴾[٣] وقال ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» رواه مسلم[٤]، وقال ﷺ: «من لم يغز أو يجهز غازيا أو يخلف غازيا فى أهله بخير أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة» رواه أبو داود وابن ماجه[٥]. وقال: «ماترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب» رواه الطبرانى بإسناد حسن عن أبى بكر الصديق (ض)[٦].

---

١ — الأنفال ٤٥ ٢ — التوبة ٤١ ٣ — التوبة ٣٨، ٣٩

٤ — رياض الصالحين ٤٨٩ ٥ — رياض الصالحين ٤٩١ ٦ — الترغيب ٢ / ١٢٧

وجوب إخلاص الجهاد لله: يجب أن يكون الجهاد خالصا لله تعالى، وإلا حبط العمل، فعن أبى موسى الأشعرى قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، و يقاتل رياء، فأى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» رواه الجماعة.[1]

فضل الجهاد: فضل الجهاد عظيم وثوابه كبير، قال تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما**﴾[4] والآيات فى ذلك كثيرة

والأحاديث فى فضله متعددة منها: مارواه أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ سئل أى العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور» رواه الشيخان[5]

وعن أبى ذر قال: سألت النبى ﷺ أى العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد فى سبيله» رواه الشيخان.[6]

وعن أبى سعيد الخدرى قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أى الناس أفضل؟ قال «مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله» قال: ثم من؟ قال: «مؤمن فى شِعبٌ من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره»، وقال ﷺ: «لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»، وقال: «مامن مكلوم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى: اللون لون دم، والريح ريح مسك» الكلم الجرح.

وعن أبى هريرة (ض) قال: قيل يارسول الله مايعدل الجهاد فى سبيل الله؟

١ ــ المنتقى ٢ / ٧٥٤ — ٢ ــ التوبة ١١١ — ٣ ــ آل عمران ١٦٩، ١٧٠

٤ ــ النساء ٩٥، ٩٦ — ٥ ــ اللؤلؤ ١ / ١٥ — ٦ ــ اللؤلؤ ١ / ١٦

قال: (لاتستطيعونه) فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: (لاتستطيعونه) ثم قال: «مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لايفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله». وقال: «ماأحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ماعلى الأرض من شىء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»، وفى رواية «لما يرى من فضل الشهادة»، وقال: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله تعالى، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها» متفق عليها جميعا[1] وقال ﷺ: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض» وقال: «من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار»، وقال: «الجنة تحت ظلال السيوف» رواها البخارى[2] وقال ﷺ: «رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه» رواه أحمد بإسناد صحيح[3] وقال: «من طلب الشهادة صادقا أعطيها ولو لم تصبه» رواه مسلم[4] هذا، وبعد أن انتهى الكلام على التمهيد بمباحثه الأربعة ننتقل إلى الكلام على المقصد الأسمى والأساسى، وهو وسائل النصر

---

١ ــ انظر رياض الصالحين ٤٧٥ : ٤٨٢

٢ ــ المرجع السابق ٣ ــ ج ١٠ حديث ٦٦٥٣ عن عبدالله بن عمرو

٤ ــ رياض الصالحين ٤٨٦

الباب الأول

وسائل النصر من القران

وبه مقدمة وفصلان :

- وسائل النصر المادية
- وسائل النصر المعنوية

مقدمة

فى معنى وسائل النصر والآية الجامعة لذلك

الوسائل: جمع وسيلة، وهى فى الأصل مايتوصل به إلى الشىء قاله ابن الأثير. والنصر: العون والتأييد، والغلبة حين القتال. والنصرة: حسن المعونة، فمعنى وسائل النصر: الأمور التى يتوصل بها إلى عون الله وتأييده، والغلبة على الأعداء.

ووسائل النصر يجمعها الاستعداد التام للحرب لإرهاب العدو، وهى قد تكون مادية، أى تدرك بإحدى الحواس الخمس، كآلات الحرب والجنود، والمال اللازم لذلك، وغير ذلك، وهذه هى موضوع الفصل الأول وقد تكون معنوية، كالإيمان بالله، وبقضائه وقدره، والتوكل عليه والصبر، وغير ذلك، وهذه هى موضوع الفصل الثانى.

وكل من وسائل النصر المادية والمعنوية قد تضمنته الآية الكريمة الوجيزة البليغة وهى قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون﴾[1]

معنى المفردات: الإعداد: تهيئة الشىء للمستقبل ووقت الحاجة إليه، والضمير فى (لهم) للكفار المذكورين فى الآية السابقة لهذه ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لايعجزون﴾ مااستطعتم من قوة: الذى قدرتم عليه من كل مايتقوى به على العدو فى الحرب، ماديا أو معنويا. الرباط والربط فى الأصل: الحبل الذى تربط به الدابة، ورباط الخيل: حبسها وإعدادها للجهاد، ورابط الجيش: أقام فى الثغر. والإرهاب والترهيب: الإيقاع فى الرهبة، وهى الخوف

١ ــ الأنفال ٦٠.

المقترن بالاضطراب.

المعنى الإجمالى للآية: القوة سواء كانت مادية أو معنوية من أهم عوامل النصر التى تحفظ للأمة استقلالها، وتصون عزتها وكيانها، ولذا أوجب الله على المؤمنين إعدادها، وبذل الجهد فى تحصيل أسبابها، فأمرهم بإعداد مايستطيعون منها لإرهاب الأعداء وخصوم الحياة، الذين يناصبوننا العداء، وإرهاب من يستترون وراءهم ويمدونهم بالعون والسلاح وآلات القتال، لإشعال نار الفتنة والحرب بالخديعة والمكر، كما دعانا سبحانه إلى تقديم المال اللازم لإعداد الجيش وتسليحه، والإنفاق فى سبيله، ووعدنا على ذلك مزيدا من فضله، وعظيما من خيره.

وخلاصة الآية أن الله سبحانه أوجب على المؤمنين الاستعداد التام للحرب لدفع العدوان، وحفظ الأنفس والأموال، واستقلال الأوطان، وذلك بأمرين:

أـ إعداد المستطاع من القوة، وهى كل مايتقوى به على العدو، سواء كانت هذه القوة مادية أو معنوية.

ب ـ مرابطة الجنود فى ثغور البلاد، وعلى حدودها للدفاع عنها، وحمايتها من المغيرين عليها.

الفصل الأول

وسائل النصر المادية

وبه مبحثان

المبحث الأول

الوسائل الإعدادية

وسائل النصر الإعدادية كثيرة من أهمها: إعداد القوة الضاربة. إعداد المال اللازم لتسليح الجيش، ولجميع شئونه. إعداد الجنود الصالحين للجهاد. إحسان العمل. وإليك البيان لكل منها

(١) إعداد القوة الضاربة

إعداد أدوات الحرب المختلفة، وآلاتها المتنوعة لكل القوى الضاربة: برية أو بحرية أو جوية، من مدافع ودبابات، وسفن حربية وغواصات، وقذائف وطيارات، وصواريخ وقنابل ذرية ونحوها، وغير ذلك مما يرهب الأعداء، ويساير الزمان والمكان، وعمل التحصينات اللازمة للدفاع عن الأنفس والأموال والأوطان واتخاذ مايبطل فاعلية أسلحة العدو، أو يقلل أضرارها، كل ذلك أوجبه الله تعالى بقوله: ﴿**وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة**﴾ وقوله: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[١] وأما مارواه مسلم[٢] عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: [« وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة » ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى] فلا

١ ــ البقرة ١٩٤ .

٢ ــ ق ١٣ / ٦٤ .

ينفى كون غير الرمى من القوة، فهو كقوله ﷺ: (الحج عرفة)[1] يعنى أن كلا منهما أعظم الأركان فى بابه، فإن رمى العدو بما يقتله من بعد أسلم من مصاولته عن قرب بسيف أو رمح أو حربة، وما أشبه ذلك مما يرمى به فى كل عصر، وإن لم يكن معروفاً فى عصره ﷺ، فاللفظ يشمله ويقتضيه، ولو قيده بالسهام الموجودة فى ذلك العصر، فكيف وهو لم يقيده، ولعل الله تعالى أجراه على لسان رسوله ﷺ مطلقا ليدل على العموم لأمته فى كل عصر.

وقوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ماastطعتم من قوة**﴾ يدل على العموم، لأنه أمر بالمستطاع موجه إلى الأمة فى كل زمان ومكان كسائر خطابات التشريع، حتى ماكان منها واردا على سبب معين، فإن من قواعد الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب، ويؤكد هذا العموم قوله تعالى: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم**﴾ حيث تبين الآية الكريمة أن جزاء العدوان أن يقابل بمثله، فى غير إسراف ولا مغالاة مع التمسك بالتقوى ولزوم جانبها، والله مع المتقين بالتوفيق والنصر. فمن اعتدى علينا بشىء قاتلناه بمثله، فإنا إذا لم نقابل العدوان بمثله عرضنا ديننا، وأوطاننا وأموالنا للضياع، وأنفسنا وأهلينا للهلاك، وخالفنا أوامر الله حيث يقول: ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾[2] ويقول: ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾[3] كما يقول: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما**﴾[4] وأضعنا حكمة تشريع القتال وهى الحفاظ على الدين والأنفس والأموال والأوطان، ومنع الظلم والاضطهاد والعدوان، ونشر الحرية والعدل والاطمئنان، فالقرآن يوجب على المسلمين فى كل عصر ومصر إعداد كل آلات الحرب وقواها التى تناسب حال ذلك العصر والتدريب على استعمالها على أرفع مستوى، ويوجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التى يتوقف عليها صنع هذه الآلات التى تتجدد وتتطور بتجدد العصور وتطورها، لأن مالا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب، وقد حارب ﷺ وأصحابه أعداءهم بكل الأسلحة التى عرفت فى عهده ولبسوا لكل حالة لباسها، فحاربوهم بالسيوف والرماح والسهام، ولبسوا الدروع والمغافر، واستخدموا المنجنيق والدبابات[5] فى فتح

١ ـــ الحديث رواه الخمسة فى نيل الأوطار ٥ / ٥٠ .

٢ ـــ البقرة ١٩٣ . ٣ ـــ البقرة ١٩٥ . ٤ ـــ النساء ٢٩ .

٥ ـــ الدبابات آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود ثم يدخل فيها الناس .

الحصون بخيبر والطائف. وحينما احتاج الأمر إلى حصار حصون الطائف أرسل ﷺ فى طلب بعثات علمية متخصصة فى آلات الحصار من دبابات ومجانيق وعرادات.[1] وحينما أحست ثقيف أن الرسول ﷺ سيغزوها أرسلت بعثة علمية إلى بلدة جرش، بالأردن الحالية. فيها عروة بن مسعود، وغيلان بن سلمة لتعلم صنعة الدبابات والمجانيق، والضبور[2] وفى موقعة نهر شير بفارس حينما نصب أهل المدينة المجانيق والدبابات أمر سعد بعمل المجانيق فعمل عشرون منجنيقا، ونصبت على نهر شير[3]، ولما كانت الخيل أقوى أسلحة المشركين فى أحد استخدم المسلمون النبل ضدها.

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد فى حرب اليمامة (حاربهم بمثل مايحاربونك به: السيف بالسيف والرمح بالرمح) وحينما التقى خالد بالروم فى موقعة اليرموك عبأ جيشه تعبئة لم تعبئها العرب من قبل إذ نظم جيشه فى ست وثلاثين كردوسا (مجموعة) وصاول الروم بهذا التنظيم العسكرى المشابه لتنظيمهم وبذلك استطاع إحراز النصر عليهم، ولو قاتلهم بأسلوب الكرو الفر، أو بأسلوب الصف اللذين كان العرب يقاتلون بهما من قبل، لما انتصر عليهم.

وحينما ظهرت الفيلة فى صفوف الفرس فى حرب القادسية، وهى قوة لم تعرفها العرب من قبل فعلت فعلها فى المسلمين حتى كادت الدائرة تكون عليهم، لولا أن العرب اخترعوا لها فى كل يوم قوة مضادة لها، ففى اليوم الأول جاءوا برماة رموا ركبانها فولت هاربة فنفس عن المسلمين، وفى اليوم الثانى جاءوا بإبلهم فجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيول المسلمين لحمايتها فلقيت منها خيول الفرس مالقيته خيول المسلمين من الفيلة، وفى اليوم الثالث وكلوا بكل فيل رجلين يضعان رمحيهما فى عينى الفيل فينفض صاحبه وينفحه أحدهما بالسيف وهكذا قابل المسلمون كل قوة بما يتغلب عليها.

---

١ ــ انظر حياة محمد ٤٣٨ هيكل.

٢ ــ البداية والنهاية لابن كثير ٤/٣٣٨، والضبور آلة من خشب تغشى بجلد كانوا يستعملونها فى الحرب فيتقرب الرجال تحتها إلى الحصون للقتال: وهى تشبه الدبابة.

٣ ــ البداية لابن كثير ٧/٦٣.

ومما تقدم نعلم أن السلاح الحديث والتدريب الكامل على استخدامه له دخل كبير فى إحراز النصر وحسم المعركة، ولهذا نجده ﷺ يحثنا على مواصلة التدريب على الأسلحة والتفوق فيها فيقول: (من علم الرمى ثم تركه فليس منا أوقد عصى) رواه مسلم[1]، وعن سلمة بن الأكوع (ض) قال: مر النبى ﷺ على نفر ينتضلون[2] فقال: «أرموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا» رواه البخارى[3]

وقوله تعالى ﴿**ومن رباط الخيل**﴾ معطوف على قوله ﴿**من قوة**﴾ والمراد به مرابطة الفرسان فى ثغور البلاد وعلى حدودها، وإعداد المستطاع من الخيل واجب كما أن إعداد المستطاع من القوة واجب وإنما أوجبه الله فى هذه المواضع لأنها مداخل الأعداء وموطن مهاجمتهم، ويدخل فى ذلك المؤسسات والمصانع والمرافق العامة، والغرض من ذلك أن يكون للأمة جند دائمون مستعدون للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على غرة، وقد كان قوام ذلك الفرسان لسرعة حركتهم وقدرتهم على القتال وإيصال الأخبار من الثغور إلى العواصم وسائر الأرجاء، وخص الشارع الخيل بالرباط لأنها الأداة التى كانت بارزة عند من يخاطبهم القرآن فى أول أمره، ومن أجل هذا عظم الشارع أمر الخيل فقال ﷺ: «**الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم**» متفق عليه[4] وقال: «**من احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة**» رواه البخارى والنسائى[5]، ولكن فى هذا العصر الذى ارتقت فيه الفنون العسكرية فى الدول الحربية أمكن توصيل المعلومات بسرعة البرق عن طريق الهاتف والأثير فأصبحت المرابطة فى الثغور الآن بالسيارات المصفحة والدبابات والمدافع والصواريخ الثابتة والمتحركة والطيارات القاذفة، وما أشبه ذلك. ورباط الخيل لايوجد إلا فى الأماكن التى يعسر الوصول إليها بالوسائل الحديثة، وصدق الله حيث يقول: ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون**﴾[6]. وينبغى للسلطة العليا أن تكون دائمة الاتصال بهؤلاء المرابطين لتتعرف منهم أخبار العدو أولاً بأول، وكان بعض ملوك الفرس يقول لحاجبه

---

١ ــ ق ١٣/٦٥ . ٢ ــ يترامون بالسهام للسبق . ٣ ــ ق ٤/١٠٦ .

٤ ــ اللؤلؤ والمرجان ٢/٢٥٥ .

٥ ــ تيسير الوصول ١ / ٢٠٥ احتبس فرسا : أى حبس فرسا واتخذه إستعدادا لما عسى أن يحدث فى ثغر من ثغور الإسلام . ٦ ــ النحل ٨ .

لاتحجب عنى رسول الثغر، وإن كنت نائماً فأيقظنى، ولأهمية المرابطة وما يقوم به المرابطون من حماية البلاد ومرافقها جعل الله ثوابهم عظيماً وفضلهم كبيراً، فقال ﷺ: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأَمِن الفُتَّان» رواه مسلم[1].

سبب إعداد القوة والمرابطة:

وقد بين الله سبب إعداد القوة والمرابطة فقال: ﴿**ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ أى أعدوا لهم المستطاع من القوة الضاربة ومن الجند المرابطين فى الثغور ومداخل العدو وعند المرافق العامة بآلات الدفاع والرصد لمعرفة أخبار العدو وتحركاته، لترهبوا أعداء الله وأعداءكم.

﴿**وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم**﴾ أى ولترهبوا به أعداء غير معروفين لكم لاتعلمون الآن عداوتهم بل الله يعلمهم وهو علام الغيوب، وكم للإسلام من أعداء يتربصون به الدوائر ولا يظهرون إلا فى أحرج الأوقات، وأعداء الإسلام ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد إليهم.

وإذا لم نسلح أنفسنا بمثل ماعند العدو نفذ فينا مايريده وفرض علينا مايشاء حتى نهلك أو نعيش أذلاء، معاذ الله من ذلك فهو القائل: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون**﴾[2].

فالمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء ليقيموا شريعة الله وليحفظوا دينهم وأرضهم وأموالهم من كل معتد أثيم، وأمام أعيننا الدول القوية مهابة من غيرها ومحفوظ كيانها، وهذا الإرهاب للعدو يفيد المسلمين حيث يجعل أعداءهم لايعينون عدواً آخر عليهم، ويجعلهم يقومون بالإلتزامات المطلوبة منهم وقد يحملهم ذلك على الدخول فى الإسلام والتزام تشريع القرآن.

وما أعظم قول الله سبحانه ﴿**يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾[3] قال عروة بن الزبير فى تفسيرها: أى للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد الذل وقوّاكم بها بعد الضعف ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم

١ ـــ م ١٣/ ٦١ والفتان فتان القبر. ٢ ـــ المنافقون ٨. ٣ ـــ الأنفال ٢٤.

لكم[1]، وخبراء الحرب يقولون: إن إعداد القوة الكفيلة بتحقيق أى هدف قد يؤدى إلى تحقيقه بغير استخدام هذه القوة، وما أصدق قول أبى تمام:

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم   إن الدم المغبر يحرسه الدم

وقول شوقى:

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا   فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به   ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

هذا وقد يبذل المسلمون كل مالديهم من طاقات ويعدون جميع مايستطيعون من قوات، ومع ذلك لايصلون إلى ماوصل إليه العدو من قوى واستعدادات فماذا تكون النتيجة؟.

الجواب أن ذلك لايضر المسلمين شيئاً، لأن الله سبحانه سيجبر قصورهم وينصرهم على أعدائهم حيث إن هناك فرقاً بين القصور والتقصير، فالتقصير قعود وتخاذل وإهمال وتكاسل، والقصور خارج عن حدود الطاقة، خاضع للإمكانيات والوسائل الموجودة لدينا، وهذا يتكفل الله بإتمامه على شرط أن نأخذ بالأسباب جميعها ماوسعنا الجهد ونتوكل على رب الأرباب، فهو الذى يقول: ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم**﴾[2] كما قال سبحانه: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**﴾[3]

(٢) إعداد المال اللازم لتسليح الجيش ولجميع شئونه:

إعداد القوة الضاربة من أدوات الحرب وآلاتها على اختلاف أنواعها فى كل عصر ومصر، وتطويرها بتطور الزمن ولا سيما بعد أن ارتقت الفنون العسكرية واحتاجت إلى علوم وصناعات كثيرة وأيد عاملة متعددة، وإعداد التموين اللازم للجيش والشعب وحفظه فى أماكن حصينة بعيدة عن العدو، وإعداد المشافى والأدوية ووسائل العلاج اللازمة للمرضى والمصابين فى المعارك وغيرها كل ذلك يتوقف على المال فإعداد المال اللازم لذلك واجب ومن أهم وسائل النصر.

---

١ ــ ابن كثير ٢/٢٩٧.   ٢ ــ التوبة ١٤، ١٥.   ٣ ــ آل عمران ١٢٣.

ولهذا نجد الله سبحانه بعد أن أمرنا بإعداد المستطاع من القوة ومن رباط الخيل يقول: ﴿**وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون**﴾ أى وما تنفقوا من شيء قل أو كثر ابتغاء مرضاة الله يعطكم عليه الجزاء التام، وأنتم لايلحقكم نقص فى أجوركم، ولا ضرر من أعدائكم، فإن القوى المستعد لمقاومة المعتدى قلما يعتدى عليه أحد، وإن اعتدى عليه فقل أن يظفر منه بشيء.

فالآية تشير إلى أن إعداد المستطاع من القوة الحربية والمرابطة فى سبيل الله لايمكن وجودها إلا بإنفاق المال الكثير، ولهذا رغب الله المؤمنين فى الإنفاق فى سبيله ووعدهم بأن كل ماينفقونه ابتغاء وجهه يجزون عليه جزاء وافياً، إما فى الدنيا والآخرة، وإما فى الآخرة فقط.

هذا فضلاً عن أن الله تعالى أوجب صراحة إنفاق المال فى سبيل الله لتسليح الجيش والقيام بكافة شئونه، وبين فضله فى النصر والثواب فبعد أن أمر المؤمنين بالجهاد ورد الاعتداء بالمثل بقوله: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلمـــوا أن الله مع المتقين**﴾، أمرهم بالإنفاق فى سبيله وأمر الله واجب تنفيذه فقال تعالى: ﴿**وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾[1].

ذلك لأن الجهاد يعتمد على المال، كما يعتمد على العتاد والرجال ــ والتهلكة: المذلة كما قال البيضاوى، فترك الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله يؤدى إلى المذلة ويعرض الأمة للهلاك، قال أبو أيوب : كانت التهلكة الإقامة فى الأموال وإصلاحها وترك الغزو، وتتدرج الآية الكريمة فى مراق العمل والبذل فى سبيل الله فتدعو إلى الإحسان فى الجهاد وفى الإنفاق، وفى غيرهما من كل طاعة وعبادة، وإحسان الشيء إتقانه وإجادته والإتيان به على خير وجه وأكمله، وهذه الأمة مدعوة إلى الكمال فى كل شيء ــ حتى تكون خير أمة أخرجت للناس ــ وإذا كان الله يحب المحسنين ومنهم المجاهدون والمنفقون فى سبيله فإنه لاشك ينصرهم على أعدائهم.

وكما قرن الله إنفاق المال بالجهاد فيما سبق ورغب فيه قرنه به وحث عليه فى قوله تعالى: ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم. من ذا الذى**

١ ــ البقرة ١٩٥.

يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾[1]، فبعد أن أمر سبحانه بالقتال فى الآية الأولى دفاعاً عن الحق، وكان ذلك يتوقف على بذل المال لتجهيز المقاتلة، والاستعداد للمدافعة، حث هنا على بذل المال فيما يعين على الجهاد ويعلى شأن الدين ويمنع اعتداء المعتدين.

(٣) إعداد الجنود الصالحين للجهاد:

إن الحق لاينتصر فى هذه الدنيا مالم تؤيده قوة مؤمنة به، ويناضل ويكافح عنه رجال أقوياء صدقوا ماعاهدوا الله عليه، ولذا قال ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز» الحديث رواه مسلم[2] وهكذا يطلب الإسلام من جنوده أن يكونوا أقوياء: أقوياء فى الإيمان بالله، أقوياء فى أنفسهم وبحقهم فى الحياة، أقوياء فيما يقومون به من الجهاد، لأنهم إنما يقاتلون دفاعاً عن الحق وإعلاء لكلمة الله، أقوياء فى أجسامهم وعلمهم وفنهم، وفى تدريبهم على السلاح الذى يجاهدون به والعمل الذى يسند إليهم، حتى يؤدوا واجبهم على الوجه الأكمل ويستطيعوا الإسهام فى تحقيق النصر، ففى المعارك دائماً يتحقق النصر للجانب الأفضل استعداداً.

قال تعالى: ﴿**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون**﴾[3] وقال مبيناً فضل التفوق فى العلم: ﴿**قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾[4] وقال: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير**﴾[5] كما قال: ﴿**إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً**﴾[6] فديننا يرشدنا إلى أن نكون أقوياء فى كل شيء وأن نتعلم فنون القتال وأساليب الحرب والنزال لنجاهد عدو الله وعدو الوطن على خبرة وبصيرة وثقة فى وعد الله فننال النصر المؤزر أو الاستشهاد المظفر: ﴿**قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون**﴾[7] وكان ﷺ يفتح الميادين للتدريب على كل

---

١ ـ البقرة ٢٤٤، ٢٤٥.　٢ ـ فى ١٦/٢١٥.　٣ ـ الزمر ٩.
٤ ـ النمل ٤٠.　٥ ـ المجادلة ١١.　٦ ـ الكهف ٣٠.　٧ ـ التوبة ٥٢.

أنواع الأسلحة ويشجع المتنافسين فى التدريب على فنون الجهاد والرمى بالسهام، فعن ابن عمر قال: «سابق رسول الله ﷺ بين الخيل..» الحديث رواه الجماعة[1]. وقال لمن رآهم يتنافسون فى الرمى بالسهام «ارموا وأنا معكم كلكم» رواه أحمد والبخارى[2] وقال: «من رمى بسهم فى سبيل الله فهو له عَدْلُ محررة» أى مثل أجر رقبة معتقة، رواه الخمسة[3].

وإنما كان الجهاد بالنفس فى سبيل الله من وسائل النصر كالجهاد بالمال لقوله تعالى: ﴿**ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز**﴾[4].

كيف لا ...؟ وفيه التضحية بالنفس ابتغاء مرضاة الله — والجود بالنفس أقصى غاية الجود — ومع كونه واجباً على كل مستطيع فلا بد فيه من اتحاد الأمة وتضامنها وتكاتفها حتى يتحقق النصر، ولذا يقول سبحانه: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً**﴾[5] أى اخرجوا للجهاد على كل حال من يسر أو عسر وصحة أو مرض وغنى أو فقر، وقلة عيال أو كثرتهم.

فإذا أعلن النفير العام (التعبئة العامة) وجب الامتثال إلا حال العجز التام وهو مابينه الله تعالى فى قوله: ﴿**ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله**﴾[6] ويؤيد هذا التعميم ماجاء فى ابن جرير عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدراً ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاماً واحداً، قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً**﴾ فلا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلاً. وما جاء فيه عن أبى راشد الحرانى قال: وافيت المقداد بن الأسود، فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت[7] من توابيت الصيارفة بحمص. وقد فضل عنها من عظمه يريد الغزو، فقلت قد أعذر الله إليك، فقال أبت علينا سورة البعوث — يعنى براءة — ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً**﴾[8].

وفى ابن كثير قرأ أبو طلحة سورة براءة حتى أتى على هذه الآية: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله**﴾ فقال: أرى ربنا

---

١ — نيل الأوطار ٨/٦٤. ٢ — المصدر السابق ٧٠. ٣ — المصدر السابق ٧١.
٤ — الحج ٤٠. ٥ — التوبة ٤١. ٦ — التوبة ٩١.
٧ — التابوت: صندوق من خشب. ٨ — تفسير ابن جرير ١٠/١٣٩، ١٤٠.

استنفرنا شيوخاً وشباباً جهزونى يابنى، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها[1] وهكذا فهم أصحاب رسول الله القرآن على هدى النبى ﷺ وعمله فقدموا أنفسهم وما يملكون لله فنصرهم الله، وفتحوا البلاد ونشروا الإسلام والعدل بين العباد.

وقوله تعالى: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾[2] يدل على وجوب الجهاد بالمال والنفس لمن قدر عليهما ومن قدر على أحدهما وجب عليه ما كان فى مقدرته. كما يدل قوله تعالى: ﴿**ذلكم خيرلكم إن كنتم تعلمون**﴾ على أن الجهاد بالمال والنفس من أسباب النصر والثواب. أى ذلكم الذى أمرتم به من النفر والجهاد بالأموال والأنفس خير لكم فى الدنيا والآخرة، وخيرية الدنيا تشمل النصر وحفظ كيان الأمة وسيادتها وسعادتها فى معيشتها، وخيرية الآخرة تشمل الفوز العظيم فى جنات النعيم، وقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس لأنها قوام الأنفس ولأنها التى يبدأ بها فى الإنفاق، على أن الله سبحانه بين صراحة فى الآيات التالية أن الجهاد بالأموال والأنفس فى سبيل الله من وسائل النصر كالإيمان بالله ورسوله فقال تعالى:

﴿**يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين**﴾[3].

(٤) إحسان العمل

إحسان العمل هو إتقانه وإجادته والإتيان به على خير وجه وأكمله، وأمتنا متضامنة ومتكاتفة فى أعمالها وسعادتها وفلاحها فنجاح الأفراد فى أعمالهم وتفوقهم فيها نجاح للأمة وتقدم لها فعلى كل أفراد الأمة أن يتقنوا أعمالهم ويجيدوها

---

١ ــ ابن كثير ٢/٢٥٩. ٢ ــ التوبة ٤١. ٣ ــ الصف ١٠: ١٣.

ويبذلوا فى إحسانها أقصى جهدهم، سواء كانت أعمالهم زراعية أو تجارية أو صناعية أو حربية أو تعليمية أو أى شىء آخر حتى يتحقق للأمة الفلاح والنصر فقد قال تعالى: ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾(١) قال ابن كثير أى معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه، وقال تعالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾(٢) وقال: ﴿**وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾(٣) وقال: ﴿**إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً**﴾(٤) وقال: ﴿**إن الله لايضيع أجر المحسنين**﴾(٥) وإذا كان الله مع المحسنين ويحبهم ولا يضيع ثمرة مجهودهم وعملهم فإنه ينصرهم على أعدائهم إذا ساروا على الطريق الذى رسمه لهم.

وإذا كان إحسان الأعمال من أسباب النصر ولا يصد العدو ويوقفه عند حده إلا الحرب، فعلى الأمة كلها أن تنهض بأعمالها وأن تطورها وتبلغ بها كمالها، وأن تجيد صناعة آلات الحرب وأدواتها المختلفة وأساليبها المتنوعة وتبلغ بها إلى أعلى مستوى ممكن لها، صناعة وفناً وأسلوباً وتدريباً، وأن يعرف الرؤساء والقادة مرءوسيهم معرفة تامة ويضعوا كل فريق فى السلاح والمكان الذى يناسبه ويتفوق فيه حتى ترتفع كفاءتهم القتالية وروحهم المعنوية ويكونوا نسوراً فى الجو وأسوداً فى البر وعمالقة فى البحر.

وعلى الجند أن يعنوا بسلاحهم ويحافظوا عليه لأن ذلك يديم جودته ويوفر الكثير منه، وإهماله وعدم الاهتمام به يسبب الهزيمة قال تعالى: ﴿**ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة**﴾(٦) وقال ﷺ «من علم الرمى ثم تركه فليس منا، أو قد عصى...» رواه مسلم وطلب ﷺ من السيدة فاطمة (تنظيف سيفه ووضعه فى غمده).

وإذا كانت أمتنا مدعوة إلى الكمال فى كل شىء، علما وفنا وعملا كما قال تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾(٧) وقال: ﴿**وقل ربى زدنى علما**﴾(٨) وقال: ﴿**نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم**﴾(٩) وقال: ﴿**وقل**

---

١ — آخر النحل. ٢ — آخر العنكبوت. ٣ — البقرة ١٩٥.
٤ — الكهف ٣٠. ٥ — التوبة ١٢٠. ٦ — النساء ١٠٢.
٧ — آل عمران ١١٠. ٨ — طه ١١٤. ٩ — يوسف ٧٦.

اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[1] وقال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» رواه البيهقى[2] ، وكل عمل يحتاج إلى إتقان فعلينا أن نتقن أعمالنا حتى يتحقق لنا الكمال الذى رضيه الله لنا وينصرنا على أعدائنا ويسعدنا فى حياتنا.

* * *

---

١ ــ التوبة ١٠٥ .

٢ ــ كنوز الحقائق ٣٥ .

المبحث الثانى : الوسائل التنظيمية

١ ــ الاتحاد

لاشيء يضر بالأمم ويذهب بقوتها أكثر من الاختلاف والتنازع وتفرقة الكلمة وتشعب الآراء، فإن الأمة إذا اختلفت فى أمورها اضطربت أحوالها وتعطلت أعمالها فتتأخر، وتضعف شيئاً فشيئا حتى تصبح نهبا لغيرها، وفريسة لأعدائها، لذلك جاء القرآن الكريم داعيا إلى الوحدة ومحذراً من الاختلاف والفرقة فقال تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾[١] .

فدعانا فى هذه الآية الكريمة إلى أن نتمسك بدين الله، وأن نكون مجتمعين متحدين على الحق وأن تسود بيننا المودة والمحبة، وأن نذكر ماأنعم الله به على العرب من الألفة والإخوة فى ظل الإسلام بعد أن كانوا متعادين متناحرين بسبب العصبية المسيطرة عليهم وأن نقدر دائما هذه النعمة التى صيرت العرب إخوانا والمسلمين إخوة ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾، وأن نذكر أن العرب فى الجاهلية كانوا على طرف حفرة من النار كادوا يقعون فيها بسبب وثنيتهم وشركهم، فليس بين الشرك والهلاك فى النار إلا الموت والموت أقرب غائب ينتظر فأنقذهم الله منها بالإسلام.

كذلك يبين الله لنا آياته الواضحة وحججه القاطعة لنهتدى بها ونسير على نهجها ولا نعود إلى عمل الجاهلية من الشرك والتفرق والعدوان.

فعلى الأمة الإسلامية أن تتعظ وتعتبر بمن سبقها من الأمم وأن تتجنب التفرق والنزاع الذى وقع فيه غيرها فقد قال تعالى: ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا**

---

١ ــ آل عمران ١٠٣ .

واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك هم عذاب عظيم﴾[1] وعن أبى موسى قال ـــ لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل إلى اليمن ـــ قال لهما : «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا» رواه الشيخان عن سعيد بن أبى بردة عن أبيه، واللفظ لمسلم[2] وقال ﷺ : «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه» رواه مسلم ـــ عليها أن تؤمن أن الوحدة سياج الأمة ودرعها الواقى والصخرة التى تتحطم عليها قوى البغى والعدوان، وأن المسلمين أمة واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم.

ولأن الوحدة قوة والتفرق ضعف لم يكد ﷺ يحط رحاله فى دار هجرته حتى أخذ فى بناء الأمة الإسلامية على أسس قوية، فآخى بين الأوس والخزرج وبين المهاجرين والأنصار، وكون منهم أقوى وحدة عرفها التاريخ، وتقوية للجبهة الداخلية عقد مع سكان المدينة من غير المسلمين معاهدة دفاعية وحافظ عليها حتى بدءوا هم بنقض عراها، فكان وبالها عليهم، وصدق الله **﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾**[3] .

وبين الله سبحانه أن وحدة المؤمنين وموالاة بعضهم لبعض من أسباب النصر فقال : **﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾**[4] قال ابن كثير، فى تفسير هذه الآية : فكل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح فى الدنيا والآخرة، ومنصور فى الدنيا والآخرة وقال صاحب المنار فى تفسيرها : ومن يتول الله تعالى بالإيمان به والتوكل عليه ويتولى الرسول والمؤمنين بنصرهم وشد أزرهم وبالاستنصار بهم دون أعدائهم فإنهم هم الغالبون، فلا يغلب من يتولاهم لأنهم حزب الله تعالى، ففيه وضع المظهر موضع الضمير، ونكتته بيان علة كونهم هم الغالبين.

لما كتب الأمراء إلى أبى بكر قبل موقعة اليرموك يخبرونه بحالهم وحشود الروم كتب إليهم أبو بكر : أن اجتمعوا وكونوا جندا واحدا والقوا جنود المشركين، فأنتم أنصار الله والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم عن قلة، ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها، وليصل كل رجل منكم بأصحابه.

---

١ ـــ آل عمران ١٠٥ . ٢ ـــ اللؤلؤ ٢/٢٠١ . ٣ ـــ الفتح ١٠ . ٤ ـــ المائدة ٥٦ .

وبين ﷺ فضل الوحدة فى القوة والنصر فقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» متفق عليه، وقال: «يد الله على الجماعة ومن شذ شذ فى النار» رواه الترمذى وقال: (والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه» رواه مسلم ومن يتصفح تاريخ المسلمين يجد أنهم انتصروا فى جميع معاركهم حينما كانوا متحدين، وما خذلوا إلا عندما تمزقت وحدتهم وفرقت الدنيا بينهم فوقعوا فريسة لغيرهم ــ وقد أكد الله وحدة أمتنا حتى لاتخرج عليها فقال: ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾[1] ، وقال: ﴿**وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربُكم فاتقون**﴾[2] وقال ﷺ «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية..» الحديث رواه مسلم.

فعلى الأمة أن تتحد جيشا وشعبا وحكومة، عليها أن تتحد كلها استجابة لتعاليم ربها حتى ينصرها الله على أعدائها، عليهم أن يأخذوا من وحدة المسلمين الأولين بقيادة الرسول العظيم ﷺ أسوة لهم حتى ينصرنا الله كما نصرهم. لقد بارك الله وحدة الرسول وصحبه وأثنى عليها وبين قوتها وفضلها بقوله: ﴿**وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين.وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم**﴾[3] فأخلصوا لوحدتكم اليوم وتعاونوا على تقويتها حتى تؤتى ثمارها كما فعل المسلمون من قبل ولا أدل على ذلك من قوله تعالى مادحا لهم اتحادهم وتعاطفهم وإيثارهم: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾[4] وقوله: ﴿**أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾[5] وقوله: ﴿**والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾[6] .

٢ ــ النظام والبنيان المرصوص

قال تعالى: ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص**﴾[7] .

---

١ ــ الأنبياء ٩٢ . ٢ ــ المؤمنون ٥٢ ٣ ــ الأنفال ٦٢، ٦٣ . ٤ ــ الفتح ٢٩ .

٥ ــ المائدة ٥٤ . ٦ ــ الحشر ٩ . ٧ ــ الصف ٤ .

والمعنى:إن الله يحب ويرضى عن الذين يقاتلون فى سبيله وابتغاء مرضاته بنظام وحكمة صافين أنفسهم مستعدين للقتال على حسب زمانهم وهم كالبنيان المرصوص الذى يحمى بعضه بعضا، لأنه متماسك لافرجة فيه ولا خلل، وذلك يقوى الجيش ويرهب العدو، وهو إشارة إلى إحكام أمر القتال والاستعداد له استعدادا مناسبا لحال العصر مع الوحدة والتضامن والتكاتف فى القيام بهذا الواجب، وتنفيذ الأوامر والتعليمات بدقة، ومقابلة العدو بقلوب مطمئنة وأجسام ثابتة ثبوت البنيان الشامخ المحكم والمحاربة فى كل الجبهات بكل القوى الأرضية والبحرية والجوية بحيث تلقى كل قوة بثقلها فى المعركة فى الوقت المحدد فيحمى بعضها بعضا، ولا يجد العدو ثغرة فى ميدان المعركة ينفذ منها إلى أية قوة يفتك بها أو يحطم فاعليتها، فإن فعلوا ذلك فإن الله يحبهم، ومتى أحبهم نصرهم لأنه متى خاض المؤمنون المعركة على هذا النظام والتحموا مع العدو بكل قواهم ارتفعت روحهم المعنوية وتنافسوا فى الضرب والقتال وأدخلوا الرعب والفزع فى صفوف الأعداء، فسرعان ماتنهار جبهتهم وتتحطم صفوفهم وتحل بهم الهزيمة ويندحر حزب الشيطان بإذن الله.

فعلينا أن نقف أمام الأعداء صفا واحدا، مؤمنين بوجوب الجهاد علينا جميعا، وأن نخوض معركة مقدسة ندافع فيها عن دين ووطن وكرامة وعن حق اعترف به الجميع مستميتين فى جهادنا طالبين إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة حتى يلقى الله الرعب فى قلوب أعدائنا وينصرنا عليهم.

ففى يوم بدر وقف المؤمنون خلف رسولهم صفاً واحداً فى عزم صادق وإيمان راسخ وحماس دافق للجهاد فى سبيل الله يحبون الموت ويتسابقون إليه كما يحب غيرهم الحياة فنصرهم الله نصرا مؤزرا وهم قلة وأذلة وليس أدل على شجاعتهم وبطولتهم وحبهم للاستشهاد من قول عمير بن وهب الجمحى حينما أرسلته قريش فى بدر ليحزر لهم أصحاب الرسول ﷺ فجال بفرسه حول المعسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟ فضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا فرجع إليهم فقال: ماوجدت شيئا. ولكنى قد رأيت — يامعشر قريش — البلايا تحمل المنايا[1]، نواضح[2] يثرب تحمل الموت

---

١ — جمع منية وهى الموت. ٢ — الإبل التى يسقى عليها.

الناقع[1] ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ماأرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم .

٣ ــ تطهير الجيش من العناصر الفاسدة

يجب تطهير الجيش من العناصر الفاسدة والدخلاء، ومن أصحاب الفتن والخذلان والمبادىء الهدامة ، حتى يكون الجيش كله يدا واحدة وقلبا واحدا ، فيستطيع الفوز فى الحرب وتحقيق النصر قال تعالى : ﴿**يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون**﴾[2] .

المفردات : بطانة الرجل: خاصته ومستودع سره . لايألون : لايقصرون . خبالا : فسادا . العنت : المشقة .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا من غير المؤمنين ــ كالكافرين والمنافقين ــ أولياء لكم وخواص تؤثرونهم بالمودة وتطلعونهم على أسراركم، وهم لايقصرون فى مضرتكم وإفساد أمركم مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وهم يتمنون تعبكم ومشقتكم وقد ظهر بغضهم وحسدهم لكم ، وما فى صدورهم من ذلك أكثر وأعظم ، قد بينا لكم الآيات والإرشادات لعلكم تعملون بها فتتخلصوا من شرور هؤلاء ومفاسدهم .

وقال تعالى مبينا أضرارهم : ﴿**لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين**﴾[3] . أى لو خرج هؤلاء المنافقون معكم فى الجهاد مازادوكم قوة ومنعة وإقداما كما هو الشأن فى القوى المتحدة فى العقيدة والمصلحة بل زادوكم اضطرابا فى الرأى وضعفا فى القتال ، ومفسدة فى النظام كما حدث فى غزوة حنين ، فقد ولى المنافقون الأدبار فى أول المعركة ، وولى على إثرهم ضعاف الإيمان من طلقاء فتح مكة فاضطرب نظام الجيش وولى أكثر المؤمنين معهم بلا تدبر ولا تفكير ، كما هو الشأن فى مثل هذه الأحوال .

---

١ ــ الثابت . ٢ ــ آل عمران ١١٨ . ٣ ــ التوبة ٤٧ .

﴿ **ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة** ﴾ أى ولأسرعوا فى الدخول فيما بينكم سعيا فى النميمة وتفريق الكلمة، يبغون بذلك تثبيطكم عن القتال وتهويل أمر العدو وإيقاع الرعب فى قلوبكم ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ أى وفيكم إناس من ضعاف الإيمان والعزيمة يسمعون كلامهم الذى يضعف العزائم ويثبط عن الجهاد ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ وسيعاقبهم على ذلك.

وقال تعالى مبينا إذا عتهم للسوء والأضرار ومحذرا منها: ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا** ﴾[1] . إن المنافقين أصحاب العناصر الفاسدة والمذاهب الهدامة هم سبب الهزائم والنكسات فى المعارك الإسلامية ففى موقعة أحد خرجوا مع المؤمنين ثم انشقوا عليهم وعادوا بثلث الجيش بقيادة زعيمهم عبد الله بن أبى ليوقعوا الفشل بين صفوف المؤمنين ويخذلوهم أمام عدوهم، ولما تبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، وقال لهم: ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم ﴿ **قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم** ﴾[2] وأذاعوا عن المؤمنين ماأذاعوه من قالة السوء ليفرقوا صفوف المؤمنين ويضعفوا شوكتهم.

والآية تخبرنا أن فى كل أمة من الأمم جماعة يذيعون الأخبار بشغف خصوصا مايتعلق بالحروب بقصد سيىء كالمنافقين، أو بقصد حسن كما يحصل من بعض عامة الشعب، ويرشدنا الله إلى أن الأمور التى تتعلق بالأمن أو الخوف يجب أن يترك الحديث فيها إلى القائد العام وهو الرسول ﷺ، ولأهل الرأى والحل والعقد فى الأمة، فهم أدرى الناس بها وبالكلام فيها. أما أن يتحدث المنافقون بأخبار الأمن والحرب قصدا للسوء أو يتحدث بها من يهرف بما لايعرف فهذا ضرر وأى ضرر على الدولة.

ولذا تنبهت الأمم الحديثة إلى الرقابة على الصحف والإذاعة وغير ذلك من وسائل الإعلام حتى لاتستغل عقول الجماهير خصوصاً وقت الحرب حرصا على وحدة الأمة وسلامة الجبهة الداخلية والخارجية والتحام قوى الشعب، ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم إذ هداكم ووفقكم لطاعته وطاعة رسوله ونور القرآن

---

١ ــ النساء ٨٣ .　　٢ ــ آل عمران ١٦٧ .

لاتبعتم وسوسة الشيطان كما اتبعه بعضكم الذين يبيتون مالا يرضى من القول وظاهرهم غير باطنهم ولما آمن منكم الإيمان الخالص إلا قليل، أو لآمنتم إيمانا ضعفيا.

وقد هدد الله المنافقين وأرباب النوايا السيئة والأغراض الخبيثة الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وتوعد هذه الفئات المفسدة بأشد أنواع العقوبة إذا لم تقلع عن شرها وتكف عن عملها فى إذاعة الأسرار العسكرية والخطط الحربية وتنته عن سعيها فى إضعاف الروح المعنوية، وتفتيت الجبهة الداخلية فقال تعالى: ﴿**لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا. ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا. سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾[1] .

٤ ــ التعــاون

فى التعاون على فعل الخير ودفع الشر، والقيام بما يفيد الأمة ويصلح أمرها، وبما يبعد الأذى والضرر عنها حياة الأمة وقوتها وتقدمها وسعادتها، وانتصارها على أعدائها والمحافظة على مجدها واستقلالها ولذلك أوجبه الله علينا وألزمنا به فقال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب**﴾[2] .

معانى المفردات: البر: التوسع فى فعل الخير. والتقوى: اتقاء مايضر صاحبه فى دينه ودنياه. والإثم: كل ذنب ومعصية. وفى الحديث (البر: حسن الخلق. والإثم: ماحاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس) رواه مسلم وأصحاب السنن. والعدوان: تجاوز حدود الشرع والعرف فى المعاملة والخروج عن العدل.

المعنى: فى هذا الكلام الوجيز البليغ أوجب الله سبحانه التعاون على عمل كل ماينفع الناس أفرادا وجماعات فى الدنيا والآخرة وعلى دفع كل مايضر الناس أفرادا أو جماعات فى الدنيا والآخرة كذلك، وحذر من كل مايوجب ذنبا أو اعتداء على الغير، وتوعد المقصر فى ذلك بالعقوبة الشديدة وبذلك وضع مبدأ التكافل والتضامن بين الأمة على فعل الخير ودفع الشر، والأمة التى يقوم أفرادها

---

١ ــ الأحزاب ٦٠: ٦٢.
٢ ــ المائدة ٢.

بهذا المبدأ أمة منصورة وسعيدة فى الدنيا والآخرة.

فعلى كل أفراد الأمة أن يستجيبوا لأمر الله وينهضوا بأنفسهم وأمتهم حتى يسعدوا وتسعد الأمة، على كل أفراد الأمة فى الجبهة الداخلية أو على خط النار جنودا وقوادا ورؤساء ومرءوسين أن يستجيبوا لأمر الله ويتعاونوا على طرد المعتدى والإسهام فى إزالة آثاره وتطهير البلاد من رجسه وفساده، كل بما يستطيع وما يملك من قوة جسمية أو عقلية أو مالية أو عملية، فالجهاد يكون بالنفس والمال والقلم واللسان وبكل مايفيد المعركة من زراعة وتجارة وصناعة، وبكل مايساعد على استتباب الأمن فى الجبهة الداخلية ورفع الروح المعنوية فى صفوف المحاربين، فالزارع فى مزرعته والتاجر فى متجره والصانع فى مصنعه والعامل فى عمله الدراسى أو القضائى أو الإدارى كلهم مجاهدون فى سبيل الله متى أخلصوا النية فيما يباشرونه من عمل وما يحققونه من مصالح.

فليس الجهاد مقصورا على الوقوف فى الميدان وفى مواجهة العدو فحسب، بل كل معونة تقدم للمقاتل فهى جهاد سواء كانت بالرأى أو بالمال أو برعاية أولاد المجاهدين وأسرهم قال ﷺ: «من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا» متفق عليه[1] وقال ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» رواه أبو داود عن أنس (ض) بإسناد صحيح[2]، وعن جابر (ض) قال: «أراد النبى ﷺ الغزو، فقال: يامعشر المهاجرين والأنصار، إن من إخوانكم من ليس له مال ولا عشيرة فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة، فضممت إلى اثنين أو ثلاثة، ومالى إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملى» أخرجه أبو داود[3]، وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ بعث بعثا إلى بنى لحيان من هذيل، فقال: «لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما» رواه مسلم، وقال ﷺ: «والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه» رواه مسلم.

وقد ضرب أصحاب الرسول رضى الله عنهم أروع الأمثال فى التعاون على الجهاد ووسائله، فكانوا إذا استنفروا للجهاد خرجوا إليه شيبا وشبانا رجالاً ونساءً، وقام كل بعمله الذى يحسنه بل إن الصبيان كانوا يتنافسون فى الخروج إلى

١ــ رياض الصالحين ٤٨٠. ٢ــ نفس المصدر ٤٩١. ٣ــ تيسير الوصول ٢/٩١ والعقبة: النوبة.

الجهاد، ومن منع منه لصغره بكى حتى يؤذن له، وكانوا إذا طلب منهم الإنفاق لتسليح الجيش تسابقوا فى ذلك وكانوا أحسن قدوة كما تقدم — والنساء كان لهن موقف بطولى وإسهام كبير فى المعركة، فكن يقاسمن الرجال فى ميدان الحرب ويساعدن قدر استطاعتهن ومن أهم ماكن يقمن به من أعمال: —

١ — تضميد الجراح ومعالجتها، وتمريض المرضى.

٢ — المساعدة على رفع الروح المعنوية للمقاتلين، وتشجيع المحاربين بالنصائح والأناشيد الدينية التى تبعث فيهم الحمية، وتثير حماس الرجال للدفاع عن الأعراض.

٣ — القيام بوظائف الشئون الإدارية، وإعداد الطعام وإحضار الماء.

٤ — ومنهن كثيرات حملن السلاح وقاتلن مع الرجال، ولم يكن حجابها مانعا لها من مخالطة الرجال فقد كن يتميزن بالعفة وسلامة الأخلاق وطهارة النفس وحسن التربية.

فعن الربيِّع بنت معوذ قالت: «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ نسقى القوم ونخدمهم، ونـرد القتلى والجرحى إلى المدينة» رواه البخارى وأحمد. وعن أم عطية الأنصارية قالت: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم، وأصنع لهم الطعام، وأداوى الجرحى، وأقوم على الزمنى» رواه مسلم وأحمد وابن ماجه. وعن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة معها من الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى» رواه مسلم والترمذى[١].

وممن باشرن القتال فى عهده ﷺ أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية التى دافعت عن الرسول فى أحد بالسيف والرمح، وأصيبت بجراح كما قاتلت يوم اليمامة وجرحت أيضاً.

فعلى كل فرد فى الأمة الإسلامية أن يؤدى واجبه وأن يقوم بعمله على خير وجه، علينا أن نقوم بثورة إنتاجية فى المصانع والمزارع والمؤسسات وأن ندفع بها إلى الأمام ونكون المدد الصادق للجيش الصامد فى مواجهة العدو بما نيسره له من عتاد وما نوفره له من زاد، وما نمده به من أبناء وأحفاد.

١ — الأحاديث الثلاثة بالمنتقى ٣/٧٦٨.

ففى هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة كانت أسرة الصديق كلها تعمل كخلية النحل لنجاح خطة الهجرة. الصديق يعد الرواحل، وكريمته أسماء تعد الزاد، وأشقاؤها وعمال الصديق يقوم كل بعمل خاص لنجاح الخطة. وفى غزوة أحد كان الصحابى زيد بن عاصم الأنصارى وزوجه نسيبة بنت كعب الأنصارية وابناهما حبيب وعبد الله يناضلون فى الميدان، فاقتدوا بهم واعملوا متكاتفين تنالوا من الله النصر والرضوان العظيم.

٥ ـ تماسك الجبهة الداخلية

ومن أقدس واجبات القتال والنضال ومن دعائم النصر وأسبابه تماسك الجبهة الداخلية ووقوف جميع أفراد الأمة صفاً واحداً خلف جيشهم يحمون ظهره فى الميدان ويمدونه بما يحتاج إليه وإذا كانت المحافظة على سلامة الجبهة الداخلية مطلوبة فى كل وقت وفى كل حال فهى فى أوقات الحرب ضرورة من ضرورات الحياة والنصر.

حضرت أبو بكر الوفاة والجيوش الإسلامية تحارب الفرس فى العراق والروم فى الشام والمثنى بن حارثة بالمدينة جاء يطلب مددا لجيش العراق، فخشى رحمه الله على الجبهة الداخلية وعلى الجيوش الإسلامية إذا تركهم بلا خليفة فأخذ رأى كبار الصحابة فى استخلاف عمر فوافقوا عليه فاستخلفه وأوصاهم بمبايعته بعد موته.

ثم استدعى عمر وقال له: اسمع ياعمر ماأقوله لك ثم اعمل به: إنى لأرجو أن أموت فى يومى هذا فإذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم، وقد رأيتنى بعد متوفى رسول الله ﷺ وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله، وبالله لو أنّى أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا، وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وهم أهل الغداوة بهم والجرأة عليهم.

وهكذا أعطانا الصديق رحمه الله درسا عظيماً فى الحرص على تماسك الجبهة الداخلية وحماية ظهر الجيوش الإسلامية فى الميادين، فعلينا أن نحذو حذوه وننهج

نهجه وننسى المصلحة الخاصة فى سبيل المصلحة العامة، ونقدم كل مالدينا من قوى وإمكانيات للمحافظة على تماسك الجبهات حفاظاً على الوحدة.

ينبغى أن يعمل كل مواطن فيما يتيسر له من جوانب النشاط البشرى بقدر مايتقن ويحسن من عمل قال ﷺ: «كل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام فلا يؤتين من قبله».

إن لجان المواطنين من أجل المعركة تستطيع أن تفعل الكثير، تستطيع أن تجعل من كل مواطن ومواطنة جندياً فى جيش شعبى ضخم يكون رصيداً احتياطياً لاينتهى لقواته المسلحة، ولمنظماته الفدائية.

إن الجهاد فى كل زمن لتطهير الأرض من المعتدين فريضة على كل مسلم ومسلمة وإن التضحية بالمال والروح والنفس والنفيس أمر واجب على الجميع فيجب الإسهام بحسب الطاقة بالمال والنفس أو بأحدهما وبما يدعم الصمود ويعبىء الروح ماديا ومعنويا، خصوصا إذا علمنا أن الجندى المقاتل فى الجبهة يحتاج كما يقول الخبراء إلى خدمات ثمانية عشر مدنيا ينتجون له السلاح ويمدونه بالذخيرة والمؤن والعلاج ويحافظون على مواصلاته وإمداداته ويدعمون صموده بالكلمة الطيبة والنصيحة الغالية.

قال ﷺ: «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب فى صنعته الخير والرامى به، ومنبله» الحديث رواه أبو داود. وعن عقبة بن عامر (ض) قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه المحتسب فى عمله الخير، والرامى به، والممد به، وفى رواية ومنبله..» الحديث[1] والمنبل: الذى يناول الرامى النبل الذى يرمى به، وهو الممد به وعن جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة فقال: «إن بالمدينة لرجالا ماسرتم مسيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم العذر» متفق عليه.

ومن تماسك الجبهة الداخلية حفظ حرمة المجاهد فى أهله والقيام بشئونهم فى غيبته حتى لايشغل بهم قال ﷺ: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة

---

١ ــ تيسير الوصول ٢ / ٧٥

أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلا من المجاهدين فى أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ماشاء فما ظنكم»[1] رواه مسلم.

٦ ـــ أخذ الحذر من العدو

قال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا. وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا. ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيماً**﴾[2] .

معانى المفردات: الحِذْرُ والحَذَرُ بمعنى واحد وهو التيقظ والاستعداد والمران، والمراد: احترسوا من العدو واستعدوا له. النفر: الانزعاج عن الشىء وإلى الشىء. والمراد: اخرجوا إلى الجهاد وسارعوا إلى صد العدو إذا تعدى عليكم. ثبات: جمع ثبة، وهى الجماعة المتميزة عن غيرها، أى اخرجوا جماعة تلو جماعة. ليبطئن: ليثبطن غيره عن القتال، أو ليبطئن هو، أى يتباطأ. شهيدا: حاضرا.

والمعنى: يأيها الذين آمنوا احترسوا من العدو واستعدوا لاتقاء شره، فحصنوا حدودكم، ومداخل وطنكم، واحفظوا بلادكم ومصانعكم ومرافقكم العامة وشددوا الحراسة عليها واملئوها بالمرابطين المسلحين بأحدث الأسلحة وأقواها وآلات الرصد لتحركات العدو، حتى تستطيعوا حمايتها من غارات العدو وهجماته، ولا تتركوا له ثغرة ينفذ منها إلى بلادكم، أو منفذا إلى تلاحم صفوفكم وتعرفوا حاله واستعداده، ومدى قوته وعتاده، وأسلحته الحديثة، وأعدوا له مثلها أو أفضل، حتى لايفاجئكم بما ليس فى حسبانكم، فيدمر قواتكم وينتهك حرماتكم ويحتل بلادكم، وتنبهوا لعيونه وجواسيسه حتى لايتصيدوا أخباركم، ويتعرفوا أسراركم، ويتبينوا عوراتكم، والطريق إلى هزيمتكم وتدمير قوتكم احذروه بالليل والنهار، وأوقات العمل والراحة فقد يأخذكم على غرة أو غفلة فعن سلمة بن الأكوع قال: «أتى النبى ﷺ عين من المشركين وهو فى سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انسل، فقال رسول الله ﷺ: (اطلبوه فاقتلوه) فقتلته،

١ ـــ معناه: ماتظنون فى رغبته فى أخذ حسناته والاستكثار منها فى ذلك المقام؟ أى لايبقى منها شيئاً إن أمكنه.
٢ ـــ النساء ٧١ : ٧٣ .

فنفلنى رسول الله ﷺ سلبه» رواه أحمد والبخارى وأبو داود[١] .

وصنعوا كل آلات الحرب وأسلحتها وكل ماهو مطلوب لكم ونافع لبلادكم، ولا تعتمدوا على أى بلد أجنبى، فقد يكون صديق اليوم عدو الغد فيعتزلكم سياسيا، ويحاربكم اقتصاديا ويشارك فى هزيمتكم، ويسهم فى ضياعكم، وتعرفوا أخبار عدوكم ومداخل بلاده وطرق مواصلاته ومصانعه، ومؤسساته، حتى إذا اعتدى عليكم فى شيء من ذلك عاقبتموه بمثل جرمه، وأوقفتموه عند حده، وأدرسوا علاقاته وصلاته بغيره من الدول، ومدى التعاون بينهما، فصديق عدونا عدولنا، وقووا الرقابة وسلطوا الأضواء على كل آت أو ذاهب من بلاد الأعداء ومن يتعاون معهم، واحذروا أن يصل بالإغراء والدعاية إلى جبهتكم الداخلية فيجد فيها من يتعاون معه من مرضى القلوب وضعاف النفوس، فقد يؤتى الحذر من مأمنه، ووطدوا العلاقات، وقووا الصلات بينكم وبين الذين يعاملونكم على قدم المساواة، فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ويد الله مع الجماعة، والله سبحانه يقول: ﴿**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾[٢] ومن لم يكن معنا ونحن طلاب حق وعدل فهو علينا فلنحذره، وقد أمرنا الله بأخذ الحذر من العدو حتى فى حال الصلاة، فإنه لايرعى حرمة الله وإن فى الصلاة فقال تعالى: ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا**﴾[٣] .

ولذا كان ﷺ شديد الحذر من العدو، فكان يتخذ حراسا له حتى عصمه الله فصرفهم، وكان له مرابطون فى الثغور، وحراسا على مداخل المدينة، وعلى الجيش ومعداته فى إقامته وترحاله، وكان ﷺ وأصحابه على علم تام بأرض العدو، كما كان لهم عيون وجواسيس يأتونهم بأخباره، وكان يطلع الطلائع ويبيت

---

١ ــ منتقى الأخبار ٢/٨٠٧ .   ٢ ــ الممتحنة ٨ .   ٣ ــ النساء ١٠٢ .

حراس العدو، ولما أخبروه بنقض قريش للعهد، وإخلالها بشروط صلح الحديبية استعد لفتح مكة، ولم يفلح أبو سفيان فى تجديد العهد مرة أخرى، وكان يظن أن المسلمين مازالوا لم يعلموا بنقض قريش للعهد.

ومن وصيته ﷺ لأسامة بن زيد حينما أرسله لأرض البلقاء من فلسطين (فإن أظفرك الله فأقل اللبث فيهم، وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك)[1]، وقال ﷺ: «خير الناس فى الفتن رجل آخذ بعنان فرسه خلف أعداء الله يخيفهم ويخيفونه..» رواه الحاكم والطبرانى بإسناد صحيح[2]، وقال: «عينان لاتمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله» رواه الترمذى، وقال: حديث حسن[3].

وقال الصديق لخالد — عندما أرسله لحروب المرتدين — فإذا دخلت أرض المعركة فكن بعيداً عن الحملة، فإنى لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسر بالأدلاء، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة، واحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات، فإن للعرب غرة وأقلل من الكلام فإنما لك ماوعى عنك، وأقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله فى سرائرهم، وأستودعك الله الذى لاتضيع ودائعه[4].

واتبع خالد فى حربه تعاليم رب العالمين وإرشاد سيد المرسلين، وترسم وصية الصديق فانتصر على المرتدين وحارب الفرس فى خمس عشرة موقعة فلم يهزم ولم يخطىء ولم يفشل قط فى واحدة منها ليقظته وشدة حيطته وسعة خبرته بفنون الحرب، فكان يسير بجيشه دائما على تعبئة كاملة فيقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجىء، وكان كما وصفه عمرو بن العاص (فى أناة القطاة ووثبة الأسد) فلا يهمل الحيطة ولا يعول على الشجاعة دون الحزم والحيلة، وكان يبعث العيون والطلائع ويرسل المقدمة أو يضع رجالا فى أعلى الجبل قاصدا الوقاية وكان يستبقى طائفة من جيشه فى البلاد التى فتحها حماية لظهره واستعدادا لمن يجترىء عليها بعد مسيره.

ومن وصية عمر لسعد بن أبى وقاص حينما وجهه لقتال الفرس: (وإذا وطئت

١ — نور اليقين للخضرى ٢٧١
٢ — الجامع الصغير للسيوطى ١/٥٢٨.
٣ — رياض الصالحين ٤٨١.
٤ — العقد الفريد ١/٩٢.

أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لاينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه والغاش عين عليك وليس عينا لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم. وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوا كان أول من تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد — ولا تخص بها أحدا بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية.

فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقومك، ثم لاتعاجلهم المناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم أذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك).اهـ[1] .

وهكذا فسر الرسول وصحبه قوله تعالى: ﴿**وخذوا حذركم**﴾ وطبقوه عمليا فى حروبهم فنجحوا فيها هذا النجاح الباهر الذى أذهل العالم كله.

ومعنى قوله تعالى: ﴿**فانفروا ثبات أو انفروا جميعا**﴾ أى وإذا أخذتم حذركم فاخرجوا إلى القتال جماعات جماعات إذا كان الجيش كبيراً، أو موقع العدو يستدعى ذلك أو أعلنوا التعبئة العامة واخرجوا كلكم أجمعون إذا اقتضى حال العدو ذلك وامتثال هذا الأمر يستلزم أن تكون الأمة على استعداد كامل ودائم للجهاد فيكون لديها السلاح اللازم وكل أفرادها القادرين قد تدربوا على استعماله وتعلموا الفنون الحربية واستخدموا الأسلحة العصرية حتى يستطيع الجميع أن يلبوا النداء إذا دعاهم داعى الجهاد وأعلن النفير العام، ولذلك قال سبحانه ﴿**وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة**﴾.

ونعى الله على المنافقين والمفتنين للجبهة الداخلية فقال: ﴿**وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا**﴾ أى وإن منكم لجماعة يثبطون الهمم ويقعدون عن الحرب فإن أصابتكم مصيبة فى

١ — من العقد الفريد جـ ١ صـ ٩٢ .

الحرب كالهزيمة أو القتل قال قد أنعم الله على بالقعود فلم أكن معهم فيصيبنى مثل ماأصابهم ﴿**ولئن أصابكم فضل من الله**﴾ من نصر وغنائم ﴿**ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة**﴾ أى ليقولن قول من ليس بينه وبينكم معرفة وصداقة ومن لم تجمعه بكم مودة حقيقية وإلا فالمودة الظاهرية موجودة ﴿**ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً**﴾ أى فآخذ نصيبا وافرا من الغنيمة.

٧ ـــ إيهام العدو بغير الحقيقة

من وسائل النصر إيهام العدو بغير الحقيقة لإيقاعه فى الهزيمة. كأن يوهمه بأن عدد جنوده كثرة ساحقة لاتغلب، وأن عتاده وأسلحته قوة جبارة لاتقهر، حتى يلقى الروع فى قلبه ويمتلىء خوفا ورعباً فتخور قواه وتحل به الهزيمة أو يوهمه بأن جيشه قليل العدد ضعيف العتاد فيندفع إلى المعركة قبل تمام الاستعداد فيفاجأ بقوة لم تكن فى الحسبان تجرعه كأس الهزيمة والهوان.

وقد أرشدنا الله إلى ذلك فقال: ﴿**إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور**﴾[١].

والمعنى: واذكريا محمد إذ يريك الله ببدر عدد العدو قليلا فى الرؤية المنامية[٢] فتخبر بها أصحابك فيكون تثبيتا لهم وتشجيعا على عدوهم ولو أراك العدو كثيرا فأخبرت أصحابك بذلك لفشلوا وخافوا منه وهابوا الإقدام على حربه ولتنازعوا فى أمر القتال، وتفرقت آراؤهم فى الثبات والاعتذار كما قال سبحانه: ﴿**كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون. يجادلونك فى الحق بعد ماتبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون**﴾[٣] ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع واختلاف الآراء وما يعقبها من الانكسار والخذلان إنه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من الجراءة والجبن، والصبر والجزع فدبر مادبر وكان ماأراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم شجعهم بها على عدوهم وكف بها

١ ـــ الأنفال ٤٣، ٤٤.

٢ ـــ وهذه المخالفة لاتقدح فى أن رؤياه حق إذ معناه أنها معتبرة لأضغاث أحلام أو لعله تعالى أراه البعض دون البعض فحكم ﷺ على من أريهم بالقلة، والله تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد.

٣ ـــ الأنفال ٥، ٦

عنهم ماخيف عليهم منه لعلمه بضعفهم.

واذكر يامحمد أنت والمؤمنون ﴿**إذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا**﴾ حتى قال ابن مسعود لمن كان إلى جنبه أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة. مع أنهم ألف إلا خمسين تثبيتا للمؤمنين وتصديقا لرؤياه ﷺ (ويقللكم فى أعينهم) حتى قال أبو جهل: (إنما أصحاب محمد أكلة جزور — أى لقلتهم يكفيهم جزور واحد فى اليوم، وكانوا لايذبحون إلا جزورا واحدا فى اليوم— وإنما قلل المسلمين فى أعين المشركين قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعدوا لهم، وذلك ليؤلف بينهم على الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منهم والإنعام على من أراد إتمام النعمة عليهم من أهل ولايته، ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم بعد الإلتحام لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا وتضعف عزائمهم وينتصر المسلمون عليهم، وهذا من عظائم آيات الله فى تلك الموقعة، فإن البصر يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا، لكن لاعلى هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما ذلك بصد الله تعالى الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوى فى الشرائط.

إنه سبحانه فعل ذلك ليقدم كل من الفريقين على قتال الآخر، فهذا واثق بنفسه معجب بجنده. وهذا متكل على ربه واثق بوعده، حتى إذا ماالتقيتم ثبتكم وثبطهم ليقضى بنصركم عليهم أمرا كان فى علمه مفعولا وهو إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الكفر وحزبه ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ فلا ينفذ شىء فى العالم إلا ماقضاه وقدر أسبابه.

ومما يدعو إلى التغرير بالعدو وإخفاء الحقيقة عنه قوله ﷺ: «الحرب خدعة» متفق عليه[1] ، ففى هذا الحديث تحريض على أخذ الحذر فى الحرب، وإرشاد إلى خداع العدو فيها كيفما أمكن، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز، وفيه إرشاد إلى استعمال الرأى فى الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة ولذا قال الشاعر:

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهى المحل الثانى

---

١ — اللؤلؤ والمرجان ٢ / ٢٠١ ويكون الخداع بالتورية وبالكمين وقال النووى: اتفقوا على جواز خداع الكفار فى الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

وقال ابن المنير: ومعنى الحرب خدعة، أى الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة فى مقصودها إنما هى المخادعة لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة، ولحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر — ولذا كان خالد بن الوليد (ض)، يوحى إلى خصمه بغير ماينوى حتى يستخدم عنصر المفاجأة ويقضى عليه ومن خداع الحرب والتمويه على العدو طلاء المعدات الحربية من طيارات وسيارات ودبابات وغيرها بلون البقعة الأرضية التى بها هذه الأشياء، وكذا تلوين ملابس الجند وخيامهم بلون المنطقة التى يكونون بها تمويها على العدو وتغريرا به.

* * *

الفصل الثانى : وسائل النصر المعنوية

وبه مبحثان :ـــ

المبحث الأول : الوسائل الأولية

١ ــ إيمان بلا حدود

الإيمان بالله رب الدنيا والآخرة رب العالمين، الذى بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير، قاهر الجبارين، ومهلك الفاسقين، وناصر المتقين، والإيمان بملائكته وجنوده التى لايعلمها إلا هو، الذين لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون يسبحون الليل والنهار لايفترون، يثبت الله بهم الذين آمنوا ويكثر بهم جمعهم. والإيمان بكتبه السماوية التى أنزلها لإسعاد البشرية ورحمة الإنسانية وخاتمها القرآن الكريم الذى نزله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، والإيمان برسل الله الذين أرسلهم إلى أممهم مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة يوم القيامة وخاتمهم محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين وهدى للناس أجمعين. والإيمان باليوم الآخر وما فيه من نعيم مقيم للمؤمنين العاملين، وعذاب أليم للعاصين والمعتدين.

الإيمان بكل ذلك إيمانا حقا يصدقه العمل يدفع المؤمن إلى أن يقدم نفسه وماله وكل مايملك إبتغاء مرضاة الله ورغبة فى مغفرته وحسن مثوبته كما قال تعالى : ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**﴾(١) وكما قال سبحانه : ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾(٢) . هذا الإيمان الحق من أهم

١ ــ الأنفال ٢ : ٤ .   ٢ ــ الحجرات ١٥ .

دعائم النصر وعوامله، لأنه يمنح المسلم عزما صادقا وإرادة قوية وقوة روحية وبدنية وثقة إلهية وتوفيقات ربانية ونفحات سماوية، فيقبل على المعركة غير هياب ولا وجل، لايتطرق إليه يأس ولا يعتريه فتور. لاتخيفه قوة الأعداء ولا تزعجه معارك الأقوياء، لأنه يستمد العون والقوة من رب الأرض والسماء، ورب العرش العظيم، ويطلب النصر من صاحب الحول والطول وواهب النصر ذى القوة المتين ﴿**وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم**﴾.

هذا الإيمان هو القوة الإيجابية التى تجعل المؤمن يتغلب على الأزمات والشدائد، ويتخطى العقبات ويقتحم الحواجز ويثبت فى أشق المعارك وأعنف الملاحم يجالد ويقاتل فى صبر راسخ وإيمان صادق بنصر الله، وبأنه لايستحيل شىء مع عون الله. قال خالد بن الوليد لأهل قنسرين حينما ذهب لفتحها فتحصنوا منه (إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا) ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه ولله الحمد[1] .

ولا أدل على أن الإيمان الحق من أهم أسباب النصر من أن الله قبل أن يأذن للمؤمنين فى القتال وعدهم وعدا مؤكدا بالدفاع عنهم فقال تعالى: ﴿**إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحب كل خوان كفور. أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾[2] .

أى إن الله يدفع ويبالغ فى الدفع عن الذين آمنوا به وتوكلوا عليه شر الأشرار وكيد الفجار ويكلؤهم وينصرهم على أعدائهم، ويكتب لهم الفلج عليهم والظفر بهم، ثم ذكر السبب فى دفاعه عن المؤمنين وهو أنه لايحب أعداءهم فقال: ﴿**إن الله لايحب كل خوان كفور**﴾ أى لايحب كل من خانوا أمانة الله وهى أوامره ونواهيه، وكفروا أنعمه التى يسديها إليهم بكرة وعشيا، وتعلقوا بما يضرهم ولا ينفعهم، ثم أذن للمؤمنين فى قتال من يقاتلهم ويعتدى عليهم من المشركين حتى يدفعوا الظلم عن أنفسهم ووعدهم وهو القادر على كل شىء. النصر على من ظلمهم فقال: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾.

وأكد سبحانه أن الإيمان من دعائم النصر فقال: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾[3] ، أى إن الله سبحانه ينصر رسله

١ ـ البداية لابن كثير ٧/ ٩٣ . ٢ ـ الحج ٣٨، ٣٩ . ٣ ـ غافر ٥١ .

ومن آمن بهم بالحجة والبرهان المبين وبالانتقام لهم من الكفرة والظالمين بالقتل والسبى والعذاب الأليم، وغير ذلك من العقوبات ولا يقدح فى ذلك مانراه فى بعض المسلمين؟ فإن الإيمان ليس كلمة ينطق بها أو شهادة تردد دون عمل يؤيدها وتضحية تصدقها، ولكن الإيمان ماوقر فى القلب وصدقه العمل قال ﷺ: «ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل، وإن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولاحسنة لهم، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل» رواه البخارى فى تاريخه وأخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن — فإذا آمنوا بالله حقا، وتمسكوا بدينه صدقا وجاهدوا فى سبيله مخلصين حقق الله لهم النصر المبين.

وأكد الله أيضا نصره للمؤمنين بل جعله حقا عليه تفضلا منه وكرما فقال تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين**﴾(١) . أى بالله لقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك إلى أقوامهم الكافرين، كما أرسلنا إلى قومك فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله فكذبوهم كما كذبك قومك وردوا عليهم ماجاءوهم به من عنده كما ردوا عليك ماجئتهم به. فانتقمنا من الذين اجترحوا السيئات ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، ونحن فاعلون ذلك بمجرمى قومك وبمن آمن بك سنة الله التى شرعها لعباده ولن تجد لسنة الله تبديلا، وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو لايخلف وعده وبهذا ضمن الله دفاعه عن المؤمنين ونصره لهم ولا يخفى مافى هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه، والوعيد والنكال والخسران فى المآل لمن كفر بالله وكذب رسوله.

ثم زاد الله من تأكيد نصره للمؤمنين فقال مقسما: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون**﴾(٢) . قال أبو السعود فى تفسيره لذلك: لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة وهو قوله تعالى: ﴿**إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا**﴾ وهم أتباع المرسلين ﴿**لهم الغالبون**﴾ على أعدائهم فى الدنيا والآخرة، ولا يقدح فى ذلك انهزامهم فى بعض المشاهد فإن

١ — الروم ٤٧ .   ٢ — الصافات ١٧١ : ١٧٣ .

قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة، وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب. اهـ.

وأعلن الله مؤكدا أنه مع المؤمنين ومن كان الله معه فلا يغلبه غالب فقال مخاطبا كفار قريش ﴿**ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين**﴾[1] أى إن الله يقول لكفار قريش ولكل الكفار إن عددكم وكثرتكم فى أنفسكم لن تغنى عنكم شيئا وأنى مع المؤمنين أنصرهم على من خالفهم لأنهم حزب الله وحزب الله هم المفلحون.

لقد طبق أسلافنا مبادىء الإسلام على أنفسهم وألزموا بها من تحت ولايتهم، ونفذ الجميع شرع الله فاجتنبوا الآثام والمنكرات وعملوا الصالحات وتسابقوا فى الخيرات وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فنصرهم الله نصرا مؤزرا. فإذا أردنا أن ينصرنا الله كما نصرهم فلنسلك طريقهم ولنتبع هديهم. ولقد تحدثت قصص المرسلين مع أممهم فى القرآن الكريم، وتكلم التاريخ وأثبتت التجارب فى جميع المعارك أن الإيمان أكبر عامل فى الانتصار، كما جرت سنة الله تعالى أنه مع المؤمنين الصادقين فى كل زمان ومكان يدفع عنهم كيد المعتدين، ويوفقهم إلى الطريق القويم ويمدهم بعونه وينصرهم بقوته النصر المبين.

وقد شهدت أمتنا المسلمة المؤمنة معارك كثيرة وخاضت حروبا طاحنة ضد الغزاة الطامعين والمعتدين الظالمين وهم واثقون أن الله معهم يؤيدهم بنصره ويمدهم بجنده وعونه ويدافع عنهم بقوته لأنهم عبيده المخلصون والمؤمنون المجاهدون وهو الذى قال لهم: ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين**﴾[2] وقال: ﴿**إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب**﴾[3] وقال: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾[4] .

لقد خاض المسلمون معاركهم بهذه العقيدة، عقيدة الإيمان الحق بالله رب

١ــ الأنفال ١٩ . ٢ــ التوبة ١٤ .

٣ــ الأنفال ١٢، ١٣ . ٤ــ آل عمران ١٣٩ .

العالمين، فنصرهم الله لصدق إيمانهم ورد كيد أعدائهم فى نحورهم وحقق وعده لهم ﴿**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**﴾ وأكبر شاهد على أثر الإيمان والمحافظة على تعاليم القرآن فى النصر غزوة بدر الكبرى فقد خاضها المسلمون وهم قلة فى العدد والعتاد كانوا دون الثلث من عدوهم ونصرهم الله وهم أذلة كما قال سبحانه: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**﴾ أى قليلون وضعاف فى كل شىء إلا فى الإيمان بالله سبحانه. وغزوة الخندق التى حاصر المشركون فيها المدينة بعشرة آلاف من الأحزاب وانضم إليهم من المدينة يهود بنى قريظة ، والأحزاب يتمتعون بالزاد الوفير والعتاد الكثير، والمسلمون ثلاثة آلاف محاصرون داخل مدينتهم فى ضنك من العيش وقلة من العتاد، ومع ذلك فقد نصرهم الله الذى صور حالتهم بقوله: ﴿**يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً**﴾[1] بل إن كل المعارك التى خاضها المسلمون وانتصروا فيها انتصارا حاسما كاليمامة واليرموك والقادسية ونهاوند وحطين وعين جالوت كان المسلمون فيها دون الخمس وفى قلة من الزاد والعتاد، ولكنهم بقوة إيمانهم وصدق عقيدتهم وإخلاصهم لربهم انتصروا فيها بفضل الله رغم كونهم أذلة وصدق فيهم قول الله: ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾[2] .

فالوسائل المادية وحدها ليست هى التى تفصل فى المعارك، بل الأعصاب أحيانا تكون هى القوة الفاصلة ولا يوجد مايثبت الأعصاب ويقويها كالإيمان الذى يربط القلوب بالله ويصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التى لاتغلب والتى تمد الأرواح بالينبوع الدافق الذى لاينتهى ولا ينضب، وما أروع ماقاله خالد لجنده وهو يشحذ هممهم ويقوى إيمانهم ويير بطولتهم، (لايختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة وأن المسلم لاينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله.

إن المؤمنين يقاتلون وكلام الله يقرع أسماعهم ويتردد على ألسنتهم مشعلا

١ ــ الأحزاب ٩: ١١ .   ٢ ــ البقرة ٢٤٩ .

لجذوة الإيمان فى قلوبهم وباعثا للحماس فى نفوسهم ﴿**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لايستوون عند الله والله لايهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم**﴾[1] .

إنهم يقاتلون وهم يسمعون كلام الحق يشجعهم على الإقدام واقتحام النيران : ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾[2] . إنهم يقاتلون وهم يتلقون البشرى بانتصارهم وهزيمة أعدائهم ويسمعون الترحيب بهم والثناء على أعمالهم من ربهم : ﴿**كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**﴾[3] .

إن الإيمان بالله وما أعده الله للمجاهدين المخلصين هو الذى دفع عبد الله بن رواحة فى غزوة مؤتة ليخطب فى ثلاثة آلاف من المسلمين مشجعا لهم على قتال أكثر من مائة وخمسين ألفا من الكافرين فيقول لهم: (ياقوم، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ،فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما الظفر وإما الشهادة).

وعن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى قال سمعت أبى رضى الله عنه وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف، فقام رجل رث الهيئة[4] فقال ياأبا موسى أأنت سمعت رسول الله ﷺ

---

١ ــ التوبة ٢٠ : ٢٢ . ٢ ــ التوبة ١١١ .

٣ ــ المجادلة ٢١ ، ٢٢ . ٤ ــ خلق الثياب .

يقول هذا..؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام. ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل» رواه مسلم.

وفى سورة العصر أكد الله وأقسم على أن الإيمان المقترن بالعمل الصالح والمصحوب بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر من أقوى دعائم النصر فقال تعالى: **﴿والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾**.

أقسم الله بالعصر لما فيه من أحداث وعبر تدل على علم الله المحيط وقدرته التامة وحكمته البالغة أن كل إنسان واقع فى خسر وهلاك دائم لما له ونفسه وكل مايتعلق به إلا من آمن إيمانا صادقا يدفعه إلى عمل كل خير وبر، وتواص بالحق وهو الأمر الثابت الذى لايمكن إنكاره ولا زوال فى الدارين لمحاسن آثاره وهو كل خير وبر، وتواص بالصبر فأصبحت عنده قوة على تحمل المشاق مهما تكن وتقبل الأحداث مهما تشتد، يزلزل الحوادث ولا يتزلزل بها، ويتخطى الكوارث ولا يكترث بها يجالد ويقاتل حتى يتحقق النصر[1] وهو يردد قوله تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾**[2] . ومن كان بعيدا عن الخسران والهلاك فهو من المفلحين والمفلحون منصورون.

ويملأ الله قلوب المؤمنين إيمانا وثقة فى النصر ويعدهم بالاستخلاف فى الأرض والتمكين فيها فى أمن واطمئنان وعز وسلطان إذا آمنوا به حق الإيمان وعملوا الصالحات وعبدوه مخلصين له الدين وأدوا شرائع رب العالمين فقال تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم**

---

١ ــ ولم تدل هذه السورة على أن النصر للمؤمنين فحسب ولكن الله سبحانه وضع فى هذه السورة الوجيزة البليغة أساس المدنية الفاضلة والسعادة الدائمة للمجتمع الإنسانى أجمع فأوجب على كل إنسان أن يكون كاملا فى نفسه ويسعى فى تكميل غيره، فيؤمن بالله حق الإيمان ويعمل النافع لنفسه وأهله والناس أجمعين ويدعو غيره إلى مثل ذلك ويستعين كلاهما على بلوغ هذا الكمال بالصبر، ولذا قال الإمام الشافعى: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم.

٢ ــ البقرة ٢١٤.

أمنا يعبدونني لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾(١) .

روى الطبرانى والحاكم وابن مردويه عن أبى بن كعب قال: (لما قدم رسول الله ﷺ وصحبه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لايبيتون إلا فى السلاح ولا يصبحون، إلا فيه، فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لانخاف إلا الله فنزلت الآية) وقد وفى الله بوعده فدانت لهم جزيرة العرب فى عهده ﷺ وفارس والشام فى عهد الخليفتين، ووعد الله باق حتى يوم القيامة وسنته لن تتبدل فعلى من يريدون النصر والتمكين والأمن والسلطان أن يقوموا بما طلب منهم ويسيروا فى طريق سلفهم. ومن حاد عنه فأولئك هم الهالكون.

ويزيد الله المؤمنين إيمانا ويقينا فى النصر فيخبرهم أن الفلاح (وهو الفوز بكل محبوب ومنه النصر) محقق للمؤمنين الذين ساروا على منهاج الرسول ﷺ فى الأمور الدينية وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقاموا بما طلب منهم بدافع الإيمان وأمر الله فى القرآن فيقول: **﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون﴾**(٢) ، أى أولئك لهم الخيرات التى هى ثمرات الإيمان والجهاد من شرف النصر ومحو الكفر والتمتع بالغنيمة والسيادة فى الأرض دون غيرهم من المنافقين الجبناء، وأولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

كما أنه محقق للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ وحموه ونصروه بالقول والفعل مع الإجلال والإكبار واتبعوا النور الأعظم الذى أنزل مع رسالته وهو القرآن فقال تعالى: **﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾**(٣) .

كما أكد أيضا تحقق الفلاح الكامل الجامع للنصر الشامل للمؤمنين الجامعين لمكارم الأخلاق والسائرين على منهاج خاتم النبيين فقال تعالى: **﴿قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو**

١ ــ النور ٥٥، ٥٦ .   ٢ ــ التوبة ٨٨ .   ٣ ــ الأعراف ١٥٧ .

ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون .الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾[1] .

روى النسائي قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلقه القرآن فقرأت ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ حتى انتهت إلى ﴿**والذين هم على صلواتهم يحافظون**﴾ قالت هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

ومما يدل على أن الإيمان وماجاء فى هذه الآيات من مكارم الأخلاق من أقوى دعائم النصر ماجاء فى البداية لابن كثير[2] وغيرها — حينما حاقت بالروم هزيمة ساحقة فى يوم واحد بالرغم من أن الروم كانوا أضعاف أضعاف عدد المسلمين — أن أحد أمراء الروم وهو هرقل أمير أنطاكيا بلغ به العجب كل مبلغ حينما رآهم يولون الأدبار منهزمين فى كثرة ساحقة وعدة وافرة فسألهم — ويلكم ! أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم . أليسوا بشرا مثلكم ؟ قالوا : بلى ! قال فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً فى كل موطن . قال هرقل : فما بالكم تنهزمون ؟ فأجابه شيخ من عظمائهم قائلا :

(من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهدويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون فيما بينهم ، ومن أجل أننا نشرب الخمر ونزنى ونركب الحرام وننقض العهد ، ونغصب ونظلم ونأمر بما يسخط الله ، وننهى عما يرضى الله ونفسد فى الأرض) فقال هرقل : أنت صدقتنى .

وما قاله بيتان زعيم فرنسا بعد سقوطها المزرى فى الحرب العالمية الثانية موضحا لقومه أسباب الهزيمة ومرشدا لهم إلى النصر : (لقد جاءت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الشهوات ماشيدته روح التضحية ، وإنى أدعوكم أول كل شيىء إلى نهوض أخلاقى[3] — وما قاله روبرت ميلليكان العالم الطبيعى الأمريكى : إن أهم أمر فى الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق .

وما قاله المارشال مونتجمرى قائد القوات البريطانية فى شمال أفريقيا فى حديثه عن الجيش الثامن والعوامل التى أدت إلى انتصاره ، إن قصة الجيش الثامن تنطوى

---

١ — المؤمنون ١ : ١١ .   ٢ — فى ٧/ ١٥ .   ٣ — مجلة الأزهر جمادى الأولى سنة ١٣٧٦ هـ .

على مغازى روحية عظيمة إلى جانب مغزاها العسكرى فقد دلت على أن أهم عوامل الانتصار فى الحرب هو العامل الأخلاقى، ويقينى أن الجيش إذا سار بدون مرضاة الله فقد سار إلى غير هدى، وعلى كل جيش أن يشن حربا داخلية لتنظيم صفوفه قبل أن يفكر فى شن حرب خارجية ضد أعدائه، لأن خطر الانحطاط الأخلاقى فى أفراد الجيش أعظم من خطر العدو، لذلك لانستطيع أن ننتصر فى أية معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شىء.

وقبل هؤلاء جميعا بأكثر من ألف عام أعلن الرسول محمد ﷺ أن الأخلاق الكريمة هى أساس الفوز والفلاح فى السلم والحرب فقال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] ولأن النصر إنما يتحقق للمجتمع المبنى على الخير ومكارم الأخلاق فقد أمرنا الله بتكوين مجتمع خير فاضل عن طريق الدعوة إلى الخيروالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾[2] .

٢ ــ تقوى بلا قيود

التقوى: من الاتقاء وهو الحجز بين الشيئين، ومنه يقال اتقى بترسه، أى جعله حاجزا بين نفسه وبين من يقصده، فكأن المتقى يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزاً بينه وبين العقاب الإلهى.

والعقاب الذى يتقى ضربان: دنيوى وأخروى، وكل منهما يتقى باتقاء أسبابه فعقاب الدنيا يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله فى الخليقة، وعدم مخالفة النظم التى وضعها الله فى الكون فاتقاء الفشل والخذلان فى القتال مثلا يتوقف على معرفة نظم الحرب وفنونها وآلاتها كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة**﴾ كما يتوقف على القوة المعنوية، من الإيمان بالله والثبات والصبر والتوكل على الله وغير ذلك.

وعقاب الآخرة يتقى بالإيمان الخالص والتوحيد والعمل الصالح، واجتناب المعاصى والآثام التى تضر بالإنسان ومجتمعه.

والتقوى من أهم دعائم النصر لأن المتقى يخشى الله فينفذ كل تعاليمه، وخاصة

١ ــ رواه أحمد والبيهقى والحاكم تعليق العراقى على الإحياء ٢/١٥٥ . ٢ ــ آل عمران ١٠٤ .

فى مواطن الجهاد وأماكن الاستشهاد التى يرى فيها الموت بعينيه وهو موقن بأن الله يراه فلا يولى الأدبار ولا يقصر فى وسائل الانتصار . بل يقبل على المعركة بشجاعة وفتوة وإخلاص وقوة ويخوضها فى صبر وجلد وهو ينتظر إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة وكلاهما حبيب عنده ، فيكون النصر بإذن الله كما قال الصديق لخالد : احرص على الموت توهب لك الحياة .

ولذا أثبت الله وأكد ماأثبته أنه مع المجاهدين المتقين بالتوفيق والتأييد والمعونة والنصر فى ثلاث آيات من كتابه الكريم فقال تعالى : ﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[1] الحرمات : واحدها حرمة وهى مايجب احترامه والمحافظة عليه . والقصاص : المقاصة والمقابلة بالمثل .

ومعنى الآية : أن من انتهك حرمة الأشهر الحرم فقاتل فيها فجزاؤه أن يحرم أمنها فيقاتل فيها جزاء وفاقا ، وأن الحرمات التى تجب المحافظة عليها واجب فيها القصاص والأخذ بالمثل .

فالممنوع الهجوم والبدء بالقتال أما الدفاع والجزاء بالمثل فليس ممنوعا .

فمن اعتدى عليكم بقتال أو غيره فجازوه بالمثل واقتصوا منه بما فعل لأن هذا عدوان منه وجزاء العدوان أن يقابل بمثله فى غير إسراف ولا مغالاة مع التمسك بالتقوى ولزوم جانبها ، وأيقنوا أن الله مع المتقين بالتوفيق والتأييد والمعونة والنصر والتمكين فى الأرض والغلبة لهم على أعدائهم تأييدا لدينه وإعلاء لكلمته .

وقال تعالى : ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[2] فهذا أمر من الله للمؤمنين جميعا يفرض عليهم أن يقاتلوا المشركين مجتمعين متعاونين . ذلك لأن المشركين إنما يقاتلون المؤمنين لدينهم وإطفاء نوره ، لا لانتقام أو عصبية أو كسب منافع دنيوية كما هو دأبهم فى قتال قويهم لضعيفهم ، فأنتم حينئذ أولى بالاتحاد لدفع العدوان وإعلاء كلمة الله وابتغاء الأجر العظيم المعد للمجاهدين فى سبيله . وأيقنوا أن الله مع المتقين للظلم والعدوان والفساد فى الأرض ، بالشرك والمعاصى ، ولأسباب الخذلان والفشل فى القتال

---

١ ــ البقرة ١٩٤ .   ٢ ــ التوبة ٣٦ .

كالتنازع وتفرقة الكلمة ومخالفة سنن الله، وتشريعاته التى جعلها أسبابا للنصر، ومعية الله هنا أيضا معية التوفيق والتأييد والمعونة والنصر وقال تعالى مؤكدا أن التقوى من أسباب النصر: ﴿**يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[1] .

ففى هذه الآية يأمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار القريبين منهم الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ذلك لأن القتال إنما شرع لتأييد الدعوة إلى الدين والدفاع عن أهله وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار، كما قال تعالى: ﴿**لتنذر أم القرى ومن حولها**﴾[2] ، وهذا أفضل لقلة النفقات والمعدات وآلات النقل وسهولة المواصلات ومعرفة حال الأقرب وما لديه من جنود وعتاد فضلاً عن أن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لايؤمن معه هجوم الأقرب على الأهل والأموال والعجزة والمرضى، وقد قال تعالى: ﴿**وخذوا حذركم**﴾ على أن فى قتال الأقرب فالأقرب من الأعداء تأمين الحدود وكسر شوكة المعادين لنا ولذا قال فى البداية لابن كثير[3] : استهلت هذه السنة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ـــ والصديق عازم على جمع الجنود ليبعثهم إلى الشام وذلك بعد مرجعه من الحج عملاً بقوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ وبقوله تعالى: ﴿**قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**﴾ الآية واقتداء برسول الله ﷺ فإنه جمع المسلمين لغزو الشام وذلك عام تبوك. حتى وصلها فى حر شديد وجهد، فرجع عامه ذلك، ثم بعث قبل موته أسامة بن زيد مولاه ليغزو تخوم الشام كما تقدم. ولما فرغ الصديق من أمر جزيرة العرب بسط يمينه إلى العراق، فبعث إليها خالد بن الوليد، ثم أراد أن يبعث إلى الشام كما بعث إلى العراق فشرع فى جمع الأمراء فى أماكن متفرقة.

وقوله ﴿**وليجدوا فيكم غلظة**﴾ الغلظة مثلثة الغين: الشدة، أى وليجدوا فيكم جرأة وإقداما وصبرا وعنفا فى القتل. أى قاتلوهم بشدة وشجاعة ولقنوهم درساً فى البطولة والتضحية يتحدثون به هم ومن وراءهم ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿**يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾[4] والغلظة والشدة فى

---

١ ـــ التوبة ١٢٣ . ٢ ـــ الشورى ٧ . ٣ ـــ ٧/٢ . ٤ ـــ التوبة ٧٣ .

زمن الحرب مما تقتضيه المصلحة لما فيهما من شدة الزجر والمنع من المفاسد والشرور.

وقوله: ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ تأكيد بعد تأكيد فى أن الله معكم بالنجدة والسداد والنصر والإمداد إذا اتقيتموه وراعيتم أحكامه وسننه وابتعدتم عن التقصير فى أسباب النصر والظفر من إعداد القوة والثبات والصبر، وترك الرياء والعجب، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن.

وأكد فى آية رابعة أنه مع المتقين المحسنين فقال تعالى: ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾[1] . قال ابن كثير: أى معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه، وهذه معية خاصة كقوله تعالى: ﴿**إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا**﴾[2] ، وقوله لموسى وهارون ﴿**لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى**﴾[3] . وقول النبى ﷺ للصديق وهما فى الغار «لاتحزن إن الله معنا»[4] . وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى: ﴿**وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير**﴾[5] . وكقوله تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا**﴾[6] : ومعنى ﴿**الذين اتقوا**﴾ أى تركوا المحرمات، ومعنى ﴿**وهم محسنون**﴾ أى فعلوا الطاعات فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم بأعدائهم ومخالفيهم . ا هـ

وأخبر سبحانه فى ثلاث آيات أنه يحب المتقين. وإذا كان يحبهم فإنه ينصرهم على أعدائهم، فقال تعالى: ﴿**بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين**﴾[7] وقال: ﴿**فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين**﴾[8] وقال: ﴿**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين**﴾[9] . كما أخبر فى ثلاث آيات أن العاقبة للمتقين، والعاقبة التى للمتقين هى العاقبة والنهاية الحسنى فى الدنيا والآخرة، فيدخل فيها النصر دخولا أوليا، فقال تعالى: ﴿**إن الأرض لله**

١ــ النحل ١٢٨ . ٢ــ الأنفال ١٢ . ٣ــ طه ٤٦ .
٤ــ التوبة ٤٠ . ٥ــ الحديد ٤ . ٦ــ المجادلة ٧ .
٧ــ آل عمران ٧٦ . ٨ــ التوبة ٤ . ٩ــ التوبة ٧ .

يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾[1] وقال: ﴿**فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾[2] وقال: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**﴾[3] .

وبين أن المتقين المصلحين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، وإذا كانوا كذلك فهم منصورون فقال تعالى: ﴿**فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[4] أى فمن اتقى الله فاجتنب المنهيات وفعل الطاعات وأصلح كل شئونه فلا خوف عليهم فى مستقبلهم ولا هم يحزنون على ماضيهم لأنه لايوجد مايسبب لهم شيئا من ذلك فهم سعداء وهم منصورون.

وأخبر سبحانه أن من يتق الله يجعل له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ويرزقه من وجه لايخطر له على بال فقال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب**﴾[5] . فمن يتق الله باجتناب المنهيات وفعل المأمورات يجعل الله له مخلصا من كربات الدنيا وشدائدها وعذاب الآخرة وأهوالها، ولا شدة أعظم من بأس الحرب إذا حمى وطيسها واشتد لهيبها، فالله يخلصه من شدائدها وينصره على أعدائه، وينعم عليه بالرزق من سبيل لايدرى عنه شيئا. وقال: ﴿**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا**﴾[6] أى ومن يخف الله ويرهبه فيجتنب منهياته ويؤد طاعته يجعل الله له من العسر يسرا وينر له طريق الهدى فى كل مايعرض له من مشكلات ولا عسر أشد من عسر الحرب فالله يزيل عسرها عنه وينصره فيها، فالتقوى هى السلاح الأقوى.

وأكد الله أن المتقى ينال خيرى الدنيا والآخرة والنصر من خير الدنيا فقال: ﴿**إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين**﴾[7] . أى إن الأمر الواقع والحق الثابت بالوحى واستقراء التجارب هو ماتنطق به هذه القضية: من يتق الله فيما نهاه عنه وأمره به وفيما جرت به سننه فى الاجتماع البشرى، ويصبر على مصائب الدنيا وفتن الشهوات والأهواء حتى يبلغ الكتاب أجله فلا يستعجل الأقدار بشىء منها قبل أوانه ويصبر على القيام بالطاعات على خير وجه وأكمله فإن الله لايضيع أجر المحسنين بل يوفيهم أجورهم فى الدنيا والآخرة ويزيدهم من

١ ـ الأعراف ١٢٨ . ٢ ـ هود ٤٩ . ٣ ـ القصص ٨٣ .
٤ ـ الأعراف ٣٥ . ٥ ـ الطلاق ٢ . ٦ ـ الطلاق ٤ ٧ ـ يوسف ٩٠ .

فضله. وفى وضع المظهر موضع المضمر تنبيه على أن الموصوفين بالتقوى والصبر هم المحسنون والمحسنون هم الفائزون فى الدارين لأن الله معهم كما قال سبحانه ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ وفى الآية تذكير بأن من لم يكن من المتقين الصابرين كان من المطيعين للنفس الأمارة بالسوء والمتبعين لنزغات الشيطان وأن عاقبتهم الذل والخزى فى الدنيا والعذاب الأبدى فى نار السعير فى الآخرة.

وأخبر سبحانه أن الفلاح محقق للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ويؤمنون بالقرآن وبما أنزل قبله من كتب وهم بالآخرة وما فيها يؤمنون إيمانا جازما فقال تعالى: ﴿**الۤمۤ* ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين* الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون* والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون* أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾[1] .

كما أخبر أن الفوز المحقق للمتقين فقال تعالى: ﴿**ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون**﴾[2] أى ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك مانهياه عنه ويخش الله فيما صدر منه من الذنوب فيتوب منها ويقبل على الطاعة ويتق الله فى مستقبل أموره فأولئك الذين وصفوا بكل هذا هم الظافرون برضاه وفضله فى الدارين، والفائزون منصورون لامحالة.

أ ـــ وبين الله فى عدة آيات أن المتقين يرجون الفلاح من الله والرجاء من الله محقق فقال تعالى: ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾[3] فبعد أن أعلمهم بخطئهم فى إتيان البيوت من ظهورها وظنهم أن ذلك من البر، بين لهم أن البر الحقيقى هو تقوى الله بالتخلى عن المعاصى والرذائل والتحلى بالفضائل واتباع الحق وعمل الخير، وإتيان كل شيء من بابه، فأتوا البيوت من أبوابها وليكن باطنكم عنوانا لظاهركم واتقوا الله رجاء أن تفلحوا فى أعمالكم وتصلوا إلى غاية آمالكم، فالتقوى تعد الإنسان للظفر بكل مرغوب من النصر وغيره.

---

١ ـــ البقرة ١ : ٥ . ٢ ـــ النور ٥٢ . ٣ ـــ البقرة ١٨٩ .

ب ــ وقال تعالى: ﴿**قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يأولى الألباب لعلكم تفلحون**﴾[1] أى قل أيها الرسول مخاطبا أمتك: لايستوى الردىء والجيد من الأشياء والأعمال كالحرام والحلال والضار والنافع، ولا من الناس كالكافر والمسلم والجاهل والعالم فلكل حكم يليق به عند الله الذى يضع كل شيء فى موضعه الذى يليق به ــ ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث من الأموال لسهولة تناولها والتوسع فى التمتع بها كأكل الربا والرشوة والخيانة فالقليل من الحلال خير من كثير الحرام باعتبار حسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، والقليل الجيد من الغذاء والمتاع خير من الكثير الردىء الذى لايغنى غناءه ولا يفيد فائدته بل ربما يضر آكله ويفسد عليه معدته ــ كذلك القليل الطيب من الناس خير من الكثير، فالفئة القليلة من أهل الشجاعة والثبات والإيمان تغلب الفئة الكثيرة من ذوى الجبن والخور والشرك، وقد كان المشركون يفخرون على المؤمنين بكثرتهم فقال تعالى: ﴿**ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين**﴾ ثم قال للمؤمنين تثبيتا لهم حتى لاتروعهم كثرة المشركين: ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون**﴾[2] وقوله ﴿**فاتقوا الله يأولى الألباب لعلكم تفلحون**﴾ أى فاتقوا الله ياأصحاب العقول فلا تغتروا بكثرة الخبيث من المال وأهل الفساد والشرك، فتقوى الله هى التى تجعلكم من الطيبين وبها يرجى أن تكونوا من المفلحين الفائزين بخيرى الدنيا والآخرة.

جـ ــ وقال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون**﴾[3] . اتقاء الله: هو اتقاء غضبه وعقابه بعدم مخالفة شرعه. والوسيلة: مايتوصل به إلى مرضاة الله تعالى، وهو كل عمل صالح.

والمعنى: يامن اتصفتم بالإيمان اجتنبوا المنهيات، وافعلوا مايقربكم إلى الله من الطاعات والخيرات، وجاهدوا أنفسكم بكفها عن الشرور والسيئات وحملها على عمل الصالحات والبر بالأفراد والجماعات،

١ ــ المائدة ١٠٠ ــ وسبب تقدم الخبيث فى الذكر كون السياق للاهتمام بإزالة شبهة المغترين بكثرته .
٢ ــ الأنفال ١٩، ٢٦ . ٣ ــ المائدة ٣٥ .

وشياطينكم بعدم اتباع خطواتها واجتناب وساوسها وهمزاتها وجاهدوا أعداء الله وأعداءكم بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم. افعلوا كل ذلك رجاء الفلاح والنصر يحقق الله لكم رجاءكم.

د ــ وقال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون. وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير**﴾[1] .

والمعنى: أن الله تعالى يقول فى الآية الأولى: يامن آمنتم بالله صلوا صلاتكم واعبدوا ربكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وافعلوا كل مافيه منفعة وفائدة لكم ولأهليكم وأمتكم والناس أجمعين فإن ذلك من وسائل الفلاح والظفر.

ويقول فى الآية الثانية: وجاهدوا فى دين الله ولأجل الله أعداء الدين الظاهرين والباطنين جهاداً حقاً بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم، فالله اصطفاكم واختاركم لهذه المهمة وجعلكم أمة وسطاً خير أمة أخرجت للناس وفضلكم وشرفكم بالقرآن وبأكرم رسول وأكمل شرع، وما كلفكم شيئاً لاتطيقونه، الزموا ملة أبيكم إبراهيم، فالله سماكم المسلمين من قبل فى الكتب السابقة وفى القرآن الكريم، وإنما جعلكم أمة وسطاً مشهوداً بعدالتكم بين الأمم ليكون الرسول شهيداً عليكم يوم القيامة بأنه بلغكم ماأرسل به إليكم وتكونوا شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغتهم ماأرسلوا به إليهم.

وإذا كان الله سبحانه قد كلفكم بتنفيذ هذه الأوامر الأربعة التى تدفعكم إلى الكمال وكرمكم بهذه التكريمات الخمس: فاصطفاكم على العالمين، وما جعل عليكم فى الدين من حرج وجعل دينكم عتيقاً وشريفاً ملة أبيكم إبراهيم أبى الأنبياء والمرسلين، وميزكم بسمة المسلمين والانقياد

---

١ ــ الحج ٧٧، ٧٨.

التام لرب العالمين فى الكتب السابقة وفى القرآن الكريم ورفع أمتكم ورسولها إلى منزلة لم يصل إليها غيركم رفعها إلى درجة الشهادة على غيرها من الأمم فرسولكم شهيد على المرسلين، وأنتم شهداء على من تقدمكم من الأمم أجمعين، وإذا كان الله قد كرمكم وشرفكم بهذا كله فاشكروه وتقربوا إليه بأنواع الطاعات وعمل الصالحات وأقيموا الصلاة التى تطهر أرواحكم وتصلكم بربكم وآتوا الزكاة التى تزكى نفوسكم وتصل مابينكم وبين إخوانكم، وإنما خص الصلاة والزكاة بالذكر لفضلهما على غيرهما ولأنهما من أسباب النصر، واعتصموا بالله وتمسكوا بدينه، وثقوا به فى جميع أموركم ولا تطلبوا المعونة والنصرة إلا منه ﴿**هو مولاكم**﴾ يتولى أموركم وحافظكم وناصركم على أعدائكم ﴿**فنعم المولى ونعم النصير**﴾ فنعم المتولى لأموركم والناصر لكم على أعدائكم لأنه العليم الحكيم الذى بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

وهكذا تتوالى الآيات وتتكرر البينات مؤكدة أن الله مع المتقين وأنه يحبهم وأن العاقبة الحسنى لهم وأن الله يجعل لهم من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً، ومن كل عسر يسراً، وأنهم هم المفلحون وهم الفائزون وهم الغالبون وأنهم لاخوف عليهم ولا هم يحزنون. كل ذلك ليكافحوا وهم مطمئنون على مستقبلهم، وليجاهدوا وهم واثقون بأن الله معهم يتولى أمورهم وينصرهم على أعدائهم.

ويدل على فضائل التقوى الكثيرة فى السلم والحرب ومزاياها العديدة ماجاء فى صحيح مسلم[1] : «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً...».

ومن وصية أبى بكر الصديق لخالد حينما أرسله لقتال المرتدين (عليك بتقوى الله وإيثاره على ماسواه والجهاد فى سبيله، والرفق بمن معك من رعيتك فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم فيما

١ ــ ق ١٢/٣٧.

نزل بك ثم لاتخالفهم...).

ومن وصية عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص (ض) أما بعد: (فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم فإذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإلا نُنصَر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ماتفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا، فلن يُسَلَط علينا، فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس ﴿**فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً**﴾[1] واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم)[2].

٣ ــ نصر دين الله

قال تعالى: ﴿**يأأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾[3].

قال الراغب فى مفردات القرآن: النصر والنصرة: العون ــ ونصرة الله للعبد ظاهرة ــ ونصرة العبد لله: هى نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده واعتناق أحكامه واجتناب نهيه. اهـ.

فمعنى نصر العبد لله: اجتناب نهيه واتباع أمره، فإذا فعل ذلك كان سبباً لنصر الله له بالعون والتأييد وتأمينه مما يخاف، والمجاهد إنما يجاهد من أجل الدين فيجب أن يكون قائماً به محافظاً عليه.

ومعنى الآية: يأيها الذين آمنوا إن تنصروا دين الله باجتناب المنهيات وفعل

١ ــ الإسراء ٥. ٢ ــ العقد الفريد ١/٥٢. ٣ ــ محمد ٧.

الطاعات والجهاد فى سبيل الله ينصركم الله بالتأييد والمعونة على عدوكم والظفر به فى الدنيا، وبالثواب والأجر فى الآخرة ــ فإن كنتم تحبون أن تكون كلمتكم عالية بين الأمم، ومكانتكم سامية وحقوقكم مصونة وبلادكم طاهرة من الطغاة ومحفوظة من المعتدين فانصروا شرع الله ينصركم الله على أعدائكم ويثبت أقدامكم على محجة الإسلام وفى مواطن الحرب ومواقفها.

قال تعالى: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾[1] . أى اثبتوا ولا تضعفوا وتجبنوا فى مجاهدة أعدائكم الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويقفوا سدا منيعا دون انتشاره فى العالم، ويعملوا على إذلالكم واحتلال بلادكم والقضاء على حريتكم واستقلالكم، واحذروا الاستسلام لهم وطلب الصلح منهم وهنا منكم وضعفا وخورا وجبنا مع أنكم الأعلون بالإيمان فالنصر محقق لكم لأن الله تعالى معكم بالنصر لإيمانكم به وامتثالكم أوامره ومن كان الله معه فلا تستطيع قوة فى الأرض مهما تكن أن تغلبه **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**[2] . والله يثبت المؤمنين العاملين ولا ينقص من أجورهم شيئا فالله عنده أجر عظيم.

وقال تعالى: **﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾**[3] .

وعد الله المؤمنين فى الآية الأولى أنه ينصر من ينصره، وأقسم على هذا وأكد قسمه فكان تأكيدا بعد تأكيد حتى يزداد المؤمنون إيمانا بأن الله معهم فى البأساء والضراء وحين البأس معهم فى الجهاد ومواطن الاستشهاد بتوفيقه وعونه، ورعايته وجنده، معهم فى ذلك بهذا كله وغيره متى نصروا الله، ونصر الله كما سبق هو نصر دينه والتمسك به والعمل بتعاليمه ودفع كيد الخصوم عنه حتى تطهر الأرض من المفسدين الذين يريدون العلو على عباده والسيطرة عليهم وابتزاز أموالهم واستغلال جهودهم.

انصروا الله ينصركم إن الله لقوى على كل مايريده فبقوته خلق كل شىء وقدره تقديرا، عزيز لايمانعه شىء ولا يدافعه، فبعزته لايقهره قاهر ولا يغلبه

١ ــ محمد ٣٥ .　　٢ ــ يس ٨٢ .　　٣ ــ الحج ٤٠ ، ٤١

غالب، بل كل شىء ذليل لديه فقير إليه ومن كان القوى العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور ــ أيها المؤمنون الصادقون والمتقون المخلصون والناصرون لدين الله حق النصر إن معكم أقوى أسلحة النصر ووسائله والله معكم بحوله وعونه وجنده فلا تخشوا عدوا مهما كان عدده وعتاده وأدوات حربه وآلاته فخالق مواد الآلات وعناصرها والذى أودع فيها خواصها هو الله القادر على كل شىء، فإن شاء سلبها خواصها وآثارها، وإن شاء دمرها، أو ردها وبالا ودمارا فى نحور أصحابها. ومهما يسبق الذين كفروا باختراع أو قوة فإنهم عاجزون لامحالة أمام رب العزة والقوة ﴿**ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لايعجزون**﴾[1] .
كيف يعتمد فى اكتساب النصر على المواد والآلات والخواص ولا يعتمد على خالق المواد والعناصر وموجد الخواص وهو الذى سلب نار ابراهيم الحرارة والإحراق وأودع فيها البرد والسلامة، وسلب من بطن حوت يونس الهلاك بالاختناق وأودع فيه الحياة والنجاة، وهو الذى جعل قبضة من تراب تنقلب إلى مدفع رشاش بعيد المدى يحصد المشركين حصدا فى بدر وحنين، وصدق الله ﴿**فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم. ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين**﴾[2] .

كيف لايعتمدون عليه سبحانه وهو الذى إذا اشتدت الحرب وحمى وطيسها وأيقن من أيقن أن المعركة خاسرة، وقال المؤمنون متى نصر الله..؟ كان جواب ربهم ﴿**ألا إن نصر الله قريب**﴾ فأرسل قوته ونزل جنده وألقى الرعب فى قلوب الذين كفروا فهلكوا وتم النصر بأمره وغمر المؤمنين بفضله وذكرهم بنعمه فقال: ﴿**إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب**﴾[3] ، وقال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا**﴾[4] إلى أن قال ﴿**ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم**

١ ــ الأنفال ٥٩ . ٢ ــ الأنفال ١٧، ١٨ .
٣ ــ الأنفال ١٢، ١٣ . ٤ ــ الاحزاب ٩ .

الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾[1] .

وبين الله فى الآية الثانية بعض صفات هؤلاء الذين ينصرون دين الله بقوله : **﴿الذين إن مكناهم فى الأرض﴾** أى أرض كانت اتسعت رقعتها أو قلت إذا مكن الله لهم من التصرف فى شئون أهلها وولاية أحكامهم وقيادة أمورهم فإنهم يحافظون على القيام بهذه الأمور الأربعة، إقام الصلاة التى تطهر النفس وتصفى الروح وتغرس فى الإنسان عزة الإيمان وتدربه على النظام والطاعة وتصل العبد بالرب فيستهين بالحياة وما فيها. وإيتاء الزكاة التى تقوى الصلات بين الأغنياء والفقراء وتطهر الإنسان من رذيلة الشح وتغرس المودة والمحبة بين أفراد المجتمع وتعوده على التعاون والبذل الذى يدعم وحدة الصف وقوته. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للقضاء على الرذائل ونشر الفضائل وتكوين المجتمع الفاضل **﴿ولله عاقبة الأمور﴾** مردها ونهايتها بيده الخير وهو على كل شيء قدير ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

قد يقول قائل: إن الإيمان الكامل بالله فى لسان الشرع يلتقى مع تقوى الله الشاملة والنصر التام لدين الله، فكان الأولى الاكتفاء بالحديث عن أحد هذه الأمور الثلاثة دون الآخرين.

والجواب: أن الله سبحانه قد تحدث فى كتابه الكريم وأفاض عن كل واحد منها بأساليب مختلفة كما سمعتم من الآيات حتى يبعث الحماس فى النفوس والحمية الدينية فى القلوب وتتعمق العقيدة وترسخ فى النفس ويصدقها العمل وينفعل بها الإنسان فى كل تصرفاته فيكون سلوكه تطبيقا عمليا لكتاب الله دون الإحساس بسآمة أو ملل من تكرار وتوالى آيات الله فيجيء النصر بأمر الله.

* * *

---

١ ــ الأحزاب ٢٥ :٢٧ .

المبحث الثانى: وسائل النصر عند اللقاء

قال تعالى: **﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾**[1] .

المفردات: فئة: أصل الفئة: الجماعة من الناس، واستعملها القرآن فى الجماعة المقاتلة. واللقاء يكثر استعماله فى لقاء القتال. ولا تنازعوا: ولا يكن منكم تنازع واختلاف. ريحكم: قوتكم وحدّتكم وقد ذكر الله فى هاتين الآيتين خمس وسائل من وسائل النصر: الثبات. ذكر الله كثيرا. طاعة الله ورسوله. اجتناب التنازع. الصبر. وإليكم بيانها.

١ ـ الثبـات

والمعنى: يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم جماعة من أعدائكم فى القتال فاثبتوا فى مجاهدتهم ولا تفروا من أمامهم بل قاتلوهم بقلوبكم وإيمانكم وأسلحتكم بعد أن تبذلوا كل مالديكم من طاقة وتعدوا كل مااستطعتم من قوة وما تحتاج إليه الحرب من الجنود والعتاد والآلات على اختلاف أصنافها وتنوع أساليبها، وحسب مايقتضيه الزمان والمكان. اثبتوا فإن الثبات وعدم اليأس من أهم عوامل النصر فى الحروب، ولذا قال رسول الله ﷺ: «لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله كثيرا، فإن صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت»[2] وقال الصديق لخالد بن الوليد: (احرص على الموت توهب لك الحياة، واذكر أن السلامة فى الإقدام والردى فى الإحجام)[3] .

اثبتوا فلولا ثبات الرسول ﷺ وأصحابه يوم بدر وهم قلة وثباته وقلة من المؤمنين يوم حنين ماانتصروا ولولا ثبات المؤمنين فى حروبهم باليمامة واليرموك

١ ـ الأنفال ٤٥، ٤٦ . ٢ ـ ابن كثير ٢/٢١٦ . ٣ ـ البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ صـ ١٧٠ .

والقادسية وحطين وعين جالوت وغيرها من المواقع الحاسمة ماانتصروا وهم قلة كذلك.

وقد ضرب أصحاب الرسول ﷺ المثل الأعلى فى ثباتهم ففى موقعة اليمامة كان فى جيش خالد كثير من الأعراب ومن عاد إلى الإسلام حديثا من المرتدين وانكشف الأعراب وحديثو العهد بالإسلام فى أول صدمة وتزلزلت أقدام أناس من الأنصار والمهاجرين من اندفاع الجيوش الهازمة والمهزومة على السواء. وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله عصبية وحمية لأهلهم وقبيلتهم واندفعت فى هجماتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر فصاح فيهم خالد تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى؟ أى من أية جهة يتمكن العدو منا، فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بنى أب على راية.

ثم عوّل خالد على الموت ونادى بشعار المسلمين (وامحمداه)، وقال لمن بجواره لأوتين من خلفى واندفع فى قلب المعركة يصول ذات اليمين وذات الشمال، ويتقدم بغير رجوع. وظهرت فى هول هذه المعمعة فضيلة كبار الصحابة: فكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة، فقالوا: نخشى علينا من نفسك شيئا، فقال: بئس حامل القرآن أنا إذا. وكان لواء الأنصار مع ثابت بن قيس فتحنط وتكفن وحفر لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه وصاح قائلا: يامعشر المسلمين أنتم حزب الله وهم أحزاب الناس، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه، أرونى كما أريكم ولم يزل ثابتا حتى قتل فى مكانه وصاح زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا[1] على أضراسكم واضربوا فى عدوكم، وامضوا قدماً، ثم أقسم والله لاأتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله بحجتى، فكانت آخر ماتكلم فى ذلك اليوم.

وتجاوبت ساحة الميدان بأصوات أبطال الإسلام يوصى بعضهم بعضا وينظر بعضهم إلى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون فيما بينهم: ياأصحاب سورة البقرة، ياأنصار الله فاستحيا كل معروف المكان فى هذا المشهد العظيم أن يتزحزح عن مكانه، ولم ير منهم إلا قتيل فى موضعه أوزاحف إلى الأمام، وما هى إلا سويعات عصيبة تنزل بعدها نصر الله، فانكسر أصحاب مسيلمة، وقتل

---

١ ــ عض يعض بالفتح عضا وفى لغة بابه ردّ.

مسيلمة وحلت الهزيمة بأعداء الله[1] .

ولأن الثبات من وسائل النجاح فى كل شئون الحياة ومن أهم عوامل النصر فى الحرب أوجبه الله على كل مقاتل وتوعد الفار بالغضب الشديد والعذاب الأليم فى جهنم وبئس المصير فقال تعالى : ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾[2] وعدّه ﷺ من أكبر الكبائر فقال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يارسول الله . وما هنّ ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » متفق عليه[3] . وأثنى الله على الثابتين فقال : ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص**﴾[4] .

وفى معركة اليرموك أمر أبو عبيدة النساء أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن ، فإن كان الأمر للمسلمين أقمن على ماهن عليه ، وإن رأين أحدا من المسلمين منهزما ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحجارتهن ورفعن إليه أولادهن ، وقلن له قاتل عن أهلك وعن الإسلام ، ولم يقنع خالد بهذا بل قال لهن : يانساء المسلمين أيما رجل أقبل عليكن منهزما فاقتلنه . فالثبات قوة معنوية طالما كانت السبب فى النصر والغلب بين الأفراد والجيوش .

٢ ــ ذكر الله كثيرا

وقال تعالى : ﴿**واذكروا الله كثيرا**﴾ أى وأكثروا من ذكر الله أثناء القتال فى قلوبكم بذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين ونصر كل من يتبع سنتهم بنصر دينه ، وإقامة سننه ، وبذكر نهيه لكم عن اليأس مهما اشتد البأس وحمى الوطيس ، وبأن النصر بيده ومن عنده ﴿**ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾ ، فمن ذكر هذا لاتهوله قوة الأعداء مهما تعظم وتشتد لإيمانه بأن الله أقوى منه . واذكروه بألسنتكم موافقة لقلوبكم بالتسبيح والتهليل والتكبير وغير ذلك ، وبالدعاء والتضرع إليه وطلب النصر منه مع التيقن بأنه لايعجزه شىء . اذكروه كثيرا فمن

١ ــ انظر عبقرية خالد بن الوليد للعقاد وهامش العواصم من القواصم ٦٧ .

٢ ــ الأنفال ١٥ ، ١٦ . ٣ ــ اللؤلؤ ١ /١٧ . ٤ ــ الصف ٤ .

ذكر ربه وقت المعركة قويت عزيمته، وظهرت شجاعته، وتحققت نصرته، لأنه ذكر العزيز الذى لايغلب، والذى عنده وحده النصر ﴿**وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم**﴾.

وذكر صاحب القدرة على كل شيء والتى بجانبها كل القدرات لاشيء، وكل الاستعدادات مهما تعظم لاتعجزه ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون**﴾[1]، وذكر صاحب الوعد الذى لايخلف ﴿**إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحب كل خوان كفور**﴾[2]﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾[3].

اذكروه كثيرا فذكر الله عز وجل يسهل الصعب وييسر العسير ويخفف المشاق ويهون الصعاب، فما ذكر عز وجل على صعب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر ولا مشقة إلا خفت، ولا شدة إلا زالت ولا كربة إلا انفرجت. ولذا كان حبيب بن سلمة يستحب إذا لقى عدوا أو ناهض حصنا قول: لاحول ولا قوة إلا بالله. وأنه ناهض يوما حصنا للروم فانهزم، فقالها المسلمون وكبروا فانهدم الحصن. وحينما ناهض المسلمون أهل حمص وكبروا التكبيرة الأولى زلزلت معها الروم فى المدينة وتصدعت الحيطان، ثم كبروا الثانية فتهافتت منها دور كثيرة وحيطان وفزعوا إلى رؤسائهم وإلى ذوى رأيهم يطلبون الصلح مع المسلمين بعد أن رفضوه قبلا.

وفى الأمر بالإكثار من ذكر الله فى الحرب تنبيه على أنه يجب على العبد ألا يفتر عن ذكر الله أكثر مايكون هما وأشغل مايكون قلبا، وأن العبد ينبغى ألا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى. وأن يلتجيء إليه عند الشدائد ويقبل عليه بكليته فارغ البال واثقا بأن لطفه لاينفك عنه فى حال من الأحوال وفى حديث مرفوع يقول الله تعالى: ﴿**إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه**﴾ أى لايشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائى واستعانتى.

وقوله تعالى: ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ أى تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والظفر بأعدائكم وبالمثوبة والتكريم عند ربكم، فالثبات فى مواطن الاستشهاد والإكثار من ذكر الله من وسائل الفوز والانتصار فى الدنيا، ثم فى نيل

١ــ يس ٨٢. ٢ــ الحج ٣٨. ٣ــ غافر ٥١.

الثواب العظيم فى الآخرة. فالواجب على المسلمين الثبات فى قتال الأعداء وذكر الله كثيرا حتى يكون الله معهم فى الدنيا بنصره وعونه وجنده كما قال: ﴿**إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾(١) وكما قال: ﴿**فاذكرونى أذكركم**﴾(٢) وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه» متفق عليه ويكون معهم الآخرة برفع الدرجات والتكريم فى أعلى الجنات.

وقال السيد رشيد رضا رحمه الله: ثبت أنه كان من أسباب انتصار الجيش البلغارى على الجيش التركى فى حرب البلقان المشهورة ماكان من إبطال القواد والضباط من الترك للأذان والصلاة من الجيش والدعاية التى بثوها فيه من وجوب الحرب للوطن وباسم الوطن ولشرف الوطن. فلما علموا بهذا أعادوا المؤذنين والأئمة بعمائمهم إلى كل تابور(٣)، وأقاموا الصلاة فيهم، وقد روت الجرائد أن العساكر لما سمعت الآذان صارت تبكى بكاء بنشيج عال كان له تأثير عظيم، وكان تأثير ذلك بعود الكرة لهم على البلقان ظاهرا.

٣ ــ طاعة الله ورسوله

قال تعالى: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله**﴾ أى وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح فى القتال وفى غيره، وأطيعوا رسوله كذلك فهو المبين لكلام الله والمنفذ له بالقول والعمل والحكم، وهو القائد الأعظم فى القتال، فطاعته جماع النظام والنظام ركن من أركان الظفر، وهو المشارك لكم فى الرأى والتدبير والاستشارة فى الأمور فأطيعوا الله ورسوله فى كل ماتأتون وما تذرون ففى ذلك الفوز والسعادة فى الدنيا والآخرة.

وكما أن طاعة الله ورسوله واجبة ومن عوامل النصر فكذلك طاعة الإمام والقائد، لأن من عناصر النصر وحدة الكلمة ومعرفة كل جندى واجبه وتنفيذ ماألقى إليه من إرشادات بدقة وعناية حتى تتكون جبهة عريضة قوية متماسكة متحدة فى الرأى ساعية إلى هدف واحد، وذلك لايتأتى إلا بطاعة الإمام والقائد التى أوجبهاالله بقوله: ﴿**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾(٤) وقال ﷺ «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى

١ ــ الأنفال ١٢. ٢ ــ البقرة ١٥٢. ٣ ــ جماعة العسكر تركية. ٤ ــ النساء ٥٩.

الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى»[1] وقال: «إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى[2] به، فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل كان له بذلك أجروان يأمر بغيره كان عليه منه» رواه مسلم[3] وقال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإذا أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر[4].

وبهذا تقرر وجوب طاعة قائد الجيش مالم يأمر بمعصية كعدم استخدام السلاح أثناء المعركة أو تسليمه للعدو، أو الهروب من ميدان القتال فرارا من الجهاد، وإلا فلا طاعة له لأنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فإن كان المقصود من التراجع إلى الخلف جر العدو إلى مكان للإيقاع به أو لتطويقه فيه كان له حق الطاعة والامتثال، فإن الحرب خدعة.

ومما يؤيد أن طاعة القائد سلاح مهم فى تحقيق النصر، ومخالفته سبب أساسى فى الهزيمة ماحدث فى غزوة بدر وغزوة أحد، ففى غزوة بدر نفذت أوامر القائد الأعظم ﷺ بدقة وعناية فكان النصر للمسلمين، وفى أحد خولفت أوامره، ونسيت التعليمات فحلت الهزيمة التى كادت تقضى على المسلمين، قال تعالى: **﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾**[5].

٤ ــ اجتناب التنازع

قال تعالى: **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾** أى ولا يكن منكم تنازع واختلاف فى الآراء فتذهب قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال فإن التنازع والاختلاف مدعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة فيتغلب عليكم العدو، فما تغلب عليكم فى أحد إلا بسبب التنازع على الدنيا كما سبق فى الآية فالاختلاف يمزق الروابط ويبدد الجهود ويذهب القوة وقد أكد ﷺ ماجاء فى الآية من النهى عن الاختلاف فقال: **﴿لاتختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا﴾** رواه

١ ــ اللؤلؤ ٢/٢٤٥ .

٢ ــ الإمام: القائد، وجنة: حصن ووقاية، لأنه يمنع المسلمين من أذى العدو، ويمنع الناس بعضهم من بعض، ويحمى بيضة الإسلام .

٣ ــ ق ١٢/٢٣٠ . ٤ ــ اللؤلؤ ٢/٢٤٦ . ٥ ــ آل عمران ١٥٢ .

البخارى[1] أى لاتكونوا فرقا وأحزابا باتباع أهوائكم فإن من سبقكم من الأمم اختلفوا فحارب بعضهم بعضا وانتهز عدوهم فرصة ضعفهم فقضى عليهم. بل إن الإسلام يعتبر التفرقة بين صفوف الأمة من أكبر المعاصى، وأبشع الجرائم، فيقول سبحانه: ﴿**والفتنة أشد من القتل**﴾[2] .

ومما يدل على أن اجتناب التنازع من أسباب النصر: أن رسول الله ﷺ قال لوفد بنى الحارث بن كعب: (بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟) قالوا: لم نكن نغلب أحدا قال: (بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم) قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يارسول الله، أنا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدا بظلم. قال: (صدقتم)[3] ، والتاريخ يحدثنا أن المسلمين إذا اتحدوا انتصروا، وإذا تفرقوا خذلوا، وتلك سنة الله ،ولن تجد لسنته تبديلا .

٥ ـ الصبــــر

قال تعالى: ﴿**واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾ أى اصبروا على ماتكرهون من شدائد الحروب وأهوالها، وما تلاقونه من بأس العدو واستعداده، وكثرة عدده وعتاده، وغير ذلك من ويلات الحرب وشدائدها، اصبروا فما أحوج المجاهدين إلى قوة القلوب بالصبر، اصبروا فإن الله مع الصابرين برباطة الجأش والتثبيت، والمعونة والتأييد، ومن كان الله معه فلا يغلبه شىء، فالله غالب على أمره وهو القوى العزيز، اصبروا وصابروا فقد قال ﷺ: «أيها الناس لاتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» متفق عليه[4] ، وقال: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا، ولن يغلب عسر يسرين» أخرجه رزين[5] ، وقال على رضى الله عنه: «استعينوا بالصدق والصبر، فإنه بعد الصبر ينزل النصر»[6] ، اصبروا فإن الصبر عامل مهم فى النصر، ومن أشرف الأخلاق التى يتوقف عليها الظفر فى الحروب، والفوز بكل مرغوب من أمور الدنيا والآخرة، ولذا أمرنا الله به، وأوجبه علينا فى عدة آيات:

أ ـــ فقال سبحانه: ﴿**يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله**

---

١ ـــ ق ٣/٢٤٢ . ٢ ـــ البقرة ١٩١ . ٣ ـــ سيرة ابن هشام ٤/١٧٨ .

٤ ـــ اللؤلؤ ٢/٢٠٢ . ٥ ـــ تيسير الوصول ٣/٣٧٥ . ٦ ـــ السنن والمبتدعات ٣١٨ .

لعلكم تفلحون﴾[1] فهذه آية كريمة من آيات الله الحكيمة، ينبغى لكل مؤمن بالله أن يكتبها على قلبه، ويعرضها دائما على عقله، متدبرا فيها، متفهما مراميها، ذلك لأنها تدعونا إلى وسائل الفوز والفلاح، وأسباب النصر والنجاح، إنها تأمرنا بأربعة أمور، كل منها دعامة من دعائم العزة والكرامة، وعامل من عوامل النصر والسعادة، تدعونا إلى أمور عظيمة تتوقف عليها حياتنا، وحياة بلادنا، ويصان بها مجدنا واستقلالنا، وننال بها الفوز العظيم عند رب العالمين.

تدعونا إلى الصبر فى البأساء والضراء وحين البأس، وأثناء العمل والكفاح، وفعل الخير، وتدعونا إلى منافسة الغير ومسابقته فيه، تدعونا إلى أن يكون صبرنا فى الجهاد والكفاح أقوى وأعمق وأكثر من صبر الأعداء فمن بذل كل إمكانياته وقدم كل طاقاته فى سبيل الله وابتغاء مرضاته وصبر وصابر كان الله معه موفقاً ومقوياً، ومعينا وناصرا، فهو الذى يقول: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾**[2] ، وإنما أمرنا الله بالمصابرة بعد الصبر لأن النصر فى المعارك دائما لايكون إلا للصابر الأخير.

وتدعونا الآية الكريمة إلى المرابطة فى الثغور، والإقامة فى مداخل بلادنا، وفى مصانعنا ومرافقنا العامة، حتى لايجد العدو منفذا ينفذ منه إلى بلادنا، ويهدد مصانعنا ومرافقنا واستقلال بلادنا. وفسرت المرابطة بالثبات على الخير وعمل الصالحات التى تسعد بها الأفراد والجماعات فى الدنيا والآخرة

وتدعونا إلى تقوى الله بامتثال أمره واجتناب نهيه حتى لانعرض أنفسنا لسخط الله وخذلانه فى الدنيا ولغضبه وعذابه فى الآخرة، وحتى نسعد وتسعد أمتنا ونحيا حياة طيبة فى الدنيا وهنيئة دائمة **﴿فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾** كما قال سبحانه: **﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾**[3] .

---

١ ــ آخر آل عمران . ٢ ــ آخر العنكبوت . ٣ ــ النحل ٩٧ .

هذه أمور أربعة دعانا الله إليها فى هذه الآية الكريمة وجعلها سبب نجاحنا وأس فلاحنا ولن يستقيم لنا أمر أو نحصل على نصر أو نحافظ على كرامتنا واستقلالنا أو يصان ديننا ومقدساتنا إلا إذا سرنا على منوالها وعملنا بمقتضاها وإلا إذا زودنا النشيء بها وطبعناه عليها حتى تصبح جزءاً من كيانه وعنصرا من عناصر وجوده.
وحاشا لله أن يكذب علينا أو يغير سننه التى وضعها، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك فقد روى مالك عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة إلى عمر رضى الله عنهما يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم. فكتب إليه عمر: أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله تعالى بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول فى كتابه: **﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾** أخرجه مالك(1)ــ فعليكم أيها المؤمنون أن تستجيبوا لربكم وتقاتلوا أعداء الله وأعداءكم الذين يعتدون عليكم وتصبروا على شدائد الحرب وآلامها فإن أعداءكم يألمون كما تألمون ولكنكم ترجون من الله ــ بسبب إيمانكم وإخلاصكم واعتمادكم عليه ــ من النصر والأجر مالا يرجون، فأنتم أجدر بالصبر وأولى بالمصابرة منهم، فاصبروا وغالبوهم بالصبر فإن كان صبركم أعظم من صبرهم نصركم الله عليهم، لأن النصر للمؤمنين الأكثرين صبراً من غيرهم. وعلى المؤمنين أن يرابطوا ويحشدوا الجند فى كل ثغرة يمكن أن يخلص العدو منها إليهم، وعند كل مصنع ومؤسسة يستطيع العدو أن يعتدى عليها وأن يتقوا الله فى سلمهم وحربهم فلا يعتدوا على أحد ولا يقصروا فى مطلوب حتى يفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة.

فالصبر ومنافسة الغير فيه والمرابطة والتقوى كلها من أسباب الظفر والفوز على الأعداء فى الدنيا كما أنها مع حسن النية وقصد إقامة الحق والعدل من أسباب هناءة الآخرة وسعادتها.

ب ــ وقال تعالى: **﴿يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾**(2) .

١ ــ تيسير الوصول ٢٠٦/١ .　　٢ ــ البقرة ١٥٣ .

والمعنى: يأيها الذين آمنوا اطلبوا المعونة على إقامة دينكم والدفاع عن الإسلام وبلاده والجهاد فى سبيل الله، وعلى كل مايشق عليكم من شئون الحياة بالصبر وتوطين النفس على احتمال المكاره. وبالصلاة التى تكبر بها الثقة بالله وتسهل بمناجاته فيها كل مشاق الحياة، والآية الكريمة أطلقت مايستعان عليه بالصبر والصلاة فيشمل كل مايشق من جميع أمور الحياة وشئونها. وأفردت الصلاة بالذكر لأنها جامعة لكل أنواع العبادات النفسية والبدنية، وقد روى أحمد: أنه ﷺ: «كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»[1] حزبه: **أهمه** ونزل به —وفزع إلى الصلاة: لجأ إليها —وروى أن ابن عباس نعيت له بنت وهو فى سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق وصلى ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾. وقدم الصبر على الصلاة لأنه مقدمة الصلاة فإن من لاصبر له لايقدر على إمساك النفس عن الملاهى حتى يشتغل بالصلاة ويتمها، فلا يمكن حصولها كاملة إلا به وإنما خص الصبر والصلاة بالذكر لأن الصبر أشد الأعمال الباطنة على البدن والصلاة أشق الأعمال الظاهرة عليه، إذ فيها خضوع واستسلام وتوجه بالقلب إليه واستشعار لعظمة الخالق.

﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ الذين يصبرون على مايجدونه من متاعب الحياة فى سبيل تنفيذ ماأمر الله به واجتناب مانهى عنه ويصبرون على أهوال الحرب وشدائدها إعلاء لكلمة الله وشرعه، ونصرة للحق وأهله، باذلين أموالهم وأرواحهم ابتغاء مرضاته. إن الله مع هؤلاء جميعاً معية خاصة بالتوفيق والتأييد واستجابة الدعاء والمعونة والنصر[2] ومن ينصره الله فلا غالب له، أما الجزع فقلبه لاه عن ذكر الله والقلب اللاهى ممتلىء بهموم الدنيا وأكدارها وإن حاز الدنيا بحذافيرها. والجملة تعليل لما قبلها من الاستعانة بالصبر والصلاة.

وقال: ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ ولم يقل مع المصلين لأنه إذا كان مع الصابرين كان مع المصلين من باب أولى لاشتمال الصلاة على الصبر. وقد

---

١ — كنوز الحقائق ٩١.

٢ — وهذه المعية خاصة بالصابرين والمحسنين والمتقين، وأما المعية بالعلم والقدرة فهى عامة فى حق كل أحد.

جرت سنة الله أن الأعمال الصالحة العظيمة لاتنجح إلا بالثبات والدأب ومدار ذلك كله الصبر فمن صبر فهو سائر على سنة الله والله معه يسهل له العسير من أمره ويجعل له فرجاً من ضيقه، ومن لم يصبر فليس الله معه لأنه تنكب عن سنته فلن يبلغ قصده وغايته.

جـ ـ وقال تعالى: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين. الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون**﴾[1] .

أى اطلبوا المعونة فى جميع أموركم وكل شئونكم بالصبر وهو حبس النفس على ماتكره، والصبر الحقيقى إنما يكون بتذكر وعد الله بحسن الجزاء لمن صبر عن الشهوات المحرمة التى تميل إليها النفس وعمل أنواع الطاعات التى تشق عليها، والتفكر فى أن المصائب بقضاء الله وقدره فيجب الخضوع له والتسليم لأمره، والاستعانة به تكون باجتناب النواهى واتباع الأوامر بقمع النفس عن شهواتها وحرمانها لذاتها، وتكون بالصلاة لما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر ولما فيها من مراقبة الله تعالى فى السر والنجوى، وناهيك بعبادة يناجى فيها العبد مولاه فى اليوم خمس مرات.

وإن الصلاة لشاقة صعبة الاحتمال إلا على المخبتين لله الخائفين من شديد عقابه، وإنما لم تثقل على هؤلاء لأنهم مستغرقون فى مناجاة ربهم فلا يشعرون بشىء من المتاعب والمشاق ومن ثم قال ﷺ: «وجعلت قرة عينى فى الصلاة» أخرجه النسائى والحاكم عن أنس[2] لأن اشتغاله بها كان راحة له وكان غيرها من أعمال الدنيا تعباً له ثم وصف الخاشعين بأوصاف تقربهم إلى ربهم وتدعوهم للإخبات إليه فقال: ﴿**الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون**﴾ أى لاتثقل الصلاة على الخاشعين الذين يتوقعون لقاء ربهم يوم الحساب وأنهم راجعون إليه بعد البعث فيجازيهم بما قدموا من صالح الأعمال ـــ ولأن الاستعانة بالصلاة عامل حاسم فى النصر كان أصحاب الرسول (ض) يكثرون التهجد بها فى ليالى القتال يدل على ذلك أن القيقلان أمير أجنادين من قبل الروم بعث رجلاً من النصارى يجس له أمر الصحابة فلما رجع قال له: وجدت قوماً رهباناً

١ ـــ البقرة ٤٥، ٤٦ . ٢ ـــ الوابل الصيب لابن القيم ٣٠ .

بالليل فرساناً بالنهار، والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه أو زنى لرجموه. فقال القيقلان والله لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من ظهرها.

د ــ وأكد سبحانه أن الصبر كالتقوى من عوامل النصر فقال: ﴿**وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط**﴾(1).

أى وإن تصبروا على مشاق التكاليف فتمتثلوا الأوامر وتنفذوا التعليمات وتتقوا كل مانهيتم عنه وحظر عليكم فلا يضركم كيد أعدائكم شيئاً، لأنكم قد وفيتم لله بعهد العبودية فهو يفى لكم بحق الربوبية ويحفظكم من الآفات والمخوفات كما قال سبحانه: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب**﴾ وقال على (ض): ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل له منهما مخرجاً. وقوله تعالى: ﴿**إن الله بما يعملون محيط**﴾ يؤكد كون الاستعانة بالصبر والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح إذ المعنى أن الله قد دلكم على ماينجيكم من كيد أعدائكم فعليكم أن تمتثلوا وتعلموا أنه محيط بأعمالهم وهو القادر على أن يمنعهم عما يريدون بكم فثقوا به وتوكلوا عليه.

هـ ــ وقال تعالى: ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾(2).

أى هذه الآيات المتضمنة قصة نوح من أخبار ماغاب عنك نوحيها إليك أنت يامحمد، ماكنت تعلم ولا أحد من قومك من قبل ذلك القرآن هذه الآيات الشاملة لقصة نوح وقومه. فاصبر على ماكلفت به وعلى كل الأمور التى طلب منك القيام بها، فإن سنة الله فى رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالظفر والنصر فى الدنيا، وبالفوز فى الآخرة للمتقين المحافظين على أوامر الله والمجتنبين لنواهيه.

و ــ كما قال سبحانه: ﴿**واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين**﴾(3) أى وطن نفسك على احتمال المشاق والمتاعب فى كل ماأمرت به وما نهيت عنه. تحمل مشاق القيام بالطاعات واجتناب المحرمات وآلام الشدائد والأزمات

---

1 ــ آل عمران 120. 2 ــ هود 49. 3 ــ هود 115.

فى هذه الحياة فإن هذا من الإحسان الذى لاجزاء له إلا الإحسان، فإن الله لايضيع أجر المحسنين فى أعمالهم فى الدنيا والآخرة، بل يحقق لهم فى الدنيا مايطلبون وينصرهم على من يعادون، وفى الآخرة يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

ز ــ ومدح الله سبحانه الصابرين وقت الشدة والضرر وأثناء الحرب فقال: ﴿**والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس**﴾[1] أى والصابرين لدى الفقر والشدة وعند الضرر من مرض أو فقد أهل ومال وولد وفى ميادين القتال ولدى الضرب والطعان ومنازلة الأقران. وخص هذه المواطن الثلاثة لأن من صبر فيها كان فى غيرها أكثر صبراً، فالفقر إذا اشتدت وطأته ضاق به الصدر وكاد يفضى إلى الكفر، والضرر إذا برح بالبدن أضعف الأخلاق والهمم، وفى الحرب التعرض للهلاك بخوض غمرات المنية، والظفر مقرون بالصبر وبالصبر يحفظ الحق الذى يناضل صاحبه دونه أولئك الذين صدقوا فى دعواهم الإيمان، دون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴿**وأولئك هم المتقون**﴾ أى أولئك هم الذين جعلوا بينهم وبين خذلان الله وسخطه وقاية بالبعد عن المعاصى التى توجب خذلان الله فى الدنيا وعذابه فى الآخرة.

وهكذا أيها المؤمنون تتابعت آيات القرآن الكريم وتوالت أقوال رب العالمين مؤكدة هذه الحقيقة مؤكدة أن عاقبة الصبر الجميل جميلة، وأن نصر الله يجىء فى نهاية المطاف كما يجىء الصباح بعد اشتداد الظلام، وصدق الله: ﴿**ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين**﴾[2] .

٦ ــ إخلاص الجهاد لله

الإخلاص لله فى الجهاد والقيام به احتساباً له يدفع الجندى إلى بذل كل مقدوراته ومنتهى طاقاته ليحصل على إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، ومتى تضافرت قوى المجاهدين على ذلك تحقق النصر للكل بأمر الله والشهادة لبعض

١ ــ البقرة ١٧٧ . ٢ ــ الأنعام ٣٤ .

جند الله، ولذا قال سبحانه محذراً من البطر والكبرياء والعجب والخيلاء، والصد عن سبيل الله وداعياً للجهاد خالصاً لوجه الله ﴿**ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط**﴾.

المفردات: الذين خرجوا: هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير. والبطر: إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى أو الرئاسة، ويعرف ذلك بالحركات المتكلفة والكلام الشاذ. والرئاء: أن يعمل المرء مايحب أن يراه الناس منه ليثنوا عليه ويعجبوا به.

والمعنى: بين الله سبحانه فى هذه الآية والآيتين بعدها ثلاثة من عوامل النصر فقال: عليكم أن تمتثلوا ماأمرتم به وتنتهوا عما نهيتم عنه، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم فى مكة وغيرها من الأماكن التى استنفروا منها بطرين بما أوتوا من قوة ونعم مرائين الناس بها ليعجبوا بها ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة والفتوة وهم بخروجهم هذا يصدون عن سبيل الله وهو الإسلام بحملهم الناس على عداوة الرسول ﷺ وصدهم عن دعوته والحيلولة بينه وبين تبليغ رسالته، وتعذيب من أجابها إذا لم يكن لهم من يمنعهم ويحميهم من قرابة أو حلف أو جوار والله عليم بما جاءوا لأجله وهو مجازيهم عليه فى الدنيا والآخرة بمقتضى سننه فى ترتيب الجزاء على الأعمال وصفات النفوس.

وفى هذا زجر وتهديد على البطر والعجب والخيلاء، والله سيجزيهم على ذلك أشد الجزاء وأمرهم بالتقوى والإخلاص، لأن النهى عن الشىء مستلزم الأمر بضده.

وهذه الآية كما قال البغوى[1] نزلت فى المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغى وفخر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى» قالوا: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لانرجع حتى نرد بدراً ـ وكان موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام ـ فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً،

١ ـ تفسير المنار ١٠/٣٠.

فوافوها فسقوا كئوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان.

فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النية والحسبة فى نصرة دينه ومؤازرة رسوله — وما أجمل كلمة خالد لقواد جيش المسلمين يوم اليرموك: هذا يوم من أيام الله، لاينبغى فيه الفخر ولا البغى أخلصوا جهادكم، وأرضوا الله بعملكم فإن هذا اليوم له مابعده.

٧ — الاحتراس من الشيطان وأعوانه

قال تعالى: ﴿**وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جارلكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب**﴾.

المفردات: زين: حبب إليهم أعمالهم بوسوسته. نكص على عقبيه: رجع القهقرى والعقب مؤخر القدم والمراد عدل عن وسوسته.

والمعنى: واذكر أيها الرسول الكريم حين زين الشيطان للمشركين أعمالهم بوسوسته لهم وقال لهم بما ألقاه فى روعهم وخيل إليهم أنهم لايغلبون لكثرة عددهم وعُدَدِهم وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنونه قربات مجير لهم حتى قالوا: اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين.

فلما تراءت الفئتان (المؤمنة والكافرة) أى قربت كل منهما من الأخرى بحيث صارت تراها وتعرف حالها كف الشيطان عن وسوسته للمشركين وتغريره بهم وتحسينه أعمالهم، وقال فى نفسه أو بلسان حاله، إنى أرى مالا ترون من الملائكة التى نزلت لتحارب فى صفوف المؤمنين، إنى أخاف عقاب الله والله شديد العقاب.

وقال ابن عباس فى هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين وألقى فى قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم وإنى جارلكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى أمداد الملائكة (نكص على عقبيه) رجع مدبرا وقال: إنى أرى مالا ترون. الآية.

ولهذا حذرنا الله سبحانه من الغرور بالدنيا ومتاعها والإعجاب بكثرة العدد

والعتاد فقال تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين. لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين**﴾[1] .

٨ـ التوكل الكامل على الله وترك الاغترار بما سواه

قال تعالى: ﴿**إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم**﴾.

أى واذكر إذ زين الشيطان للمشركين أعمالهم حيث يقول المنافقون ومن فى حكمهم من مرضى القلوب ماحمل هؤلاء المؤمنين على الإقدام على ماأقدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم إلا غرورهم بدينهم ومن يكل أمره إلى الله ويوقن بأنه ناصره ومعينه وأنه لايعجزه شىء ولا يمتنع عليه أمر أراده، يكفه مايهمه وينصره على أعدائه وإن كثر عددهم وعظم استعدادهم لأنه العزيز الغالب على أمره الحكيم الذى يضع كل شىء فى موضعه بمقتضى سننه فى نظام العالم ومن ذلك أنه ينصر الحق على الباطل والمؤمنين المخلصين على الكافرين والمنافقين.

والتوكل الحق على الله إنما يكون مع الأخذ فى الأسباب والاعتماد فى الوصول إلى المطلوب على رب الأرباب، أى يأخذ العبد فى الأسباب التى جعلها الله من سننه فى هذه الحياة ويؤديها على أمثل الطرق ثم يكل أمره إلى الله فيما لايعلمه من أسباب لايستطيع الوصول إلى علمها فإذا فعل العبد ذلك حقق له مبتغاه.

وليس المراد أن يلقى الأمور على عواهنها ويترك السعى والعمل ويفوض الأمر إلى الله، فما بهذا أمر الدين ولا جاءت تعاليم رب العالمين بل قال تعالى: ﴿**وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة**﴾ وقال: ﴿**يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾[2] كما

١ـ التوبة ٢٤ : ٢٦ .   ٢ـ النساء ٧١ .

قال: ﴿**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه**﴾[1] وقد قيل لبعضهم إن كنت متوكلا على الله ومعتمدا عليه وواثقا بقضائه وقدره فألق بنفسك من هذا الحائط، فإنه لايصيبك إلا ماقدر لك فقال: إن الله خلق عباده ليجربهم ويمتحنهم لاليجربوه ويمتحنوه إشارة إلى سلوك الأدب مع الله تعالى[2] وأخرج ابن حبان فى صحيحه من حديث الرجل الذى جاء النبى ﷺ وأراد أن يترك ناقته وقال: أأعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ فقال له النبى ﷺ: (اعقلها وتوكل). وقوله ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنه: ياغلام إنى معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله...) الحديث رواه الترمذى. فمعنى احفظ الله: اعمل بأوامره واجتنب نواهيه. يحفظك: يحرسك ويوفقك. تجده تجاهك: تجده معك فى كل مكان يعينك وينجيك.

ولما كان التوكل الكامل على الله وترك الاغترار بما سواه عاملا مهما فى النصر فقد أمرنا الله به وحثنا عليه فى عدة آيات:—

أ— فقال تعالى: ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين. إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾[3]. أى فإذا عقدت القلب على فعل شيء وإمضائه بعد المشاورة ومبادلة الرأى فيه فتوكل على الله وفوض الأمر إليه— بعد أخذ الأهبة واستكمال العدة ومراعاة الأسباب التى جعلها الله وسيلة للوصول إلى المسببات— ولا تتكل على ماأوتيت من حول وقوة، ولا على إحكام الرأى وأخذ العدة فذلك كله ليس بكاف فى النجاح مالم تقترن به معونة الله وتوفيقه، لأن الموانع الخارجية والعوائق التى تحول دون الوصول إلى البغية لايحيط بها إلا علام الغيوب فلا بد من الاتكال عليه، والاعتماد على حوله وقوته ﴿**إن الله يحب المتوكلين**﴾ أى المعتمدين عليه الواثقين به، وإذا كان يحبهم فإنه ينصرهم على أعدائهم ويوفقهم إلى مافيه خيرهم كما تقتضيه محبته لهم.

ب — وقوله تعالى: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا**

١ — الملك ١٥. ٢ — الفروق للإمام القرافى ٤/٢٧٣. ٣ — آل عمران ١٥٩، ١٦٠.

الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أى إن أراد الله نصركم كما حدث يوم بدر حين عملتم بسنته وثبتم فى مواقفكم واتكلتم على توفيقه ومعونته فلا غالب لكم من الناس الذين جعلهم حرمانُهم من التوكل عليه عرضة لليأس والقنوط، وإن يرد خذلانكم بما كسبت أيديكم من الفشل وعصيان القائد فيما أمركم به من عمل كما جرى لكم فى أحد، أو بالإعجاب بالكثرة والاعتماد على الاستعداد والقوة « وهو مخل بالتوكل » كما جرى يوم حنين، فلا أحد يملك لكم نصرا أو يدفع عنكم ضرا. وقد أفادت الآية بأن من ينصرهم الله فلا غالب لهم أبدا ـــ ولكن الله لاينصر إلا من ينصره وأن من يخذلهم الله فلا أحد ينصرهم أبدا **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** ولا يتوكلوا على غيره، لأن النصر بيده وهو الموفق لأسبابه ووسائله.

جـ ـــ وقال تعالى: **﴿وتوكل على الحى الذى لايموت﴾**[1] أى فوض أمورك واعتمد على الله وحده فهو الحى الباقى الذى لايموت وهو صاحب الملك والملكوت القائم بشئون خلقه الذى بيده الخير وهو على كل شىء قدير.

د ـــ كما قال سبحانه: **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا﴾**[2].

أى ومن يكل أمره إلى الله ويفوض إليه الخلاص منه كفاه ماأهمه فى دينه ودنياه. ثم ذكر السبب فى وجوب التوكل عليه **﴿إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا﴾** أى إن الله تعالى منفذ أحكامه فى خلقه بما يشاء، وقد جعل لكل شىء مقدارا ووقتا فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شىء مما كنت تأمل وترجو فالأمور مرهونة بأوقاتها ومقدرة بمقادير خاصة كما قال سبحانه: **﴿وكل شىء عنده بمقدار﴾**[3].

ويقابل التوكل بهذا المعنى اتكال الماديين على حولهم وقوتهم وحدها حتى إذا أدركهم العجز خانهم الصبر وأدركهم اليأس حين حلول البأس، واتكال ذوى الأوهام الذين يتعلقون بالأمانى والأحلام، حتى إذا مااستبان لهم فساد أوهامهم نكصوا على أعقابهم وكفروا بوعد ربهم بنصر المؤمنين، وهو إنما وعد أولياءه

١ ـــ الفرقان ٥٨.   ٢ ـــ الطلاق ٣.   ٣ ـــ الرعد ٨.

لأولياء الشيطان، وذوى الخرافات والأوهام.

وإذا كانت هذه الأمور الثمانية المذكورة تباعا فى هذه الآيات الخمس من سورة الأنفال بالإضافة إلى العامل الأول وهو الإيمان من أهم عوامل النصر، والتدبير تدبير الله ﴿**وما النصر إلا من عند الله**﴾ والكثرة العددية ليست هى التى تكفل النصر كما قال سبحانه ﴿**ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين**﴾[1] وإذا كانت القوة المادية ليست هى التى تقرر وحدها مصير المعركة بل لابد من القوة المعنوية فلنقو إيماننا وثقتنا بالله وليثبت الذين آمنوا حين يلقون الذين كفروا، وليذكروا الله كثيرا، ويلتزموا طاعته وطاعة رسوله، وليتزودوا بالعدة الحقيقية للمعركة، وليأخذوا بالأسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير وصاحب العون والمدد وصاحب القوة والسلطان وليجتنبوا أسباب الهزيمة التى هزمت الكفار على كثرة عددهم وعتادهم وليتجردوا من البطر والكبرياء والعجب والخيلاء وليحترزوا من خداع الشيطان وأعوانه، وليبذلوا مافى وسعهم للحصول على النصر وليتوكلوا على الله ولا يعتمدوا على شيء سواه فإنه سينصرهم بقوته وحوله فهو القائل: ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾[2] .

٩ ـــ التحريض على القتال

ومن وسائل النصر تحريض المؤمنين على القتال وحثهم على الجهاد وترغيبهم فى الاستشهاد فإن ذلك يملأ نفوسهم حماسة وقوة ويدفعهم إلى خوض المعركة بشجاعة غير مبالين بالموت لأنهم يحبونه ويتسابقون إليه كما شهد أعداء الإسلام لأصحاب الرسول ﷺ بهذا، وبذلك ينتزعون النصر كما قال الصديق لخالد: «احرص على الموت توهب لك الحياة».

ويكون التحريض على القتال باختيار الخطباء المؤثرين ليذكروا المجاهدين فى أسلوب مشوق بفضل الله على المجاهدين فى سبيله وفضل الاستشهاد ومنزلة الشهداء عند الله يوم القيامة، والقرآن الكريم هو الينبوع الذى لاينفد من الدوافع والمرغبات فى الجهاد وقد تقدم الكثير من آياته فى مواضع مختلفة والرسول ﷺ هو المثل الأعلى فى بيان فضل الجهاد والتشويق إليه.

١ ـــ الأنفال ١٩ .   ٢ ـــ الزمر ٣٦ .

وقد أمره الله أن يحث المؤمنين على الجهاد فقال ﴿**يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون. الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين**﴾[1] .

أى إن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا بقوة إيمانهم وصبرهم وفقههم مائتين من الكافرين الذين تجردوا من الإيمان بالله والصبر والفقه فجهلهم بالله وما أعده من الثواب للمجاهدين جعلهم لايثبتون ثبات المؤمنين ولا يقاتلون احتسابا وامتثالا لأمر الله تعالى وإعلاء لكلمته وابتغاء رضوانه كما يفعل المؤمنون وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان فلا يستحقون إلا القهر والخذلان.

وجملة (إن يكن منكم عشرون صابرون) الخ خبر بمعنى الأمر، أى ليقاتل العشرون منكم المائتين والمائة الألف ويثبتوا لهم.

ثم رخص للمؤمنين فى حال الضعف فجعل المائة تغلب المائتين وتثبت لها والألف يغلب الألفين كذلك بعون الله وتوفيقه والله مع الصابرين بالنصر والمعونة فكيف لايَغلِبون؟

عن ابن عباس: «لما نزلت ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**﴾ كتب عليهم ألا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين. ثم نزلت ﴿**الآن خفف الله عنكم..**﴾ الآية فكتب ألا تفر مائة من مائتين» رواه البخارى وأبو داود[2] .

قال فى البحر: وكانت الهزيمة محرمة وإن كثر الكفار لقوله تعالى: ﴿**فلا تولوهم الأدبار**﴾ ثم خفف عنهم بقوله: ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**﴾ فأوجب على كل واحد مصابرة عشرة. ثم خفف عنهم وأوجب على الواحد مصابرة اثنين بقوله ﴿**الآن خفف الله عنكم..**﴾ واستقر الشرع على ذلك فحينئذ حرمت الهزيمة لقول ابن عباس: (من فر من اثنين فقد فر، ومن فر من ثلاثة فلم يفر) وقال ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير

١ ـ الأنفال ٦٥، ٦٦ .   ٢ ـ تيسير الوصول ١ / ١٢٢ .

الجيوش أربعة آلاف، ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة» رواه أحمد وأبو داود والترمذى.

وتمسك به من ذهب إلى أن الجيش إذا كان اثنى عشر ألفاً لم يجز أن يفر من أمثاله وأضعافه وإن كثروا. أقول: لقد خاض المسلمون معارك كثيرة كانوا فى بعضها دون الثلث من أعدائهم عدداً وعتاداً كبدر والخندق وفى بعضها دون الخمس كاليمامة واليرموك والقادسية ونهاوند وحطين وفى بعضها دون العشر ومع ذلك نصرهم الله نصراً مؤزراً ففى موقعة البويب مع الفرس أحصوا مائة رجل من المسلمين قتل كل منهم عشرة من الفرس حتى سميت المعركة بمعركة الأعشار وقيل إن عدد القتلى من الفرس بلغ مائة ألف.

وقال تعالى مخاطباً رسوله: **﴿فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾**[1] البأس: القوة.

والمعنى: إذا أردت الفوز والظفر على الأعداء فقاتل فى سبيل الله امتثالاً لأمره فأنت لاتكلف إلا أفعال نفسك وعليك أن تحث غيرك من المؤمنين على القتال فى سبيل الله وترغبهم فيه، فإن ذلك يحملهم على الاستعداد له وتوطين النفس عليه بينما هو يعد الكافرين لترك الاعتداء على المؤمنين وكف قوتهم عنهم، فإن الاستعداد للقتال يمنع الاعتداء.

ولهذا كان ﷺ يحرض المؤمنين على القتال عند صفهم ومواجهة العدو فقد روى مسلم عن أنس (ض) قال: انطلق رسول الله وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لايقدمنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يقول عمير بن الحمام الأنصارى (ض): يارسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: (نعم) قال: بخ بخ[2]. فقال رسول الله ﷺ: «مايحملك على قولك بخ بخ؟» قال: لاوالله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه[3]

---

١ ــ النساء ٨٤.

٢ ــ كلمة تقال لتفخيم الأمر وتعظيمه فى الخير. ٣ ــ القرن بفتح القاف والراء جعبة النشاب.

فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.

وعن جابر (ض) قال : (قال رجل : أين أنا يارسول الله إن قتلت؟ قال : « فى الجنة » فألقى تمرات كن فى يده ثم قاتل حتى قتل) رواه مسلم.

وفى إمتاع الأسماع للمقريزى جـ ١ ص ٨١ أنه ﷺ خطب أصحابه يوم بدر فقال : « أما بعد فإنى أحثكم على ماحثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده ، به يذكرون وبه يتفاضلون وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق لايقبل الله فيه من أحد إلا ماابتغى به وجهه.

وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم وتدركون النجاة فى الآخرة ، فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شىء ويمقتكم عليه فإن الله يقول: ﴿**لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ...**﴾

واتبع المسلمون رسولهم فى التحريض على القتال عند الملاقاة فكانوا يقرءون سورة الأنفال والآيات التى تحث على القتال وترغب فيه ، ويلقون عليهم كلمات تلهب جذوة الإيمان فى القلوب وتثير الحماس فى النفوس وترغب فى الاستشهاد.

ففى يوم اليرموك لما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال : (ياعباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، يامعشر المسلمين : اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار ، ولا تبرحوا مصافكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدءوهم بالقتال ، واشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزموا الصمت إلا من ذكر الله).

وقال معاذ بن جبل : (ياأهل القرآن ومتحفظى الكتاب وأنصار الهدى والحق إن رحمة الله لاتنال وجنته لاتدخل بالأمانى ، ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق ، ألم تسمعوا لقوله تعالى : ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**﴾ إلى آخر الآية .. فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم وأنتم فى

قبضته وليس لكم ملتحد دونه ولا عز بغيره).

ونادى أبو سفيان: يامعاشر أهل الإسلام حضر ماترون فهذا رسول الله والجنة أمامكم والشيطان والنار خلفكم.

وقال عمرو بن العاص: (غضوا الأبصار واجثوا على الركب واشرعوا الرماح فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد، فوالذى يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويجزى الإحسان بالإحسان لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا، وقصرا قصرا فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم لو صدقتم الحملة تطايروا تطاير الجحول[1] ...)[2] .

وفى موقعة البويب بالعراق قال المثنى بن حارثة لجنده وهم يقاتلون الفرس: عاداتكم من أمثالكم انصروا الله ينصركم — ولما استشهد أخوه مسعود بالمعركة صاح فى الناس: يامعشر المسلمين لايرعكم مصرع أخى فإن مصارع خياركم هكذا. ويبعث رسوله إلى بنى عجل قائلاً: إن الأمير يقرئكم السلام ويقول: لاتفضحوا المسلمين اليوم[3] . فتثور حميتهم وتزداد حماستهم ويقولون فى صوت كالرعد: (نعم).

وفى موقف الشدة يتجه المثنى إلى ربه الذى وعد المؤمنين النصر فيذكر جنده بوعد الله ويخاطب إيمانهم قائلاً: ثقوا بالله وأحسنوا به الظن فقد نصركم فى مواطن كثيرة وهم أكثر منكم وأعز. أيها الناس احمدوا الله وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالإثم والعدوان وانظروا فى الأمور وقدروها ثم تكلموا.

١٠ — الاعتزاز بالإيمان والثقة بالنفس

اعتزاز المؤمن بإيمانه يجعله يقاتل وهو متحمس للدفاع عن عزة هذا الإيمان التى وقرت فى نفسه وعن كرامته التى منحها له ربه قال تعالى: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون**﴾[4] فينصره الله على أعدائه.

١ — الجحول: جمع جحل بفتح الجيم وهو اليعسوب ملكة النحل وأميرتها والنحل يطير فى جماعات كثيرة.
٢ — هذه الخطب الأربع فى البداية لابن كثير ٧/١٠. ٣— البداية ٧/٢٩.
٤ — المنافقون ٨

قال المثنى بن حارثة الشيبانى : (قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية والإسلام والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب، ولمائة من العرب اليوم أشد على من ألف من العجم. إن الله أذهب بأسهم ووهن كيدهم ...)[1] .

فالواحد من العجم كان أشد على المثنى من عشرة من العرب قبل أن يدخل الإيمان قلوبهم وبعد أن دخل الإيمان قلوب العرب واعتزوا به كان المؤمن المعتز بإيمانه أشد على المثنى من عشرة من العجم — ذلك لأن المؤمن يقاتل وهو يعلم أن الله تعالى قد تولى أمره وأنه لامحالة ناصره، فهو جل وعلا القائل: ﴿**ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم**﴾[2] أى عقاب الأمم السابقة كان بسبب أن الله مولى الذين آمنوا يتولاهم وينصرهم على أعدائهم وأن الكافرين لامولى لهم يدفع عنهم ماحل به من العقوبة والعذاب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر قال: سمعت وهباً يقول: قال الله تعالى فى بعض كتبه «بعزتى إنه من اعتصم بى فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإنى أجعل له من ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بى فإنى أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله فى الهواء ثم أكله إلى نفسه. كفى لعبدى ملأى، إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيه قبل أن يسألنى وأستجيب له قبل أن يدعونى فأنا أعلم بحاجته التى ترفق به منه».

وبهذه الولاية تقوى النفوس وتثبت وتطمئن القلوب وتثق فى نصر الله وتقبل على الجهاد بحماس وتبايع على الموت بإخلاص وسلاحها الفتاك الإيمان بالله والثقة فى النفس، قال تعالى: ﴿**لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً**﴾[3] ، وما أصدق قول أبى بكر: ماانتصرنا بعدد ولا عدة وإنما بشىء وقر فى الصدور من هذا الدين. وسئل على كرم الله وجهه كيف تستطيع أن تقتل أى فارس مهما كانت قوته؟ فقال: لأنى ألقاه وأنا معتقد فى نفسى أنى قاتله وهو يعتقد فى نفسه أنى سأقتله فأكون أنا ونفسه عليه.

ومما يؤكد فضيلة اعتزاز المؤمن بالله وثقته فى نفسه أنه لما التقى الجيش

١ — المثنى بن حارثة الشيبانى للعقيد محمد فرج ١٣١ . ٢ — محمد ١١ ٣ — الفتح ١٨ .

الإسلامى بجيش طليحة الأسدى، الذى ادعى النبوة بعد وفاة الرسول ﷺ فحاربه المسلمون بقيادة خالد وثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميتين دفاعاً عن الأهل والعشيرة، وكروا على المسلمين كرة عنيفة حتى كشفوا ميمنة المسلمين ولحقت بها الميسرة، ومضت هنيهة خيل فيها إلى المسلمين أنهم منكسرون لامحالة ونصح بعض بنى طيىء خالداً أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيىء ويستدرج المرتدين إليها فاشتعل فى قلب خالد اعتزازه بإيمانه بالله ودفعته الثقة بمولاه إلى أن يصيح فى أصحابه: لاأعتصم بغير الله، وأرسل فرسه وترجل مقاتلاً على قدميه ليملك التحرك حيث يريد ويبعث القدوة فى أصحابه، وحمل على القوم وهو ينادى: ياأنصار الله؟ فلبوه مندفعين إليه وعاد المسلمون إلى مواقعهم واستمر القتل فى الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعهم وانتصر الحق على الباطل وفر طليحة والقلة الباقية من قومه، ولما أفاق طليحة من هول الهزيمة سأل من بقى من أصحابه ماهزمكم؟ فأجابه أحدهم إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله، وإنا لنلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه. فكانت تلك من أسباب عودة طليحة إلى الإسلام ليصبح بطلاً من أبطاله العظام.

١١ ــ ذكر نعم الله على المؤمنين بالنصر

ذكر نعم الله على عباده المؤمنين وفضله على المجاهدين المخلصين يزيد المؤمنين إيماناً بأن الله معهم يسمع ويرى ويوفقهم فى خططهم ويعينهم فى جهادهم وأن نصر الله قريب منهم ورحمته غير بعيدة عنهم فيمتلئون شجاعة وقوة ويتسابقون إلى قلب المعركة بعزيمة صادقة وإرادة صلبة وهم يرددون فضله على السابقين وبره بالمجاهدين المخلصين فينزل الله عليهم نصره المبين وصدق الله: **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾**[1] .

وقد ذكر الله نعمه على عباده لنؤمن بنصره لنا كما نصر من سبقنا إذا سلكنا طريقهم وسرنا على منوالهم فقال تعالى: **﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾**[2] وقال: **﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون**

١ ــ إبراهيم ٧ .　　٢ــ آل عمران ١٢٣ .

بصيراً. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾[1] .

أى تذكروا أيها المؤمنون نعم الله التى أسبغها عليكم حين حوصرتم أيام الخندق، وحين جاءتكم جنود الأحزاب من قريش وغطفان ويهود بنى النضير الذين أجلاهم ﷺ من المدينة إلى خيبر، فأرسلنا عليهم ريحاً باردة فى ليلة باردة أحصرتهم وسفت التراب فى وجوههم وأمر ملائكته فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف الرعب فى قلوب الأعداء حتى قال طليحة بن خويلد الأسدى: إن محمداً قد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء، فانهزموا من غير قتال.

قال حذيفة بن اليمان وقد بعثه رسول الله ﷺ ليأتى بخبر القوم: (خرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد وإذا رجل أدهم ضخم (أبو سفيان) يقول: الرحيل الرحيل لامقام لكم، وإذا الرجل فى عسكرهم مايجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم والريح تضربهم ثم رجعت نحو النبى ﷺ فلما صرت فى منتصف الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارساً معتمين قالوا: (أخبر صاحبك أن الله قد كفاك القوم).

وقال تعالى: **﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾**[2] وقال: **﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾**[3] وقال: **﴿وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾**[4] وقال: **﴿قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن**

---

١ ــ الأحزاب ٩: ١١ .   ٢ ــ المائدة ١١ . ٣ ــ التوبة ٢٥: ٢٦ .   ٤ ــ الفتح ٢٤ .

في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾[1] .

١٢ ـــ تذكر المواقف البطولية للمؤمنين المجاهدين

تذكر المواقف البطولية للمؤمنين الصادقين والمجاهدين المخلصين والمقاتلين الشجعان أقوياء الإيمان يثير الإيمان فى قلوبنا ويبعث الحماسة والشجاعة فى نفوسنا ويدفعنا إلى أن نخوض المعركة بشجاعة وقوة متأسين بهم وسائرين على نهجهم ونحن واثقون بنصر الله ، ومطمئنون إلى تأييده وعونه فينصرنا الله على أعدائنا كما نصرهم ويكتب لنا الغلبة عليهم والظفر بهم قال تعالى : ﴿ **فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾[2] .

فقد بينت الآية الكريمة أن طالوت لما عبر النهر هو وقليل من جنده الذين آمنوا معه ، وتخلص من الذين لايؤمنون بربهم ولا يهتمون بحقوقهم لأن وجودهم لايزيدهم إلا ضعفاً شأن الجبناء كما قال سبحانه : ﴿ **لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً** ﴾[3] وشاهد هؤلاء المؤمنون القليلون جالوت وجنوده وتفوقهم فى العدد والعتاد قال بعض المؤمنين للبعض الآخر : لاقدرة لنا اليوم بمحاربة هؤلاء الأعداء فضلاً عن التغلب عليهم ، فأجابهم الذين يستيقنون بلقاء ربهم بالبعث ويرجون ثوابه العه بالجهاد : كثيراً مارأينا الجماعات القليلة تغلب الجماعات الكثيرة العدد والعتاد ، حين يكتب الله لهم التوفيق بمشيئته وقدرته ، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عتاد فالقليل من ذوى العزائم الصادقة والنفوس التى أشربت حب الإيمان وأقبلت على الجهاد برغبة صادقة يفعل مالا يفعله الكثير من ذوى النفوس المريضة والأهواء المختلفة والنزعات المتضاربة الذين تحسبهم جميعاً وقلوبهم متفرقة . فالله لايذل من نصره ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته ومعداته ، والله مع الصابرين يثبتهم عند اللقاء وينصرهم على الأعداء ـــ ومما يدل على أن الكثرة لادخل لها فى النصر أنه قبيل نشوب القتال بين المسلمين والروم فى معركة اليرموك قال رجل من المسلمين لخالد : (ماأكثر الروم وأقل المسلمين ؟) . فقال خالد : (بل ماأقل الروم وأكثر المسلمين ؟ ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان) .

١ ـــ آل عمران ١٣ . ٢ ـــ البقرة ٢٤٩ . ٣ ـــ التوبة ٤٧ .

ثم بين الله حال هؤلاء المؤمنين حينما واجهوا الأعداء فقال: ﴿**ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾[1] .

أى ولما ظهروا لجالوت وجنوده وصاروا أمامه وجهاً لوجه وشاهدوا ماهم عليه من كثرة العدد والتفوق فى العتاد لجئوا جميعاً إلى الله يدعونه أن يفرغ على قلوبهم الصبر ويثبت أقدامهم فى القتال ويملأ نفوسهم ثقة واطمئناناً وينصرهم على القوم الكافرين. فطلبوا الصبر أولاً لأنه سبب الثبات، ثم الثبات لأنه سبب النصر، وأولى الناس بالنصر هم المؤمنون ــ فاستجاب الله دعاءهم فصبروا وثبتوا ونصروا فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، ولولا دفع الله أهل البغى والشر بأهل الإصلاح والخير لغلب أهل الفساد وبغوا على الصالحين ونشروا الفساد فى الأرض.

١٣ــ تذكر المواقف البطولية للذين امتحنوا فى إيمانهم فصبروا

تذكر المواقف البطولية للذين امتحنوا فى إيمانهم فثبتوا ولم يحيدوا عنه حتى استشهدوا فى سبيله وهم ثابتو الجنان، أقوياء الإيمان فرحون بلقاء الرحمن وبالتكريم فى أعلى الجنان يدفع المؤمنين عند اشتداد البلاء ومهاجمة الأعداء إلى التأسى بهم والسير على منوالهم.

قال فرعون للسحرة حين آمنوا برب هارون وموسى: ﴿**آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى**﴾.

فماذا أجابوه؟ قالوا له وقد غلا الإيمان فى قلوبهم، وملكت محبة الله أفئدتهم ﴿**لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ماأنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى. إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى.**

١ــ البقرة ٢٥٠، ٢٥١ .

ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾[1] .

فقالوا لفرعون : لن نختارك على ماجاءنا من البينات والهدى ولن نفضل نعمتك على ماهدانا الله إليه والذى خلقنا وفطرنا فاقض بما تشاء واحكم بما تريد إنما تقضى وتحكم فى هذه الحياة الدنيا ولن تنال إلا من أجسامنا الفانية تقطعنا أو تقتلنا أما الإيمان واليقين فذلك لن تصل إليه ولن تنال منه شيئاً . إنا آمنا بربنا وصدقنا برسالة نبينا رجاء أن يغفر لنا ذنوبنا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير لنا منك وأبقى ولدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين ... إلخ .

وادعى ملك من ملوك الأمم الماضية الألوهية وأنه رب لرعيته وطلب من قومه الإيمان به وعبادته لكن عقلاء قومه لم يستجيبوا لدعوته ولم يؤمنوا به ولم يعبدوا إلا رب السموات والأرض رب العالمين.

فأمر بحفر خنادق فى الأرض وملأها حطبا وخشبا وأشعل فيها النار وجاء بهم مقيدين ومغللين حتى أوقفهم على حافة هذه الخنادق وقد تأججت فيها النار وقدم إليهم هذا الإنذار: إن لم تؤمنوا بى ألقيتكم فى هذه النار!

فماذا أجابوه وماذا قالوا له؟ أنساهم حبهم لربهم وحلاوة الإيمان فى قلوبهم آلام هذه النار الموقدة فقالوا، وماذا قالوا؟ قالوا كلمة جابت الآفاق واخترقت السبع الطباق حتى انتهت إلى الواحد الخلاق لن نؤمن إلا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد.

ولقد سجل الله هذه الحادثة كما سجل غيرها فى كتابه لنشحذ بها عزائمنا ونقوى بها إيماننا ونتحمل المشاق والآلام فى سبيل التمسك بديننا وجهاد عدونا فقال تعالى : ﴿ **والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾**[2] .

١ ـــ طه ٧١ : ٧٦ . ٢ ـــ أول البروج .

وقال تعالى: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب**﴾[1] .

فهؤلاء القوم بلغ بهم الحال فى الشدة والبلاء النهاية القصوى ولم يغيرهم ذلك عن دينهم حتى أتاهم نصر الله فليكن المسلمون كذلك وليتحملوا الأذى والشدة والمشقة مهما تكن فى طلب الحق فإن نصر الله قريب.

وقال تعالى: داعيا المؤمنين إلى تحمل المشاق والشدائد والصبر والمصابرة فى سبيل إيمانهم والتمسك بالحق: ﴿**آلم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾[2] .

وكما تجلت البطولة والإيمان الصادق فى أصحاب طالوت الذين خاضوا معه معركة المصير، وتجلى إخلاصهم فى مرضاة الله ووثوقهم بنصره وتجلى فيمن امتحنوا فى إيمانهم فثبتوا وصبروا، تجلى كل ذلك فى أصحابه ﷺ.

فحينما أرسلت قريش نعيم بن مسعود ليثبط المؤمنين عن الخروج لملاقاة أبى سفيان وجيشه فى معركة مصيرية وقال لهم: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، لم يخافوهم بل ازدادوا إيمانًا بالله وتوكلا عليه واطمئنانا إلى نصره قال تعالى مادحا لهم موقفهم: ﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم**﴾[3] .

وحينما جاءتهم الأحزاب فى غزوة الخندق وحاصروا المدينة وانضم إليهم بنو قريظة لم يتزلزل إيمانهم ولم تضعف عزائمهم وما ازدادوا إلا إيمانا بربهم وتسليما لأمره وثقة فى نصره كما قال سبحانه: ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما. من**

١ ـ البقرة ٢١٤ . ٢ ـ أول العنكبوت . ٣ ـ آل عمران ١٧٢ : ١٧٤ .

المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾[1] ، فأخبر سبحانه عنهم لما رأوا الأحزاب الذين أدهشت رؤيتهم عقول المنافقين ومرضى النفوس وبلبلت أفكارهم وأطارت أفئدتهم قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذى يعقبه الانتصار فى نحو قوله ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ وقوله ﷺ : « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم » .

وصدق الله ورسوله فى النصرة والثواب كما صدق الله ورسوله فى البلاء والاختبار وما زادهم ذلك إلا صبرا على البلاء وتسليما للقضاء ، وتصديقا بتحقيق ماكان الله ورسوله قد وعدهم به ، ثم وصف الله سبحانه بعض المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء واحتملوا البأساء والضراء بأنهم أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر فى البأساء والضراء وحين البأس فاستشهد بعضهم يوم بدر وبعضهم يوم أحد وبعضهم فى مواطن أخرى ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه كما قضى من مضى منهم الوفاء بعهده وما غيروا أى تغيير[2] .

وقال عوف بن الحارث يوم بدر : يارسول الله مايضحك الرب من عبده .. ؟ قال : (غمسة يده فى العدو حاسرا) فنزع درعا كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وقال زيد بن ثابت بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لى إن رأيته فاقرأه منى السلام وقل له يقول لك رسول الله ﷺ كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة مابين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم ، فقلت ياسعد : إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك : أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله ﷺ السلام ، قل له : يارسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى رسوله ﷺ وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته .

١ — الأحزاب ٢٢ ، ٢٣ .

٢ — روى صاحب الكشاف أن رجالا من الصحابة نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه فقال: يافلان أشعرت أن محمدا قد قتل؟ فقال الأنصارى إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم، فنزل ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾ الآية.

وقال عبد الله بن جحش يوم أحد: (اللهم إنى أقسم عليك أن ألقى العدو غدا فيقتلونى ثم يبقروا بطنى ويجدعوا أنفى وأذنى ثم تسألنى فيم ذلك فأقول: فيك!.

وقال خيثمة وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر: لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت والله عليها حريصا حتى ساهمت إبنى فى الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها يقول: الحق بنا ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ماوعدنى ربى حقا، وقد والله — يارسول الله — أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى فادع الله يارسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد فى الجنة، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيدا — وفى سرية بئر معونة أتى رجل حراما خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه فقال حرام: فزت ورب الكعبة، ووقع زيد بن الدثنة فى أسر قريش ثم خرجوا به إلى الحل ليقتلوه فأراد أبو سفيان بن حرب أن يمتحن إيمانه ويعرف مدى محبته لرسوله ﷺ فقال له: أنشدك الله يازيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنت فى أهلك؟ قال: والله ماأحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى، فقال أبو سفيان: مارأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا.

وأنشد زميله فى الأسر خبيب بن عدى حين أرادوا قتله

ولست أبالى حين أقتل مسلما — على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإلـه وإن يشـأ — يبارك على أوصال شلو ممـزع

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ مثلا طيبة فى قوة الإيمان وحب الجهاد والرغبة الصادقة فى الاستشهاد يحبون الموت أكثر مما يحب غيرهم الحياة ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾.

١٤ ــ القتال للشهادة أو النصر

ومن وسائل النصر المهمة أن يكون الدافع للمجاهدين الصادقين والمقاتلين المخلصين هو أحد أمرين: إما الظفر بالشهادة وثوابها العظيم، وإما الحصول على النصر والتغلب على العدو ولا يحدث نفسه بمتاع الدنيا ولا بالفرار، لأنه إن فعل ذلك سرعان ماتحل به الهزيمة والدمار. قال تعالى: ﴿**فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما**﴾[1] .

أى فليقاتل فى سبيل الله ونصرة دينه الحق المؤمنون المخلصون الذين باعوا دنياهم الفانية بالآخرة الباقية ونعيمها الدائم حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ومن يقاتل فى سبيل الله فيستشهد أو ينتصر فإن الله سيعطيه فى كلتا الحالتين ثوابا وافرا لايقادر قدره، وذلك أنه إذا قتل فاز بالشهادة التى هى أعلى درجات الأجور وإن غلب وظفر كان له أجر من قاتل فى سبيل الله مع ماقد ناله من العلو فى الدنيا والغنيمة، قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا مانال من أجر أو غنيمة» متفق عليه واللفظ لمسلم.

ومما يدل على تحقق النصر للمصرين على القتال حتى الموت أو النصر أن قريشا حينما صدت الرسول وصحبه عن دخول المسجد الحرام فبايعه أصحابه بالحديبية على القتال فى سبيل الله حتى الموت أو تفتح لهم مكة أبوابها فعلت تلك البيعة بقريش مالم تفعله القنبلة الذرية، فإن قريشا التى كان باستطاعتها أن تجند عشرات الألوف لم تكد تشعر ببيعة ألف وأربعمائة لرسولهم على الموت أو دخول مكة حتى فزعت من هذه البيعة وخشيت عاقبتها فسارعت إلى عقد صلح الحديبية وفتحت مكة للرسول وصحبه أبوابها وجاءت البشرى من السماء بالفتح المبين تقول: ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا.ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما.وينصرك الله نصرا عزيزا.هو الذى أنزل**

١ ــ النساء ٧٤ .

السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما﴾[1] ، وبارك الله هذه البيعة بقوله: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم**﴾[2] ، ورضى عن أصحابها وبين أن إصرارهم على الوفاء بهذه البيعة كان سببا فى الفتح والنصر فقال: ﴿**لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا**﴾[3] .

وإذا كان أصحاب الرسول ﷺ قد ضربوا أروع الأمثال ببيعة الحديبية فى حرصهم على الاستشهاد أو انتزاع النصر من الخصم فإن فضلهم فى ذلك لم ينقطع حتى بعد وفاته ﷺ ففى يوم اليرموك كادت الهزيمة تحل بالمسلمين فصاح فيهم عكرمة من يبايع على الموت فكان من سمع صوته أسرع إجابة له من صدى الصوت فبايعه أربعمائة من الفرسان الأبطال واندفعوا إلى قلب المعركة لايقوم فى وجههم قائم، وصدموا الروم غير حافلين بما أصابهم حتى تم النصر العظيم على الجيش الكبير، وقد قتل فى طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان ولم ينج منهم قط إلا جريح مثخن بالجراح.

ولما ولى عمر بن الخطاب النعمان بن مقرن قيادة الجيش فى معركة نهاوند وكان جيش العدو بادى اليقظة عسير المنال كثيف العدد والعتاد وحاول أركان حرب النعمان أن يحملوه على الإسراع فى منازلة العدو ولكنه قال لهم: تريثوا حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر، ذلك أن وهج الظهيرة كان شديد اللفح فما أن هبت طلائع الأصيل حتى صاح فى جنده: أيها الناس إنى هاز لوائى ومكبر ثلاثا فأما أولى هذه فليتوضأ كل جندى وأما الثانية فليعد سلاحه وأما الثالثة فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد وإن قتل النعمان، وإنى راغب إلى الله بدعوة وأقسم على كل امرىء منكم أن يؤمن عليها: اللهم ارزق النعمان شهادة فى نصر عظيم وفتح على المسلمين فأمن القوم ثم هز لواءه وكبر ثلاثا وتقدم صفوف جنوده الزاحفة واندفع المسلمون فى ميدان المعركة أسودا كاسرة يخوضون لهيب المعركة لايصدهم عنها كل ماحشد الأكاسرة حتى أطبقوا عليهم إطباقة قاضية كان معها النصر المبين والفتح العظيم وكان النعمان القائد المحب للاستشهاد أول صريع وعثر

---

١ ـــ الفتح ١ : ٤ .   ٢ ـــ الفتح ١٠ .   ٣ ـــ الفتح ١٨ .

عليه أحد جنوده وبه رمق فاستحضر ماء ليغسل به وجه البطل النبيل، وعاود النعمان شعوره الغائب من هول ماأصابه فسأل مسعفه من أنت؟ قال: معقل بن يسار. قال: مافعل الله بالناس فأجابه فتح الله للمسلمين. قال: الحمد لله كثيرا اكتبوا بذلك إلى عمر وفاضت روحه إلى رحمة الله وفضله. وهكذا استنصر الله بإخلاص فنصره الله وصدق الله فى جهاده فصدقه الله وأدى واجبه حتى آخر نفس من حياته، رفع الله درجاته وأسكنه فسيح جناته.

١٥ ـ تشجيع العمل الفدائى

للعمل البطولى تقديره ومكانته فى الشريعة الإسلامية فهى تباركه وتنميه وترفع شأن صاحبه فى الدنيا والآخرة وتضع له الحوافز والدوافع المادية والمعنوية ليضيف إلى بطولته بطولات تذهل العدو وتفقده صوابه وتشل تفكيره وتحطم معاقله وحصونه وتقضى على أمنه واستقراره.

ولأن العمل الفدائى عامل مهم فى النصر وشل حركة العدو والقضاء عليه، حث الإسلام عليه ووضع له المكافئات التشجيعية فقال تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا بيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾[1]. وعن المغيرة رضى الله عنه قال: «أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة، فنحن أحب إلى الموت منكم فى الحياة» أخرجه رزين.

وعن شداد بن الهاد رضى الله عنه «أن رجلا من الأعراب جاء فآمن بالنبى ﷺ ثم قال: أهاجر معك؟ فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه فكانت غزاة غنم ﷺ فيها شيئا فقسم وقسم له فقال: ماهذا؟ فقال قسمته لك. قال: ماعلى هذا اتَّبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال: إن تصدق الله يصدقك فلبثوا قليلا. ثم نهضوا فى قتال العدو، فأتى به النبى ﷺ محمولا قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبى ﷺ أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه، ثم كفن فى جبة النبى ﷺ

١ ـ التوبة ١١١.

ثم قدمه فصلى عليه فكان مما ظهر من صلاته: اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك فقتل شهيدا وأنا شهيد على ذلك» أخرجه النسائى.

وقال أنس: غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أرانى الله تعالى مشهدا مع رسول الله فيما بعد لَيَرَيَنَّ الله تعالى ماأصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ رضى الله عنه فقال: ياأبا عمرو إلى أين؟ قال: واها لريح الجنة[1]، أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد فى جسده بضع وثمانون: من ضربة، وطعنة، ورمية، ونزلت هذه الآية: ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه**﴾ الخ. أخرجه أحمد ومسلم والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين.

وحينما كادت الهزيمة تحل بالمسلمين فى موقعة عين جالوت كشف الملك المظفر قطز خوذته عن رأسه وألقى بها إلى الأرض، وصاح صيحة دوت فى أرجاء ميدان المعركة (وا إسلاماه) وانطلق فى قلب المعركة يجندل ويكبر، فأشعلت صيحته فى نفوس قواده وجنوده نارا تلتهم التتار، وقالوا: إن قائدنا يستشهد فى تهور فلنكن معه، وما هى إلا سويعات عصيبة كان بعدها النصر المؤزر على سيل التتار الجارف الذى بعد هذه المعركة الحاسمة بدأ ينحسر عن البلاد الإسلامية.

والإسلام كما يشجع العمل الفدائى بالثواب العظيم الذى لايعلمه إلا الله فى الآخرة، فإنه يشجعه بمكافئات يتمتع بها فى الدنيا إن نجا من الموت وطالت به حياة، قال ﷺ: «من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه» متفق عليه، والسلب: مايحمله معه من أمتعة وسلاح. وعن أنس: أن النبى ﷺ قال يوم حنين: «من قتل رجلا فله سلبه، فقتل أبو طلحة عشرين قتيلاً، وأخذ أسلابهم» رواه أحمد وأبو داود.

والفدائى الذى يبارك الإسلام عمله هو الجندى المترفع عن الدنايا، المخترق صفوف العدو المقتحم ديارهم، المنكل بهم، وما أكثرهم فى المسلمين على مر العصور فى المعارك الحاسمة وما أشد أثرهم فى هزيمة الأعداء، والفتك بالأقوياء، واقتحام الحصون والمعاقل، فهم الذين قتلوا كعب بن الأشرف زعيم اليهود، الذى فعل مافعل فى تحزيب المشركين ضد المسلمين، والتغزل بالمسلمات الطاهرات،

١ ــ واها: كلمة تحنن وتلهف.

وألحقوا به ابن سنينة، وسلام بن أبى الحقيق، ومنهم البراء بن معرور الذى اقتحم على مسيلمة وجيشه حديقة الموت، والزبير بن العوام فاتح حصن بابليون، وغيرهم كثير، وما علينا إلا أن نتصفح التاريخ ونقرأه متمهلين فى المواقع العظيمة لنرى المجهود الكبير للفدائيين الذى كان سببا فى انتصار المسلمين.

إن تشجيع االعمل الفدائى، وترغيب الفدائيين ﴿**الذين باعوا أنفسهم ومايملكون لله**﴾ فيما عند الله من الأجر العظيم يبعث الحماس الدينى فى قلوب المؤمنين الصادقين، فيندفعون إلى قلب المعركة وحصون العدو أسودا كاسرة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وهم فرحون مستبشرون، لاتروعهم طائرات تدمر، ولا قاذفات تنسف، ولا بارجات تحيل البحر نارا تلظى، ولا قنابل تنشر الموت والدمار، ولا تسمع منهم إلا أصواتا يخشع لها قصف المدافع، ورعود القنابل (الله أكبر يامنصور أمِت)[1] كما كان يهتف أصحاب رسول الله والحرب سعير يدمدم، ولا ترى إلا مجاهدين أبطالا. وفدائيين أحرارا من متع الدنيا ومباهجها، يتسابقون إلى أتون المعركة وهم يرددون (واها لريح الجنة إنى أجد ريحها دون أحد) تماما كما كان يرددها أنس بن النضر، وهو يصيح صيحة المؤمن الصادق يطلب الشهادة.

* * *

---

١ ــ أمر بالموت وفيه التفاؤل بموت الخصم.

الباب الثانى

وسائل النصر من السنة

وبه عشرون وسيلة :

١ - الأخذ بالمشورة الصالحة
٢ - الحزم وقوة الإرادة
٣ - حسن اختياره ﷺ لقواده
٤ - تخطيطه لمكان المعركة
٥ - مقاتلة الجندى تحت راية قومه
٦ - استعراض الجيـش
٧ - إخفاء الأسرار والخطط الحربية
٨ - إعداد العيون والجواسيس
٩ - عدم البدء بالعدوان
١٠ - استخدام المفاجأة للقضاء على القوة العسكرية
١١ - بث روح الهزيمة فى جيش العدو
١٢ - اهتمامه بالقوة المعنوية
١٣ - رفقـه بأصحـابه
١٤ - عـدله ﷺ
١٥ - الأوقات التى يستحب فيها القتال
١٦ - الدعاء عند القتال
١٧ - إخفاء الأخبار الموهنة للعزائم
١٨ - إظهار الأخبار السارة
١٩ - شجاعته ﷺ وثباته
٢٠ - حبه ﷺ للاستشهاد

الاقتداء بالرسول ﷺ فى حروبه

الرسول ﷺ موفق فى جميع حالاته ومسدد فى كل تصرفاته ويعلم من فنون الحرب بالإلهام مالم يعلمه غيره بالدرس والمران، ولذلك نجحت جميع خططه ونصره الله نصرا عزيزا كما قال سبحانه: ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما. وينصرك الله نصرا عزيزا**﴾[1]

ولما كان ﷺ المثل الأعلى لأمته فى كل شيء وكان الاقتداء به والسير على نهجه يؤدى إلى الفلاح والنجاح والسعادة فى الدنيا والآخرة، حثنا الله سبحانه على الاقتداء به والتأسى بأعماله وأخلاقه حتى يكتب لنا النصر والحياة الطيبة التى أعدها للمقتدين به والسائرين على نهجه فقال تعالى فى سورة الأحزاب بعد أن بين موقف المنافقين والذين فى قلوبهم مرض: ﴿**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**﴾[2] .

أى وبالله لقد كان لكم فى رسول الله مثل أعلى وقدوة طيبة كاملة يقتدى بها الذين يرجون ثواب الله ويبغون عونه ونصره ويذكرون الله ونعمه عليهم ذكرا كثيرا يقتدون به فى العقيدة والعبادة والمعاملة والقيادة ومكارم الأخلاق ومحاسن الفعال.

وقد امتاز ﷺ فى قيادته وجهاده بأمور كانت سبب نجاحه وفلاحه، منها:

١ ــ الأخذ بالمشورة الصالحة

الشورى أساس الحكم الصالح والتصرف الصائب وهى السبيل إلى تبين الحق من الباطل ومعرفة الآراء الناضجة، ولذا جاء بها الإسلام، وجعلها من مقومات الأمة الإسلامية فقال تعالى فى وصف المؤمنين: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾[3] .

---

١ ــ أول الفتح .　　٢ ــ الأحزاب ٢١ .　　٣ ــ الشورى ٣٨ .

والقيادة الحسنة هى التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجعان وبطولة الأبطال والقوة التى أمرنا الله تعالى بها كما تشمل قوة القلوب والأجسام والأسلحة تشمل قوة الآراء والتخطيط. فالشورى تجعل الترابط قويا بين القادة والجنود فى المعركة وتدعوهم إلى الاجتماع على هدف واحد، فيعتبر الجميع أن المعركة معركتهم، وأنها غير مفروضة عليهم من الخارج ولكنها نابعة من قلوبهم وإيمانهم، فيبذلون كل مايستطيعون لتحقيق النصر، ولذا قال سبحانه لرسوله ﷺ بعد الهزيمة فى أُحد بسبب مخالفة أمر القائد حتى لايبعدهم عن المعركة ويخليهم من مسئوليتها: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾[1] .

ففى هذه الآية الكريمة حمد الله فى رسوله لين الجانب وبعده عن الغلظة والترفع على أصحابه الذى ينفرهم منه، وأمره بالعفو عنهم فى عصيانهم له الذى تسبب فى الهزيمة وبطلب المغفرة من الله لهم، ثم أمره بمشاورتهم فى شئون الأمة كلها فى السلم والحرب، وكان يستشير أصحابه بهدوء وسكينة ويصغى إلى كل قول ويرجح رأيا على رأى بما يرى من المصلحة والفائدة بقدر المستطاع، وقد كان ﷺ يشاور أصحابه فى الأمور التى لم ينزل فيها وحى من السماء فإنه إذ ذاك لابد من نفاذه مع أنه ﷺ أنبلهم عقلا وأسدهم رأيا ليرشدهم إلى السير على هذا المبدأ، فالجماعة أبعد عن الخطأ من الفرد فى أكثر الحالات، وكان يستشير السواد الأعظم من المسلمين، ويخص بها أهل الرأى والمكانة فى الأمور التى يضر إفشاؤها.

فاستشار أصحابه يوم بدر لما علم بخروج قريش من مكة للحرب، فقام أبو بكر فقال فأحسن، وقام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون**﴾[2] ولكنا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[3] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله خيرا ودعا

١ ــ آل عمران ١٥٩ .　　٢ ــ المائدة ٢٤ .　　٣ ــ موضع بناحية اليمن .

له بخير. ثم قال ﷺ «أشيروا على أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، لأنهم أغلب الناس ولأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله: إنا برءاء من ذمامك حتى تصل ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم إلى عدو».

فعند ذلك قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يارسول الله؟ قال: أجل قال: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ومانكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء. لعل الله يريك منا ماتقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فَسُرَّ ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين (إما العير وإما النفير) والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم[1].

وفى هذه الغزوة سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر. فقال له الحباب بن المنذر الأنصارى وكان مشهورا بجودة الرأى: يارسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال: يارسول الله ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغور ماعداه من الآبار، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون. فنزل ﷺ على رأيه وقال له: لقد أشرت بالرأى ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغورت لينقطع أمل المشركين فى الشرب من وراء المسلمين وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه.

وأخذ برأى أبى بكر فى فداء الأسرى، ونزل على رأى الأغلبية فى غزوة أحد فخرج من المدينة مع أنه ضد رأيه. وعمل بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه المشركون. وهكذا كان يفعل ﷺ مع أصحابه توجيها لما يجب أن يكون عليه أولو الأمر فى كل شأن ذى بال.

١ ـــ انظر سيرة ابن هشام ٢ /١٨٨ .

وفى البخارى: أنه ﷺ قال: «ماتشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم».
وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: مارأيت أحدا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ رواه أحمد والشافعى[1] .

وكان ﷺ يعقد مجلس الشورى وهو مايسمى اليوم بمجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال ويقلب الرأى مع أهل الخبرة والفن من أصحابه على سائر وجوهه فيسمع من كلٍّ ماهو خبير به، ثم يأخذ بأحسن الآراء وأقربها إلى النصر ولم يتمسك برأيه فى موقف قط، بل كان يرى أن رأى الجماعة مهما كان فهو خير من رأى فرد واحد. وعلى نهجه ﷺ سار الخلفاء الراشدون من بعده وما أحسن ماقاله شاعر النيل.

رأى الجماعة لاتشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

ولذا غالبا ماتصاب الجيوش بالنكسة والهزيمة إذا خالف القائد العام رأى الجماعة، ففى موقعة الجسر بين المسلمين والفرس فى خلافة الفاروق أرسل بَهْمَنُ قائد الفرس إلى أبى عبيدة بن مسعود الثقفىِّ: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم، فاستشار أبو عبيدة أصحابه فأشاروا عليه بعدم العبور، ووضحوا له الأسباب. فرفض الأخذ برأيهم وقال: لايكونون أجرأ على الموت منا، فعبر بالجند على غير رغبة فكانت الهزيمة الساحقة.

وإذا كان الله قد أمر الرسول ﷺ بمشاورة أصحابه وهو من هو، والأصل فى الأمر الوجوب، وخطاب النبى ﷺ خطاب لأمته فالواجب على القائد الأعلى للجيش أن يستشير رؤساء الجند وكبار المسئولين فى الأمة ممن يوثق بهم دينا وعقلا كلاً فيما هو خبير به، ويناقش معهم الخطط ويعرض عليهم آراءه ويستمع إلى آرائهم ويتباحث معهم فيما يجنب البلاد آلام الهزيمة حتى تسد الثغرات ومواطن الضعف ويتكون رأى صائب يزيد المسلمين قوة وتنكيلا بأعدائهم.

٢ ــ الحزم وقوة الإرادة

كان ﷺ حازما قوى الإرادة يرسم خطته التى يعتقدها مفيدة فى المعركة وتحقق النصر، ويدرسها مع أهل الذكر والخبرة فى ذلك، ومتى استقر رأى

١ ــ نيل الأوطار ٧/١٨٨ .

الأغلبية على أمر وأقاموا عليه أدلة ترجيحه نفذه ولا يتراجع عنه بحال ولو كان ضد رأيه ، فيوم أحد كان رأيه ورأى كبار الصحابة عدم الخروج من المدينة ومقاتلة المشركين على أبوابها، ورأى الشباب ــ وهم الأغلبية ــ الخروج، فنزل على رأى الأغلبية ودخل بيته ولبس عدته فظاهر بين درعين، وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره.

ولما رأى ذو الرأى من الأنصار أن الشباب استكرهوا الرسول على الخروج لاموهم وقالوا: ردوا الأمر لرسول الله فما أمرنا ائتمرنا، فلما خرج ﷺ قالوا: يارسول الله نتبع رأيك فقال: (ماكان لنبى لبس لأمته (آلة حربه) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه) ونزل القرآن مؤيدا لرأيه فقال تعالى: ﴿**وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾ أى فإذا عقدت القلب على فعل شىء وإمضائه بعد المشاورة ومبادلة الرأى فيه فتوكل على الله وفوض الأمر إليه بعد أخذ الأهبة واستكمال العدة ونفذه، لأن نقض العزيمة خور فى النفس، وضعف فى الخلق وفساد فى الأمور، لأنه إن تراجع فى مرة فسيتراجع فى غيرها، فلا يصلح له رأى ولا ينجح فى خطة، قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأى أن تترددا

ويدل على أثر الحزم وقوة الإرادة فى النصر أنه بعد وفاته ﷺ ارتد معظم العرب عن الإسلام ومنع بعضهم الزكاة، فاستشار أبو بكر الصحابة فى قتالهم فخشوا ذلك وقالوا: لاطاقة لك بقتال العرب. فقال لهم أبو بكر: (إن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب، والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها (ولو كره المشركون) قوله الحق ووعده الصدق ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾، ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾. والله أيها الناس لو أفردت من جميعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده حتى أبلى بنفسى عذرا أو أقتل قتلا. والله أيها الناس لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت بالله وهو خير معين) ثم أخذ رضى الله عنه فى محاربة المرتدين ومانعى الزكاة فنصره الله عليهم وأعادهم إلى الإسلام فى أقل من سنة من خلافته وبدأ يحارب دولتى الفرس والروم.

٣ ــ حسن اختياره ﷺ لقواده

وكان يختار قواده من أعلى العسكريين ثقافة وإيمانا وتدريبا وأكثرهم شجاعة وأوسعهم أفقا ليطمئن من تحقق النصر على أيديهم.

ففى غزوة خيبر لما أبطأ الفتح طلب ﷺ عليا وسلمه الراية ليكون أمير الجيش المحارب ففتح الله عليهم بسبب شجاعته ودربته الحربية وحسن قيادته.

وولى عمرو بن العاص قيادة الجيش فى سرية ذات السلاسل ببلاد قضاعة وتحت قيادته كبار الصحابة ولم يكن عمرو أتقى المسلمين ولا أعلمهم بدين الله وإنما كان من أدهى المسلمين وأبصرهم بفنون القيادة وأساليب النضال والفتح، وصدقت فيه فراسة الرسول ﷺ فسار بالجيش يكمن بالنهار ويسير فى الليل، وأراد أصحابه ذات ليلة أن يوقدوا نارا اتقاء للبرد الشديد فمنعهم وقال من أوقد نارا ألقيته فيها، ولما حلوا بساحة القوم حملوا عليهم، فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين، فجمعوا غنائمهم وأرادوا اقتفاءهم فمنعهم، وفى عودتهم إلى المدينة أدركت عمرا جنابة فى ليلة باردة فلما أصبح تيمم وصلى بالناس، ولما وصلوا المدينة وسألهم ﷺ عن أنباء سفرهم كما هى عادته أخبره بعضهم بما نقموه من عمرو من نهيهم عن إيقاد النار وعن اقتفاء أثر العدو، وصلاته بهم جنبا. فسأله ﷺ عن ذلك فقال: منعتهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم، ونهيتهم عن اقتفاء العدو لئلا يكون له كمين، وصليت جنبا لأن الله يقول: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ وأنا إن اغتسلت هلكت. فتبسم ﷺ وأثنى على عمرو خيرا. وقد قال عمرو: منذ أسلمت أنا وخالد بن الوليد لم يقدم علينا رسول الله ﷺ أحدا من أصحابه.

وسار الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ على نهجه فالصديق حينما ولى الخلافة أرسل خالدا إلى سائر الميادين قائدا فكانت تخفق راياته فى كل معاركه ظافرة منتصرة، ولما طلب البعض عزله انتقادا لبعض تصرفاته صرخ فيهم أبو بكر: (إنه لسيف من سيوف الله، وليس لأحد منكم سيفه ولا خبرته، بل ليس لأحد منكم ثباته وفتكاته).

ولما أبطأ الفتح على جيوش الشام الأربعة وطلبوا المدد. قال أبو بكر: والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد[1] ، فأرسل إلى خالد بالعراق ليأخذ نصف جيش العراق ويسير إلى نجدة المسلمين بالشام، وكتب إلى أبى عبيدة ابن الجراح بالشام يخبره بمقدم خالد ويقول له: سلام الله عليك، أما بعد فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فإنى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرا منه، ولكنى ظننت أنه له فطنة فى الحرب ليست لك أراد الله بنا وبك خيرا والسلام. وصدق الله ﴿**وفوق كل ذى علم عليم**﴾.

٤ ــ تخطيط مكان المعركة

كان ﷺ يدرس طبيعة العدو وأحواله ويعرف عدده ومعداته ثم على ضوء هذا يختار المكان الصالح للحرب ويخطط ميدان المعركة ويُنزل كل سلاح فى المكان الذى يساعده على القيام بواجبه على الوجه الأكمل إذ الأسلحة تتوقف فاعليتها على الموقع وخبرة القائم باستعمالها ودربته على الأساليب العسكرية.

ففى غزوة بدر اختار مع أصحابه مكان المعركة وجعلوا الماء فى حوزتهم وبنى أصحابه له عريشا فوق تل عال يشرف على المعركة واستخدم نظام الصف فى القتال وهو أول من استعمله، وكانت الحروب قبله عند العرب تجرى على نظام الكر والفر ــ فصف أصحابه وسوى صفهم ووضع كل رجل منهم فى مكانه المناسب له من القلب والميمنة والميسرة وفى السلاح الذى يجيد استعماله ولقلة أصحابه وخوفه من تطويق المشركين لهم قال لهم: (لاتحملوا حتى آمركم وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم) ثم حضهم على الصبر والثبات وكان فيما قال: (وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجى به من الغم).

وفى غزوة أحد سار ﷺ بجنوده حتى نزل بهم الشعب من أحد وجعل ظهر جيشه للجبل ووجهه للمدينة وصف أصحابه وعدل صفوفهم ووزع القواد فى أماكنهم المناسبة لهم. ولما كانت الخيل هى أقوى أسلحة المشركين فقد جعل الرماة وكانوا خمسين راميا خلف الجيش على ظهر الجبل وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير

١ ــ انظر البداية لابن كثير جـ ٧ صـ ٥ .

وقال: (انضح الخيل عنا بالنبل، لايأتونا من خلفنا. إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لانؤتين من قبلك).

وقد ذكر الله تعالى تخطيط الرسول ﷺ لمكان معركة أحد فقال: ﴿**وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم**﴾[1] .

المفردات: غدوت: خرجت فى الغداة وهى مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس. من أهلك: من بيت أهلك. تبوىء: تنزل أو تهيىء وتعد. مقاعد: أماكن ومواضع. للقتال: لأجل القتال.

المعنى: واذكر أيها الرسول وقت خروجك من بيتك لغزوة أحد غدوة، وهى غدوة سحر يوم السبت سابع يوم من شوال سنة ثلاث من الهجرة تهيىء للمؤمنين أمكنة للقتال منها مواضع للرماة ومواضع للفرسان ومواضع لسائر المؤمنين، والله سميع لآرائك وآراء أصحابك فى المعركة وعليم بنوايا الصادقين والمنافقين، وسيوفى كلا جزاءه.

وقد سار ﷺ فى غزواته كلها على هذا النحو من التخطيط والتنظيم والتنسيق، وإعطاء كل سلاح الفرصة التى يؤدى فيها واجبه على الوجه الأكمل.

وما انتصر الصدِّيق انتصاره السريع الحاسم على المرتدين إلا لأنه أحسن تخطيط معاركه واختيار قواده، وكذلك فعل المسلمون فى معاركهم، واتبع صلاح الدين فى معركة حطين مااتبعه ﷺ فى بدر، فجعل ماء بحيرة طبرية خلفه، ونزل عند قرية حطين وهى غنية المرعى كثيرة المياه، فحال بهذا العمل بين الفرنجة وبين المياه وكان ذلك من عوامل انتصاره عليهم.

٥ ــ مقاتلة الجندى تحت راية قومه

ينبغى لكل جندى أن يقاتل تحت راية قومه أو شعبه أو محافظته أو فرقته وسلاحه حسبما يتيسر لأن ذلك أدعى للثبات وإظهار القوة والشجاعة والبطولة والجلادة، لأن الإنسان إذا كان بمرأى ومسمع من قومه وأهله أحب أن يظهر أمامهم بمظهر الكمال الإنسانى لما جبلت عليه النفوس من حب إظهار المحاسن أمام

---
١ ــ آل عمران ١٢١ .

العشيرة وكراهة ظهور المساوئ.

وذلك لما رواه أحمد عن عمار بن ياسر أن رسول الله ﷺ: «كان يستحب للرجل أن يقاتل تحت راية قومه»[1]، ولهذا أفرد ﷺ كل قبيلة من القبائل التى غزت معه غزوة الفتح بأميرها ورايتها ويوم حنين حينما حلت الهزيمة فى أول المعركة بالمسلمين أمر عمه العباس أن ينادى فى الناس: يامعشر الأنصار، ياأصحاب بيعة الرضوان، ياأصحاب سورة البقرة!

وهذا ماسار عليه أصحابه من بعده لأنه أكثر تأثيرا فى الحرب وأجلب للنصر، ففى معركة اليمامة حينما كادت الهزيمة تحل بالمسلمين صاح فيهم خالد، أن تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى، فميز المهاجرين، وميز الأنصار، وميز الأعراب كل بنى أب على راية، ثم خاضوا المعركة ببسالة وشجاعة فنصرهم الله.

٦ ــ استعراض الجيوش

كان ﷺ يستعرض أفراد الجيش قبل دخول ميدان المعركة كما كان يتفقد أسلحة الحرب وآلاتها ويتفحصها.

ففى غزوة بدر جمع أفراد جيشه ببيوت السقيا خارج المدينة واستعرضهم ورد من ليس له قدرة على الحرب لصغر سنه عن خمس عشرة سنة ــ وفى غزوة أحد أمر ﷺ باجتماع الجيش فى حدِّ شيخين (وهما جبلان) ثم استعرضه ورد من استصغر سنهم عن الخامسة عشرة وكان فيمن رد: رافع بن خديج وسمرة ابن جندب ثم أجاز رافعا لما قيل له إنه رام، فبكى سمرة وقال لزوج أمه أجاز رسول الله رافعا مع أنى أصرعه، فبلغ رسول الله الخبر فأمرهما بالمصارعة فكان الغالب سمرة فأجازه، وهذا يدل على حب الشباب للجهاد والجندية وتنافسهم فى الخير والدفاع عن الوطن والأموال والأعراض.

ومما يدل على تحديده ﷺ سن الجندية بخمس عشرة سنة مارواه مسلم عن نافع عن ابن عمر قال: (عرضنى رسول الله ﷺ يوم أحد فى القتال وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى، وعرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى)

---

١ ــ منتقى الأخبار ٢ / ٧٦٩.

قال نافع: فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ خليفة فحدثته هذا الحديث: فقال إن هذا الحديث حد بين الصغير والكبير، فكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن كان ابن خمس عشرة سنة، ومن كان دون ذلك فاجعلوه فى العيال.

أقول: وتحديد سن الجندية فى ذلك العهد بخمس عشرة سنة ربما يستند إلى سرعة نمو أجسامهم وقلة الفنون العسكرية وتعودهم على تحمل مشاق الحياة فى سن مبكرة.

أما الآن فالنمو يتأخر والتعليم تعددت مراحله والفنون الحربية ومعدات القتال تنوعت وتعقدت فاحتاجت إلى سن أكبر، وزمن أطول.

إحصاء الجند: وكل من وصل إلى سن الخامسة عشرة من المسلمين غير أولى الضرر اعتبر جندياً فى الجيش الإسلامى — وكان ﷺ يعنى بضبطهم، ولذا قال: اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام، وبهذا وضع أساس قانون الإحصاء، ثم أخذ الخلفاء من عهد عمر فى تدوين سجلات للجند ومن لهم نصيب فى بيت المال.

٧— إخفاء الأسرار والخطط الحربية

كان ﷺ شديد الحرص على كتم الأسرار والخطط الحربية حتى لايصل منها شىء إلى العدو قبل البدء فى التنفيذ فتفسد الخطة وتضيع الفرصة.

فمن كتمه للأسرار أنه بعث عبدالله بن جحش فى سرية ومعه كتاب أمره ألا يفتحه وينظر فيه حتى يسير يومين، وفحواه (أن سرحتى تأتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته. لاتكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وامض فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم)، وإنما لم يخبرهم بمقصودهم وهم بالمدينة حذراً من شيوع الخبر فيدل عليهم أحد الأعداء من المنافقين أو اليهود فتترصد لهم قريش وهم قلة ولا يستطيعون المقاومة.

وبلغ ﷺ فى كتمان الأسرار الحربية حد الروعة فى فتح مكة فقد أمر أصحابه بإنجاز استعداداتهم للحركة، وبعث إلى القبائل المسلمة للاستعداد والحضور إلى المدينة، قال ابن هشام: (وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه ولم يخبر أحداً حتى المقربين إليه بالجهة التى يقصدها. فدخل أبو بكر على ابنته

عائشة (ض) وهى تعد جهاز رسول الله ﷺ فقال: أى بنية أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه؟ قالت: نعم، فتجهز، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: والله ماأدرى)[1].

ولما اقترب موعد خروجه صرح بأنه يريد مكة، ولكنه بث عيونه وأرصاده داخل المدينة وخارجها وأقام جماعة على مداخل المدينة وأنقابها ليحول دون وصول أخبار الجيش إلى قريش، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من إرسال أية معلومات إلى مكة وكان عمر يطوف بالأنقاب فيقول لاتدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه، ودعا ﷺ ربه فقال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها).

ولم يصل إلى مكة أى خبر مما عزم عليه ﷺ حتى كتاب حاطب بن أبى بلتعة الذى أرسله إلى قريش يخبرهم فيه بما عزم عليه ﷺ وخرجت به إمرأة من غير الطريق المعتاد وأخفته فى شعر رأسها تم ضبطه ولم تعلم قريش عن هذا الجيش الكبير الذى بلغ عشرة آلاف حتى وصل إلى ضواحى مكة وأصبح على أربعة فراسخ منها وأمر ﷺ الجيش بإيقاد عشرة آلاف نار ليلقى الرعب فى قلوب قريش فتسلم بلا حرب.

وهذا ماتم فقد أدى هذا الاستعداد والمبالغة فى كتمان الأسرار العسكرية ومفاجأة قريش بهذا الجيش الضخم إلى عدم إعطائها فرصة لحشد جيش مماثل منها ومن القبائل الموالية لها فسلمت، بلا مقاومة تذكر، وجاء نصر الله والفتح وعظمت الكعبة وطهر البيت الحرام والفضل لله ثم لهذه الخطة الحربية البارعة والكتمان التام للأسرار العسكرية.

فهل لنا أن نقتدى بالقائد الأعظم محمد ﷺ ونستفيد من هذا الدرس درس غزوة الفتح، فقد صرح العسكريون فى إسرائيل وكبرى صحفنا بأن من أسباب انتصار إسرائيل علينا عام ١٩٦٧م أنها كانت تعرف عنا أكثر مما نعرفه عنها.

وقد حذرنا الله سبحانه من إذاعة الأسرار العسكرية والخطط الحربية وتوعد من يفعل ذلك بالعقاب الشديد فقال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى**

١ـ ابن هشام ٤/ ٢٨.

وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾[1].

والمعنى: يأيها الذين آمنوا لاتجعلوا الكفار أنصاراً وأعواناً لكم تبلغونهم أخباركم التى لاينبغى أن يطلعوا عليها وقد كفروا بالله ورسوله وكتابه الذى أنزله عليكم، فكيف بعد هذا تجعلونهم أولياء لكم تسرون إليهم بأخباركم التى تنفعهم وتضركم، وتمنع نشر دينكم وهم يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من الدين إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى طالبين مرضاتى فلا توالوهم. ومن يفعل هذه الموالاة ويبلغ الأسرار للأعداء فقد حاد عن الصراط المستقيم الذى يوصل إلى دار النعيم.

وحرصاً منه على كتمان الأسرار الحربية كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها، فمثلاً إذا أراد غزوة فى الشمال سأل عن بلد فى الجنوب ومياهه والطرق المؤدية إليه ومن به من العدو، فعن كعب بن مالك عن النبى ﷺ: (أنه كان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها)[2]. وقال ﷺ: (الحرب خدعة) متفق عليهما.

٨ ــ إعداد العيون والجواسيس

كان ﷺ يعد عيونه وجواسيسه من ذوى الفطنة والشجاعة الممتازة والتدريب الكامل على التسلل فى أرض العدو وداخل حصونه ومواقعه لتعرف أخباره.

ففى غزوة بدر بعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام لتعرف أخبار قريش، فصادفا سقاة لقريش فيهم غلامان سهميان فأتيا بهما والرسول يصلى فسألاهما عن أنفسهما فقالا نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء، فضرباهما لأنهما ظنا أن الغلامين لأبى سفيان، فقال الغلامان نحن لأبى سفيان، فتركاهما، ولما أتم ﷺ صلاته وكانت له فراسة فى ذلك مضرب المثل قال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا، والله إنهما لقريش، ثم قال لهما: أخبرانى عن قريش؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب. فقال لهما: كم هم؟ فقالا: لاندرى. قال:

١ ــ الممتحنة ١. ٢ ــ أى ذكر غيرها وأرادها هى حتى لايعرف العدو مايريده ﷺ.

كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. قال: القوم مابين التسعمائة والألف. ثم سألهما عمن في النفير من أشراف قريش فذكرا له عدداً عظيماً. فقال ﷺ لأصحابه: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

وكان يعنى بالاستطلاع وتعرف أخبار الأعداء فيرسل العيون قبل الحرب يأتونه بخبر القوم حتى يخوض المعركة على بينة وخبرة تامة بقوة عدوه. فعن أنس قال: بعث رسول الله ﷺ بُسْبُساً عيناً ينظر ماصنعت عير أبي سفيان، فحدثه الحديث فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا، فجعل رجال يستأذنونه في ظهرهم في علو المدينة فقال: لا إلا من كان ظهره حاضراً، فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا ركب المشركين إلى بدر — رواه أحمد ومسلم. بسبس هو ابن عمرو ويقال: ابن بشر.

وعن جابر قال: قال النبي ﷺ: (من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب؟ قال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟ قال الزبير: أنا. فقال النبي ﷺ: (إن لكل نبي حوارياً[1]، وحواري الزبير) متفق عليه[2]. وفي غزوة حنين أرسل ﷺ عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل في جيش العدو، ويسمع منهم ماأجمعوا عليه، فمكث يوماً أو يومين ثم أتى النبي ﷺ وأخبره أنه انتهى إلى خباء مالك بن عوف وعنده رؤساء هوازن، فسمعه يقول لأصحابه: (إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المدة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لاعلم لهم بالحرب فيظهر عليهم، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ثم صفوا، ثم تكون الحملة منكم، واكسروا أغماد سيوفكم، فتلقونه بعشرين ألف سيف، واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً).

وعن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ قال: (من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟) فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: (فداك أبي وأمي) رواه الشيخان[3].

وسار الصديق ومن بعده على هذا النهج، فقد كان (ض) يعمل عمله في حروب الردة جميعاً وهو على استطلاع تام وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين، وإن من دواعي انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال، ونقص أخبار

١ — الحواريّون: الخلصاء والأنصار. ٢ — اللؤلؤ ٣/١٣٤. ٣ — اللؤلؤ ٣/١٣٥.

المسلمين عند القبائل المرتدة، بعيدها وقريبها على السواء، ومن وصيته لخالد فى حروب الردة (وسر بالأدلاء، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة).

٩ — عدم البدء بالعدوان

وكان ﷺ لايبدأ أحداً بعدوان، ويقول: (أيها الناس لاتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) رواه الشيخان عن عبدالله بن أبى أوفى[١]. فنهى عن تمنى لقاء العدو، لأن الإنسان لايعلم مايئول إليه أمر اللقاء، ولذا قال: (وسلوا الله العافية) وهى السلامة من المحذورات المتضمنة للقاء العدو، ولأن فى تمنى لقاء العدو صورة من الإعجاب والاتكال على النفس والوثوق بالقوة وهو نوع بغى، فضلاً عن أنه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو واحتقاره وهذا يخالف الاحتياط والحزم ويضيع النصر، قال تعالى: ﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين**﴾[٢].

ولما بعث ﷺ علياً فى جمع إلى بنى مذحج باليمن قال له: (ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك).

ولهذا كان على كرم الله وجهه لايبدأ أحداً بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: لاتدعون أحداً إلى المبارزة، وإن دعيت إليها فأجب، فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع.[٣]

ولكنه ﷺ كان إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه، بل يخرج إليهم أسرع مايمكن ويفاجئهم فى عقر دارهم، كما وقع فى غزوة بنى المصطلق، بل ربما وصل إليه الخبر والناس مجدبون والجو ملتهب والشدة بالغة فلا يثنيه ذلك عن الخطة التى تعودها، كما حدث فى غزوة تبوك.

١٠ — استخدام المفاجأة للقضاء على القوة العسكرية

الحرب خدعة وحيلة ومكر ودهاء، والنصر فيها لمن يحكم خططها ويخفى

---
١ — اللؤلؤ ٢/٢٠٢. ٢ — التوبة ٢٥. ٣ — العقد الفريد ١/٧٤.

أسرارها ويباغت عدوه ويوجه إليه الضربة الأولى القاصمة فيوقع فى صفوفه الخلل ويفسد عليه تدبيره.

وقد كان ﷺ يستخدم المفاجأة فى حروبه للقضاء على القوة العسكرية حيث أصابها لما لها من التأثير المعنوى على الأعداء وإحداث الارتباك والرعب فى صفوفهم وإضعاف عزائمهم فتسهل هزيمتهم والقضاء عليهم.

فلما علم أن بنى المصطلق يحرضون عليه ويريدون قتله قرر أن يفاجئهم ويأخذهم على غرة، فخرج إليهم فى قواته حتى وصلوا إلى ماء قريب منهم يسمى المريسيع، وفوجىء القوم بقوات الرسول ﷺ تهاجمهم فسقط فى أيديهم، ولم يجدوا للخلاص طريقاً فقتل منهم عشرة وأسر الباق وكانوا أكثر من سبعمائة مع النساء والذرية، وغنموا ألفى بعير وخمسة آلاف شاة، ولم يقتل العدو من المسلمين أحداً.

وعندما قرر ﷺ غزو خيبر خرج فى ألف وستمائة مقاتل ومائة فارس وقطع المسافة بين المدينة وخيبر فى ثلاثة أيام ــ مع أن المسافة بينهما حوالى مائة ميل فكانت سرعة التحرك عجيبة، حتى إن أهل خيبر فوجئوا بالقوات المحمدية فهربوا يتصايحون: هذا محمد والخميس معه، واستبشر ﷺ من حالة الذعر التى وجدهم عليها فقال: (الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين).

وتبدو خبرته العسكرية وحذقه فى أساليب القتال واستخدام المفاجأة فى خروجه إلى بنى لحيان، فلم يشأ أن يسلك الطريق المعتاد بين المدينة وبنى لحيان، كما تكتم نبأ خروجه لقتالهم وأظهر أنه يريد الشام فسلك بجنده طريق الشام، وما لبث أن عرج إلى الطريق الذى يوصله إلى منازل بنى لحيان فى واد بين أمج وعسفان، وفوجىء القوم بالقوة الإسلامية، فأسرعوا بالفرار ليعتصموا برءوس الجبال، فأقام بديارهم يومين يبعث السرايا فى كل ناحية من نواحيهم فلا يجدون أحداً، ثم انتقل إلى عسفان لتسمع به قريش فتهابه، ثم عاد إلى المدينة.

وكان لايضيع الوقت فى انتظار مايختاره أولئك الأعداء لإضعاف أنصاره، ولا يترك زمام الحركة والمبادرة فى أيدى المهاجمين، إلا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه، كما حدث فى غزوة الخندق.

ولهذا حرص الخلفاء من بعده على أن يكون قائد جيوش المسلمين على جانب كبير من الذكاء والفطنة والدهاء حتى يمكنهم أن يضللوا أعداءهم ويخفوا أسرار تحركات جنودهم ويتخذوا سلاح المباغتة عوناً لأسلحتهم فيحطموا أمن العدو، ويردوا كيده إلى نحره. وسبق ماجاء في كتاب الخليفة أبى بكر إلى أبى عبيدة:

(أما بعد. فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع وأنا أعلم أنك خير منه وأفضل ديناً. ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك فأحببت أن أنسى به الروم وساوس الشيطان ...).

ولو راجعنا صفحات التاريخ لوجدنا أن العرب فى صدر الإسلام لم ينصروا على عدوهم إلا بمقدار حرصهم على مفاجأته فى عقر داره اتباعاً لما كان عليه الرسول ﷺ فى حروبه من حرصه على مفاجأة العدو، ولذا كان ﷺ إذا أراد غزوة ورّى بغيرها حتى يفاجىء العدو، وهو لايدرى عنه شيئاً.

١١ ـ بث روح الهزيمة فى جيش العدو

كان ﷺ يعمل على بث روح الهزيمة فى جيش العدو، وتفرقة صفوفه، ويقول: (إن الحرب خدعة) ففى أثناء حصار الأحزاب للمدينة فى غزوة الخندق جاء نعيم بن مسعود الأشجعى وهو من غطفان وصديق قريش واليهود، فقال: يارسول الله إنى أسلمت وقومى لايعلمون بإسلامى، فمرنى بأمرك حتى أساعدك. فقال: أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذّل عنا مااستطعت، فإن الحرب خدعة.

وفى حديث جابر بن عبدالله (ض) قال: قال النبى ﷺ: (الحرب خدْعة) رواه الشيخان[1]، فخرج من عنده إلى بنى قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين، فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم، فقال: يابنى قريظة تعرفون ودى لكم وخوف عليكم، وإنى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى. قالوا: نعم، فقال: لقد رأيتم ماوقع ببنى قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لديارهم وبلادهم، وأما أنتم فتساكنون الرجل ـ يريد الرسول ـ ولا طاقة لكم بحربه وحدكم فأرى ألا

١ ـ اللؤلؤ والمرجان ٢ / ٢٠١ ـ والخدعة تكون بالتورية وبالكمين وقال النووى: اتفقوا على جواز خداع الكفار فى الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

تدخلوا فى هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن، فاستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك، ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال لهم: تعرفون ودى لكم ومحبتى إياكم وإنى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى. قالوا: نفعل. فقال لهم: إن بنى قريظة قد ندموا على مافعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، فقالوا له: أيرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرافهم ونعطيهم لك وترد جناحنا الذى كسرت (يريد بنى النضير) فرضى بذلك منهم، وهاهم مرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً، ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ماأخبر به قريشاً.

فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظة يدعوهم للقتال غداً فأجابوا إنا لايمكننا أن نقاتل فى السبت (وكان إرساله ليلة السبت) ولم يصبنا ماأصابنا إلا بالتعدى فيه، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لاتتركونا وتذهبوا إلى بلادكم. فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود، وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضاً.

وكان ﷺ قد ابتهل إلى الله الذى لاملجأ إلا إليه ودعاه بقوله (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم). وقد أجاب الله دعاءه ﷺ فأرسل إلى الأعداء ريحاً باردة فى ليلة مظلمة، فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم فى الليلة المدلهمة، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح، وبهذا التدبير المحكم والتفكير الملهم والأمر المبرم من القائد الأعظم ﷺ (خذل عنا مااستطعت) نجح نعيم فى خدعته للمشركين وباء الأعداء بفشل مبين، فعلى من يريدون النصر أن يترسموا طريق نبيهم ﷺ ليحققوا هزيمة أعدائهم.

١٢ ــ اهتمامه بالقوة المعنوية

كان ﷺ عظيم الاهتمام بالقوة المعنوية: قوة الإيمان، فكان دائم الصلة بالله ليلاً ونهاراً حتى فى أحرج الأوقات وأقسى الظروف، كان لايفتر عن ذكر الله والتضرع إليه والاستغاثة به تعجيلاً للنصر لعلمه أن النصر بيده وأن الله على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء، فهو الذى قال: ﴿**ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا**

إنهم لايعجزون﴾[1] وقال: ﴿**لنهلكن الظالمين. ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾**[2] وقال: ﴿**وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾**[3] وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

وكان يحافظ على الصلاة فى جماعة حتى فى حال الحرب متى أمكنه ذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم..﴾**[4] فإذا لم يتمكن من إقامة الصلاة فى جماعة لقيام الحرب والتحام الجيوش صلوها حسب مايمكنهم كما قال سبحانه ﴿**فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾**[5] أى فصلوا مشاة أو راكبين مستقبلى القبلة وغير مستقبليها.

كما كان يحافظ على تهجده بالليل وتقربه إلى الله بالصلاة تنفلا بالنهار لإيمانه بأن الصلاة عامل مهم فى النصر كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾**[6] وقوله: ﴿**فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾**[7].

وكان أصحابه ﷺ يكثرون فى ليالى القتال من صلاة الليل وتلاوة القرآن وذكر الله والدعاء بالنصر على الأعداء لعلمهم أن النصر من عند الله وأنه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وقد قال على كرم الله وجهه يخاطب جنده: (ألا إنكم لاقوا العدو غدا إن شاء الله فأطيلوا الليلة القيام وأكثروا تلاوة القرآن واسألوا الله الصبر والنصر والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين).

ويدل على أثر القوة المعنوية فى النصر، أن هرقل سأل رجلا ممن اتبعه كان قد أسر مع المسلمين فقال: أخبرنى عن هؤلاء القوم؟ فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم. هم فرسان بالنهار رهبان بالليل لايأكلون فى ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلاّ بِسَلامٍ، يقفون على من حاربوه حتى يقضوا عليه. فقال: لئن كنت صدقتنى ليملكن موضع قدمى هاتين[8].

١ـ الأنفال ٥٩ . ٢ـ إبراهيم ١٣، ١٤ . ٣ـ البقرة ١٨٦ . ٤ـ النساء ١٠٢ .
٥ـ البقرة ٢٣٩. ٦ـ البقرة ١٥٣ . ٧ـ اخر الحج . ٨ـ البداية ٥٣/٧ .

وكتب سعد بن أبي وقاص بعد الانتهاء من معركة القادسية إلى عمر: (... وأصيب من المسلمين سعد بن عبد القارىء، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لانعلمهم.. الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل، وهم آسادلا تشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذا لم تكتب لهم).

١٣ — رفقه بأصحابه

كان ﷺ لين الجانب لأصحابه رفيقا بجنده رءوفا رحيما بهم ولذا تجمعوا حوله وأحبوه أكثر من حبهم لأنفسهم، وكانوا فداء له فى معاركهم، قال تعالى: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**[١]، وقال سبحانه: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾**[٢] وقد قال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله» متفق عليه[٣] — وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به» رواه أحمد ومسلم[٤]. وقال ﷺ: «مامن أمير يلى أمور المسلمين ثم لايجتهد لهم ولا ينصح لهم إلا لم يدخل الجنة» رواه مسلم[٥]. وعن جابر قال: «كان رسول الله ﷺ يتخلف فى المسير فيزجى الضعيف ويردف ويدعو لهم» رواه أبو داود[٦]. يزجى: يسوق. يردف: أى يردف خلفه من ليس له راحلة إذا ضعف عن المشى. وكان ﷺ لايترفع عن عامة المسلمين ولا يتميز عليهم بل كان يمشى فى غمارهم وأحيانا فى المؤخرة يتفقدها، وكان يتفقد أصحابه ويتفحص شئونهم قبل المعركة وبعدها تفقد الإنسان لأهله.

فالواجب على قائد الجيش أن يقتدى بهذه الأخلاق الكريمة، وأن يكون أبا لجنوده يتفقد أحوالهم ويرعى شئونهم ويقوم بمصالحهم. وأن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر حتى لايتورطوا فى المعاصى، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم.

---

١ — آل عمران ١٥٩ . ٢ — التوبة ١٢٨ . ٣ — رياض الصالحين ٢٨٢ .
٤ — نيل الأوطار ١٨٩/٧ . ٥ — نفس المصدر . ٦ — نفس المصدر .

ومن وصية عمر لسعد بن أبى وقاص قائد الجيوش الإسلامية فى معركة القادسية : (وترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم سيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عند منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع ، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم) .

١٤ ــ عدله ﷺ

أما العدل فكان فيه مضرب المثل حتى قال ﷺ : «وأيم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها»[١] ، فكان يوزع أعباء الحرب وتبعاتها بين أصحابه بالسوية ، وعندما دعت الضرورة إلى حفر خندق فى الجهات المكشوفة حول المدينة فى غزوة الأحزاب قسمه بين أصحابه بالسوية ، فأعطى كل عشرة أربعين ذراعا ، واشترك معهم فى حفره ، وكان يوزع الغنائم على المجاهدين بالسوية ، ولا يستأثر لنفسه بشيء منها ، ولا يميز فى قسمتها شخصا على غيره ، فعدله لايعرف فى الحق قرابة ولا محاباة وقد شمل عدله المسلمين وغيرهم ، فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ﷺ لاتقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» رواه أبو داود .[٢] وفى ابن هشام حـ ٢/ ٢٠٩ قال ﷺ : «استوصوا بالأسارى خيرا» فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه فى الأسارى قال : فقال أبو عزيز : مرْ بى أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى فقال : شد يدك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك ، قال وكنت فى رهط من الأنصار ــ حين أقبلوا بى من بدر ــ فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا . ماتقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها قال : فأستحى فأردها على أحدهم فيردها على مايمسها ، وقال عمر لسعد بن أبى وقاص فى وصيته له : ونح منازلهم (أى الجيش) عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحدا من أهلها شيئا ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء

١ ــ اللؤلؤ ٢/ ١٨٥ . ٢ ــ ق ٢/ ٤٠٨ .

بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح).

فالواجب على كل قائد ألا يتميز عن جنده بشيء حتى لاتتأثر معنوياتهم، فهم إخوته فى المعركة ومعه فى لهيبها يقاسمونه حلو الحياة ومرها، ويشاركونه غنم المعركة وغرمها، فقد قال ﷺ: ... (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته..) الحديث متفق عليه[1].

ولقد بلغ من عدالة القائد فى جنده أن أبا عبيدة بن مسعود الثقفى عندما هم قوم من الفرس بإكرامه بأنواع من الأطعمة الفارسية، سألهم: (هل أكرمتم الجند بمثلها؟ فقالوا: لم يتيسر لنا ونحن فاعلون، فقال: لاحاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيدة أن صحب قوما من بلادهم استأثر عليهم بشيء، لاوالله لاآكل ماأتيتم به ولا مما أفاء الله إلا مثل مايأكل أوساطهم) وبهذه المعاملة الكريمة يقتحم الجندى مع قائده النار ويخوض البحار.

ومن عدالتهم مع أهل الذمة، أنه لما فتحت الجيوش الإسلامية دمشق وحمص وغيرها من المدن السورية وأخذوا من أهلها مبالغ من المال صلحا نظير حمايتهم لهم، وجمع هرقل للمسلمين جموعا كثيفة ليخرجهم من الشام كلها، فاضطر المسلمون إلى إخلاء هذه المدن ليلقوا جيوش الروم، وردوا إليهم أموالهم التى أخذوها نظير الحماية، فقال لهم أهل المدن: ردكم الله ونصركم والله لحكمكم وعدلكم أحب إلينا من جور الروم وظلمهم، والله لو كانوا مكانكم لما دفعوا إلينا شيئا أخذوه بل كانوا يأخذون معهم كل شيء يستطيعون حمله.

وتوغلت جيوش المسلمين فى فارس وما وراء النهر حتى دخلت مدينة سَمَرْقَنْد فأرسل أهلها إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، أن القائد الإسلامى قتيبة الباهلى قد دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين غدرا بغير حق، فأرسل عمر إلى والى خراسان يأمره بعرض القضية على القاضى جميع بن حاضر البلخى، فقضى بأعجب حكم فى التاريخ عدالة وسموا، قضى بإخراج الجيش إلى معسكره الذى كان به قبل الغزو وأن ينابذوهم على سواء فيكون صلحا جديدا أو ظفرا عنوة

١ ــ اللؤلؤ ٢/٢٤٢.

وهذا حكم لم تعرفه الدنيا إلا للإسلام لذا قال أهل سمرقند : هذه أمة لاتحارب لأن حكمها رحمة ونعمة ورضوا ببقاء الجيش بينهم وأن يقيم المسلمون بين أظهرهم وكان ذلك سببا فى إسلامهم.

١٥ ـ الأوقات التى يستحب فيها القتال

عن صخر الغامدى قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لأمتى فى بكورها قال: فكان إذا بعث سرية أو جيشا بعثهم من أول النهار» رواه الخمسة إلا النسائى ـ وعن النعمان بن مقرن: «أن النبى ﷺ كان إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر» رواه أحمد وأبو داود[1].

وأخرج أبو داود والترمذى عن النعمان بن مقرن أيضا قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ غزوات فكان إذا طلع الفجر أمسك عن القتال حتى تطلع الشمس. وإذا طلعت قاتل حتى إذا انتصف النهار أمسك حتى تزول الشمس. فإذا زالت قاتل حتى العصر، ثم أمسك حتى يصلى العصر ثم قاتل وكان يقول عند هذه الأوقات تهيج رياح النصر ويدعو المؤمنون لجيوشهم فى صلواتهم» تيسير الوصول جـ١ ص ٢١٣.

والسبب فى اختيار أول النهار أو بعد الزوال وهبوب الريح أنه أنشط للنفس وأعون على القتال، وكلما ازداد الإنسان نشاطا إزداد إقداما على العدو. واختيار القتال بعد أداء الصلاة فيه فضيلة أوقات الصلاة والدعاء عندها بطلب النصر.

ومن هنا حرص النعمان بن مقرن فى موقعة نهاوند التى عرفت بفتح الفتوح على ألا يخوضها إلا بعد الزوال والصلاة وهبوب الرياح، والدعاء بالنصر، فأيد الله كفاحهم واستجاب دعاءهم ونصرهم.

وفى موقعة عين جالوت التى خاضها المسلمون ضد التتار يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨ هجرية حرص السلطان قطز على أن ينتظر بالجيش حتى تزول الشمس ويصعد الخطباء على المنابر يدعون لهم بالتأييد والنصر، ثم خاض هو وجيشه المعركة فى قوة وشجاعة، ولما زُلزل المسلمون زلزالا شديدا

---

١ ـ الحديثان بنيل الأوطار ٧/٢٠١.

من سيول التتار الجارفة صرخ السلطان صرخة عظيمة سمعها معظم العسكر وهو يقول: (واإسلاماه) ثلاث مرات. ثم هتف: (ياألله انصر عبدك قطز على التتار) وقاتل السلطان وجيشه فى استماتة وبسالة دفاعا عن الإسلام وأهله فنصرهم الله نصرا مؤزرا، وغنموا مغانم كثيرة لم ير مثلها فى حروب ذلك العهد.

وبعد انتهاء المعركة تهللت وجوه المسلمين فرحا واستبشارا بما أنعم الله عليهم من هذا النصر الكبير، وخر الملك المظفر ساجدا لربه شاكرا لما اجتباه من أنعمه وأطال السجود ثم رفع رأسه والدموع تتحادر على لحيته حتى سلم من صلاته، فامتطى جواده وخطب فى جيشه قائلا: (أيها المسلمون: إن لسانى يعجز عن شكركم، والله وحده قادر على أن يجزيكم الجزاء الأوفى. لقد صدقتم الله الجهاد فى سبيله، فنصر قليلكم على كثير عدوكم. قال الله تعالى: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾، وقال عز وجل: ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ إياكم والزهو بما صنعتم ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله إنه ذو القوة المتين. وما يدريكم لعل دعوات إخوانكم المسلمين على المنابر فى الساعة التى حملتم فيها على عدوكم فى هذا اليوم العظيم يوم الجمعة وفى هذا الشهر العظيم شهر رمضان كانت أمضى على عدوكم من السيوف التى بها ضربتم، والرماح التى بها طعنتم، والقسى التى عنها رميتم.

واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه. وأن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. ألا فترحموا على إخوانكم الذين علم الله مافى قلوبهم من الإيمان والخير فاختار لهم الشهادة والجنة، واختار لكم النصر والبقاء لتعودوا للجهاد فى سبيله، وما عند الله خير وأبقى.

وترحموا على أمة الله سلطانتكم، فقد صدقت الله ماعاهدته عليه، وآثرت ماعنده على ما عند عبده قطز ...)[1].

ثم تلا السلطان قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم

---

١ ــ وكانت زوجته السلطانة قد استشهدت أثناء المعركة وهى تقاتل بعض خونة التتار الذين أرادوا اغتيال السلطان.

يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

١٦ ـــ الدعاء عند القتال

من عوامل النصر أن يستغيث المجاهدون بربهم عند القتال، ويستنصرونه فى ضراعة وابتهال فإن النصر بيده وحده وهو على كل شيء قدير. وهو الذى قال: **﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾**[1] وقال: **﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض..﴾.**

وهذا ماكان يحث عليه ﷺ ويفعله فقد قال ﷺ: «ثنتان لاتردان أو قلما تردان: الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا» رواه أبو داود.

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال: «اللهم أنت عضدى، ونصيرى بك أجول وبك أصول وبك أقاتل» رواه أبو داود والترمذى.

وروى أحمد ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب أن النبى ﷺ كان يدعو يوم بدر: «اللهم أنجز ماوعدتنى، اللهم أنجز ماوعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا ـــ وما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه به ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يانبى الله كفاك مناشدتك لربك فإنه سينجزلك ماوعدك»، وأنزل الله يومئذ: **﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم﴾** الآية ـــ وعن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» متفق عليه، ولما برز طالوت والمؤمنون معه لجالوت وجنوده دعوا ربهم فقالوا: **﴿ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾.**

وعلى هذا درج أصحاب الرسول ﷺ والمؤمنون فى معاركهم يطلبون المدد من صاحب المدد والنصر ممن عنده النصر فنصرهم الله القوى العزيز.

ولما صافَّ قتيبةُ بن مسلم التُّركَ، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع

---

١ ـــ البقرة ١٨٦.

الأزدى، وقال: انظروا مايصنع؟ فقالوا: هاهو ذاك فى أقصى الميمنة جانحا على سية قوسه[1] ينضنض[2] بإصبعه نحو السماء. قال قتيبة: تلك الإصبع الفاردة[3] أحب إلى من مائة ألف سيف شهير، وسِنان طرير[4]. وفى البيان للجاحظ جـ ٣ ص ٢٧٧: وقال رسول الله ﷺ: «كم من ذى طِمْرَيْن[5] لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره» منهم البراء بن مالك، واجتمع الناس إليه، وقد دهمهم العدو، فأقسم على الله فمنحهم الله أكتافهم، وكان ذلك يوم تستر فى حرب المسلمين الفرس أيام عمر سنة ٢٠ هـ، إذ انكشف المسلمون فقالوا: يابراء أقسم على ربك. فقال أقسم عليك يَارب لما منحتنا أكتافهم. وألحقتنى بنبيك، فحمل وحمل الناس معه، فقتل مرز بان الزارة، من عظماء الفرس، وأخذ سلبه فانهزم الفرس، وقتل البراء، ودفن بتستر — انظر الإصابة، ومعجم البلدان.

والبراء بن مالك بن النضر أخو أنس بن مالك، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ماعدا بدرا، وكان له القدح المعلى فى النصر على مسيلمة يوم اليمامة، إذ اقتحم الحديقة على المشركين وفتح بابها، بعد أن لقى مالقى من الطعن والضرب[6].

١٧ — إخفاء الأخبار الموهنة للعزائم

كان ﷺ يخفى الأخبار السيئة عن الجيش حتى لاتفت فى عضدهم وتؤثر على روحهم المعنوية فلما انتهى إلى علمه الخبر بنقض بنى قريظة للعهد الذى كان بينهم وبين المسلمين بعث سعد بن معاذ وهو يومئذ سيد الأوس — وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج — ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير فقال: (انطلقوا حتى تنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ..؟ فإن كان حقا فالحنوا إلى لحنا[7] أعرفه، ولا تفتوا فى أعضاد الناس[8]، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فأجهروا به للناس).

---

١ — جانحاً: مائلا، وسِيَة القوس: رأسها.　　٢ — النضنضة: التحريك.

٣ — الفاردة: المنفردة، والمتنحية. والشهير: الذى شهره صاحبه، أى سله وأبرزه.

٤ — الطرير: المحدد.　　٥ — الطمر بالكسر: الثوب الخلق.　　٦ — الإصابة ٦١٧.

٧ — اللحن: أن يخالف ظاهر الكلام معناه.　　٨ — يقال فت فى عضده، إذ ضعّفه وأوهنه.

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث مابلغهم عنهم، نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا من رسول الله؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلا فيه حدة، فقال سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى[1] من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة، أى: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: (الله أكبر أبشروا يامعشر المسلمين). وإنما قال ﷺ أبشروا يامعشر المسلمين لأنه إذا اشتد الكرب هان، وإذا بلغت الشدة نهايتها جاء الفرج بعدها، وفى المثل: اشتدى أزمة تنفرجى.

وأثناء معركة اليرموك وهى على أشدها تسلم أبو عبيدة رسالة من البريد تخبره بموت أبى بكر الصديق وتولية عمر، وعزل خالد عن القيادة فكتم أبو عبيدة مافى الرسالة حتى لاتؤثر فى عضد المسلمين إلى أن انتهت المعركة بنصر لامثيل له ثم أعلن النبأ، وأثناء اشتداد القتال فى معركة نهاوند استشهد قائدها النعمان بن مقرن فأخفى المحيطون به موته، وتسلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان حتى انتهت المعركة بنصر كبير وفتح عظيم فأذيع استشهاد البطل.

١٨ ــ إظهار الأخبار السارة

وكان ﷺ يظهر الأخبار السارة ويذيعها فى جنوده حتى تبعث فى نفوسهم الحماس والنشاط فيقدموا على العدو بروح وثابة ومعنويات عالية وينزلوا بعدوهم الضربات القاضية، فيطهروا منه ومن رجسه البلاد والعباد.

ففى يوم بدر بعد أن دعا ربه واستغاثه فى طلب النصر خفق خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال: (أبشر ياأبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع)[2] وروى البخارى أن النبى ﷺ قال: «أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم» وأثناء المعركة خرج من عريشه وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر».

وفى موقعة كاظمة مع الفرس التى عرفت بذات السلاسل قتل خالد هرمز قائد الفرس فكبر وكبر من سمعه، فوقع الرعب فى قلوب الفرس فلم يكن لهم بعده

١ ــ أكثر وأعظم. ٢ ــ الغبار.

ثبات، فولوا منهزمين.

وفى موقعة القادسية لما قتل هلال التيمى رستم قائد الفرس صعد على سريره ثم صاح فى الناس قتلت رستم ورب الكعبة، فكبر كل من سمعه، وتتابعت الهزيمة على الفرس — وفى عين جالوت قتل الأمير جمال الدين كتبغا قائد التتار وكبر وصاح، قتلت عدو الله، فكبر المسلمون بصوت واحد ألقى الرعب فى قلوب التتار فازداد هلعهم واختلت صفوفهم وأخذوا يتقهقرون، وانتهى أمرهم بهزيمة ساحقة فرقت شملهم وبددت جمعهم.

وهكذا ترفع الأخبار السارة من معنويات المجاهدين وتبعث فيهم الحماس والقوة وتلقى الفزع والرعب فى قلوب أعدائهم، فسرعان ماتحل بهم الهزيمة.

١٩ — شجاعته ﷺ وثباته

كان ﷺ منقطع النظير فى الشجاعة والثبات، كان لا يعرف التردد ولا الهزيمة بل كان قائدا ممتازا وشجاعا مقداما. يتقدم جنوده إذا دارت رحى الحرب، وحمى وطيسها، واشتد لهيبها، وهابها من لايهابها، حتى كان علىٌّ بطل الأبطال وفارس الفرسان يقول: (إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو).

ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة وهبوا مذعورين ظانين أنه قد أغير عليهم، فانطلق أناس منهم قِبَلَ الصوت فتلقاهم ﷺ راجعا من قبله بعد أن استبرأ الخبر على فرس عرى — من غير لجام — والسيف فى عنقه وهو يقول: لن تراعوا.

كان ﷺ من الشجاعة بمكان يعز على غيره من البشر. شهد المواقع العظيمة وخاض المعارك العنيفة وفر من حوله الأبطال والشجعان وهو ثابت لايتزعزع ومقبل لايدبر حتى يتحقق النصر، فلولا ثباته فى أحد والعدو يحيط به يريد القضاء عليه، والسهام تنهال عليه كالمطر لقضى على الإسلام والمسلمين، ولكنه ثبت وصبر وصابر حتى انتهى درس التأديب الذى تلقاه أصحابه بسبب مخالفة بعضهم لأوامره. ثم جمع صفوفهم ولم شملهم وسار بهم — من بعد ماأصابهم القرح — فى

أثر قريش ليرهبهم وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم فيظنوا به قوة، وأن الذى أصاب المسلمين لم يوهنهم عن طلبهم، وفعلا امتلأت قريش رعبا وأسرعت إلى مكة بعد أن كانت تفكر فى الانقضاض على المدينة والقضاء على من فيها — ولولا ثباته يوم حنين فى وجه الرماة والطاعنين لحلت بالمسلمين هزيمة ساحقة، فحينما دخل المسلمون وادى حنين فى الظلام فوجئت مقدمة الجيش التى كان معظمها من الطلقاء بكمين من العدو كان مستترا فى شعاب الوادى ومضايقه أمطرهم بنبل انهال عليهم من كل جانب كالجراد المنتشر، فما يدرون أمن السماء أم من الأرض؟ وكانوا رماة لايكاد يسقط لهم سهم، فأدبرت الخيل وولت المقاتلة وراءها والعدو من خلفهم يمعن فى ظهورهم طعنا وضربا.

لكنه ﷺ فى ذلك الهول الجارف ثبت ثبوتا يجل عن الوصف ومعه قليل من صحابته وأهله، ثبت شامخا كالطود، وجعل يدفع بغلته إلى الأمام ويرفع صوته وينادى فى المسلمين: أيها الناس هلموا إِلَيَّ، ويردد: أنا النبى لاكذب أنا ابن عبد المطلب. فبين للناس بهذا النداء أن فراره مستحيل، لأنه نبى حقا يحمل رسالة كلف بتبليغها والجهاد من أجلها ولو مات فى سبيلها، وأنه ابن عبد المطلب سيد العرب ومن كان كذلك كيف يفر. فالنبوة والنسب الشريف كل منهما حاجز صلب يحول بينه وبين الفرار — ثم أمر عمه العباس وكان جهورى الصوت أن يصرخ فى الجيش ويناديهم حسب وحداتهم التى يعتزون بها — يامعشر الأنصار يامعشر المهاجرين، ياأهل السمرة (شجرة الرضوان) ياأصحاب سورة البقرة، فانعطفوا على الصوت انعطاف البقر على أولادها وهم يجيبونه: يالبيك يالبيك، حتى تجمع منهم فى لحظات عدد قليل استطاعوا بشجاعة رسولهم وثباته، وجلادهم وصبرهم أن ينتزعوا النصر من أعدائهم.

وقد اقتبس أصحابه من هديه وساروا على دربه. لايرضون الدنية فى دينهم ولا المذلة فى دنياهم ولا الخزى فى آخرتهم فكانوا مثلا طيبا فى الشجاعة والقوة والإقدام والجرأة، يخوضون أقسى المعارك ويقتحمون لهيبها فى غير خوف ولا فزع، حتى ضربوا أروع الأمثال فى حروبهم مع رسولهم وبعد وفاته، وما أصدق ماقاله فيهم خالد لقائد الفرس فى موقعة ذات السلاسل: جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

وما أروع ماقاله عبادة بن الصامت وهو ينطق بلسانهم ــ للمقوقس: (إنا معكم على إحدى الحسنيين: إما ظفرنا بكم فعظمت لنا غنيمة الدنيا، وإما ظفرتم بنا فعظمت لنا غنيمة الآخرة، وإنها لأعظم الخصلتين إلينا بعد الجهاد منا، وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة، وقد استودع كل منا ربه، أهله وولده ــ وما أصدق ماقاله فيهم ربهم وهو أعلم بهم: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾.

٢٠ ــ حبه ﷺ للاستشهاد

إن القائد الذى يقبل على الجهاد برغبة صادقة ويخوض المعارك وقد باع الحياة الدنيا بالآخرة قائد ارتفع عن الدنيا وما فيها فلا يبالى أيقع على الموت أم يقع الموت عليه، مثل هذا القائد يكون قدوة طيبة لجنوده، ومثلا أعلى لهم فينفخ فيهم من روحه ويجذبهم إلى الكمال بعمله وكفاحه فيقبلون معه على المعركة وقد تركوا الدنيا وراءهم لايفكرون إلا فى لقاء ربهم بأفضل أعمالهم، وكأن لسان حالهم يقول:

ركضــا إلــى الله بغيـر زاد — إلا التقــى وعمــل المعــاد
وبالصبر فى الله على الجهاد — وكــل زاد عرضــة للنفــاد
غير التقى والبر والرشاد

فهؤلاء المجاهدون لايقف أمامهم عدو مهما يكن عدده وعتاده، ولا تصمد أمامهم قوة مهما عظمت وإن تكن الدنيا كلها، لأن الله معهم بقوته وعونه وقوة الله لايقف أمامها شىء فهو القائل: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون**﴾.

كذلك كان رسول الله ﷺ وقد عبر عن ذلك فقال: «والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية[1] تغزو فى سبيل الله أبدا، ولكن لاأجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى، والذى نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل، ثم

١ ــ السرية: القطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو.

أغزو فأقتل» رواه مسلم.

ويدل على ذلك أنه ﷺ فى حروبه كلها كان يتقدم جنوده ويكون أقربهم إلى العدو ولا يفكر فى الهزيمة أو التقهقر مهما تشتد الحرب ويشتعل لهيبها، ولذلك نصره الله فى كل غزواته. وقد شجع الله المؤمنين على الغزو، ورغبهم فى الاستشهاد بقوله: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب[2] ولا مخمصة[3] فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون**﴾[4].

وقد سرت هذه الروح فى نفوس أصحابه (ض) فكانوا إذا اشتدت الحرب، وحمى وطيسها وأحسوا أنهم أمام معركة طاحنة تسابقوا فى المبايعة على الموت فلا تتم البيعة حتى يكون النصر، ففى الحديبية حينما تفاقم الخطب وصممت قريش على عودة الرسول ﷺ بلا عمرة أو الحرب، دعا ﷺ أصحابه إلى المبايعة على الموت فدفعتهم عزة الإيمان إلى التسابق فى مبايعته ﷺ ولم تكد تتم البيعة حتى بدل الله خوفهم أمناً وغطرسة قريش وجبروتها خوراً وجبناً، وتم الصلح فى عزة وكرامة ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً**﴾.

واقتدى المؤمنون فى حروبهم بما فعله ﷺ فى الحديبية فكانوا إذا اشتدت الحرب وأحسوا أنهم أمام هزيمة وشيكة الوقوع تنادوا بالمبايعة على الموت فلا تتم البيعة حتى تتحول المعركة إلى نصر ساحق لاتمنعه كثرة العدو وعتاده ولا قلة المؤمنين وضعفهم المادى مهما يكن الأمر كما حدث فى اليمامة حينما تنافسوا فى النداء بالموت وتنادوا بالثبات والصبر. وفى اليرموك حينما بايعوا عكرمة على الموت وفى عين جالوت حينما بايعوا صامتين سلطانهم، وانطلقوا مستميتين فى معركتهم.

١ — آل عمران ١٦٩: ١٧١. ٢ — تعب. ٣ — مجاعة. ٤ — التوبة ١٢٠، ١٢١.

فالقائد البطل الذى يحرص على النصر فى معاركه هو الذى يترفع عن الدنايا ويعرض عن الدنيا بحذافيرها، ويكون كما كان ﷺ أمام جنوده فى حومة الوغى وكما كان قواد المسلمين من بعده، يرفع من معنوياتهم ويشد من عزائمهم ويكون له الحظ الأكبر فى تحقيق النصر بإذن الله. قال خالد فى رسالة له إلى الصديق (ض): (ولقد اقتحمت فى طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت) وقال فى أخريات عمره: (ماليلة يهدى إلىّ فيها عروس أنا لها محب، أو أبشر فيها بغلام أحب إلىّ من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو. فعليكم بالجهاد).

وقد أعطانا طارق بن زياد مثلاً طيباً فى البطولة والإقدام فحينما عبر البحر لفتح الأندلس بجيش صغير ووصل خبره إلى لذريق ملك القوط فأقبل لمحاربته بجيش جرار فخاف طارق أن يستولى الرعب على جنده لقلتهم، فأحرق السفن التى نقلته حتى يقطع من قلوبهم كل أمل فى العودة، وقام فيهم خطيباً يشجعهم على القتال ويبسط لهم فى الآمال فقال: أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس ثم —والله— إلا الصدق والصبر فإنهما لايغلبان، وهما جندان منصوران، ولا تضر معهما قلة ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة.

أيها الناس، مافعلت من شيء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا وإن وقفت فقفوا ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال، ألا وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لاأتهيبه حتى أخالطه أو أقتل دونه، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم فتتبددوا بين قتيل وأسير وإياكم أن ترضوا بالدنية وتعطوا بأيديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة، وما قد حل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تُفَلُّوا(١) —والله معكم ومعينكم— تبوءوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى. ثم حمل وحملوا معه فقتل القائد، واستمرت المعركة مشتعلة اللهيب والسلاح يضرب حتى نصر الله قلة المؤمنين القليلة على جحافل الكفر الكبيرة بفضل شجاعة طارق وجرأته وحبه للاستشهاد التى اقتبسها من الرسول

١ — تغلبوا: وتهزموا.

وهديه وبثها فى جنده.

وهكذا كان رسول الله ﷺ مثلاً أعلى فى كل شىء، وقائداً فذاً أحاط بمبادىء القتال ووسائل النصر وكان سلوكه فى حروبه تطبيقاً عملياً لها، فلم يهزم فى معركة ولم تقعد به مبادئه عن النصر، بل أتم الله عليه نعمته ونصره فى جميع غزواته نصراً عزيزاً كريماً وصدق الله: ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً**﴾ وقد عرضت بعض مبادئه التى اتبعها ﷺ فى غزواته وسار عليها أصحابه من بعده واتبعها قواد المسلمين بعدهم فى معاركهم وحروبهم فكان النصر حليفهم. وكيف لايكون وهم يستمدونها من القائد الملهم والمجاهد الأكبر محمد ﷺ رسول الإنسانية ومعلم البشرية. فحبذا لو اتبعناه واهتدينا بهداه حتى ينصرنا الله، فهو نعم المولى ونعم النصير.

* * *

الباب الثالث

التعبئـــة الروحيـــة

فـى
ضـوء الآيات القرآنيــة
التى نزلـت فى غـزوة أحـد

التعبئة الروحية

يقصد بالتعبئة الروحية تهيئة الأمة روحياً ونفسياً للمعركة، وملء نفوسها بالأمل فى النصر وذلك عن طريق التربية الروحية والإعداد المعنوى والإيمان بأن الله مع المؤمنين حقاً. وتنمية الوازع الدينى فى المجتمع حتى يكون خيّراً فاضلاً يحشد كل قواه وطاقاته من أجل المعركة ويجتنب رذيلة الشح، وحب استغلال المال استغلالاً حراماً، والإثراء على حساب الشعب الكادح خاصة أثناء المعارك والأزمات كما يجتنب المعاصى والآثام واليأس من النصر بسبب انتصار العدو عليه فى معركة سابقة، أو تفوق للعدو فى شيء ليس فى إمكانه الحصول عليه. فإن الله سيجبر بفضله هذا القصور، والحرص على الانسجام التام بين القادة والجنود والرؤساء والمرءوسين وملء نفوس المقاتلين بحب الجهاد والرغبة فى الاستشهاد والصبر والثبات عند اشتداد الأزمات وعدم التأثر بكلام المثبطين والمعوقين، وباستشهاد الأبطال، لأن ماعند الله خير لهم وأبقى، والإيمان بأن لكل أجل كتاباً وأن كل شيء عند الله بمقدار، وبعث الطاقات الكامنة فى نفوس المؤمنين ضد العدو والمعتدين الظالمين ببيان ظلمه ومساوئه ونقط الضعف فيه ودراسة المواقف الحميدة للسابقين والتعرف على بطولات المحاربين للاقتداء بهم.. إلخ.

والآيات التى نزلت فى غزوة أحد وعددها ٥٩ آية من سورة آل عمران تبدأ من آية ١٢١ إلى ١٧٩ قد تضمنت ذلك وغيره لأنها نزلت فى موقعة مهمة حصل فيها تقصير من بعض الجنود، فابتلاهم الله وعرفهم سبب ماوقع وعلاجه، وبيّن لهم المبادىء التى تكفل لهم النصر بإذن الله. وسأعرض هذه الآيات مع التعليق عليها تفصيلاً فى البعض وإجمالاً فى البعض الآخر لتكون الحقيقة واضحة، ولنأخذ منها الهدى والموعظة وبالله التوفيق.

عرض الآيات التى نزلت فى غزوة أحد

ففى الآية ١٢١ بين سبحانه وتعالى تخطيط الرسول ﷺ للمعركة تخطيطاً

محكماً فقال: ﴿**وإذْ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم**﴾.

فقد سلك ﷺ إلى أحد أقرب الطرق وأخفاها على العدو وعسكر فى أحسن موضع وهو الشعب (الوادى) وجعل ظهر عسكره إلى الجبل وجعل الرماة من ورائهم يحمون ظهور المقاتلين ويصدون الخيل بالنبل إلى نحو ذلك من الأسباب التى تمكنه من الظهور على عدوه والغلبة عليه، وقد تقدم شرح هذه الآية تفصيلاً فى تخطيطه ﷺ لمكان المعركة.

وفى الآية ١٢٢ يقول تعالى: ﴿**إذْ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾. فقد بين سبحانه أن طائفتين من جنده ﷺ وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وكانتا جناحى عسكره ﷺ همتا أن تضعفا وتجبنا عن القتال حين رأوا انخذال عبدالله بن أُبىّ عن رسول الله ﷺ فدفع الله عنهما ذلك برحمته حتى سلمتا من الضعف والجبن ولحقتا بنبيهما ﷺ ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ فى دفع مايعرض لهم من جزع أو مكروه، ولا يعتمدوا على حولهم وقوتهم ولا على أنصارهم وأعوانهم.

وفى الآية ١٢٣: ١٢٥ يقول تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين**﴾. من فورهم هذا: من وقتهم هذا بدون إبطاء. مسومين: أى مغيرين وهاجمين، تقول العرب سوم فلان على القوم إذا أغار عليهم وفتك بهم، وقيل معلمين أنفسهم أو خيلهم.

والمعنى: أن الله يقول فى الآية ١٢٣ ولقد نصركم الله فى بدر وأنتم قليلون ضعاف لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لابكثرة العدد والعتاد كما قال تعالى: ﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً**﴾ الآيات. فاتقوا الله ربكم بطاعته واجتناب نواهيه لتقوموا بشكره فيزيدكم من نعمه ونصره.

وفى الآية ١٢٤، ١٢٥ يقول: واذكر يامحمد وقت قولك للمؤمنين يوم أحد وقد رأوا العدو يفوقهم وانخذل عنهم عبدالله بن أُبىّ وأصحابه: ألن يكفيكم إمداد

الله لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى يكفيكم الإمداد بهذا ومع ذلك إن تصبروا على الجهاد ونزال العدو، وتتقوا الله وتطيعوا نبيكم ولا تتنازعوا ولا تختلفوا على الغنائم ويأتيكم المشركون من ساعتهم هذه بسرعة يعجل الله نصركم وييسر أمركم ويمدكم بخمسة آلاف من الملائكة مرسلين فاتكين بالعدو.

قال الفخر الرازى: أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر، وأنهم قاتلوا الكفار. وقال ابن عباس(ض) لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر، وفيما سواه كانوا عدداً ومدداً، لايقاتلون ولا يضربون.

والظاهر والله أعلم أن الله لم يمد المؤمنين بالملائكة فى غزوة أحد إذ لو أمدهم لهزموا الكفار من فورهم فقد وعد النبى ﷺ المؤمنين أن الله سيمدهم بثلاثة آلاف، بل خمسة آلاف إن صبروا واتقوا ولكن لم يتحقق الشرط، وخالفوا النبى ﷺ.

وفى الآية: ١٢٦: ١٢٩ يقول الله تعالى: ﴿**وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ولله مافى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم**﴾. يقطع: يهلك. طرفاً: جماعة من أشراف الكافرين. يكبتهم: يذلهم ويغيظهم. وجملة (ليس لك من الأمر شىء) معترضة بين المتعاطفات نزلت لما كسرت رباعيَّته ﷺ وشج وجهه يوم أحد وقال: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم.

والمعنى: أن الله ماجعل الإمداد بالملائكة إلا بشرى لكم بالنصر وتطييباً لقلوبكم وتطميناً وإلا فإنما النصر من عند الله ليس بكثرة المقاتلة وجودة العتاد، إذ لو شاء الله لانتصر من أعدائه بدونكم ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره للمؤمنين بالقتال: ﴿**ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم. يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم**﴾[1] والذى عنده النصر هو العزيز

١ ــ محمد ٤: ٨.

الذى لايمتنع عليه شيء، الحكيم الذى يدبر الأمور على خير السنن وأقوم الوسائل، فيجب التوكل على الله لاعلى الملائكة ولا على غيرها من الأسباب، بل على مسبب الأسباب ورب الأرباب فإنه لايعجزه إجابة الدعوات وتفريج الكربات.

وقوله تعالى: ﴿**ليقطع طرفاً من الذين كفروا**﴾...إلخ.

أى يهبكم الله النصر ليهلك جماعة من أشراف الكافرين ورؤسائهم بالقتل والأسر، أو يذلهم الله ويغيظهم بالهزيمة فيرجعوا خائبين لم ينالوا ماراموه، أو يتوب عليهم إذا أسلموا ورجعوا إلى الله أو يعذبهم فى الآخرة إذا أصروا على الكفر والشقاق، فإنهم ظالمون لأنفسهم، وأما أنت يامحمد فليس لك من الأمر شيء فإنما عليك البلاغ والصبر وعلى الله الحساب، فلا تتألم منهم وتدع عليهم فربما يتوب بعضهم فيتوب الله عليه وقد حصل ذلك فعلاً فتاب بعضهم وأسلم. ولله مافى السموات وما فى الأرض خلقاً وملكاً وتصريفاً يغفر لمن يشاء أن يغفر له حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ويعذب من يشاء بعمله كذلك.

وفى الآية ١٣٠: ١٣٢ يقول تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون. واتقوا النار التى أعدت للكافرين. وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون**﴾.

المعنى: أن الله تعالى يحذر عباده من استغلال المال استغلالاً حراماً ومن أكل السحت والإثراء على حساب الكادحين خاصة أثناء المعارك والأزمات. وكان المدين فى الجاهلية يقول للدائن إذا حل الدين أجل المطالبة نظير أن أزيدك وبطول الزمن يتضاعف الدين وهذا هو الربا المضاعف.

وقوله تعالى: ﴿**لاتأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة**﴾ لتقبيح الصورة التى كانت موجودة والتشنيع عليها، لالحل الربا البسيط، فالآية ٢٧٥ من سورة البقرة التى نزلت بعد هذه تفيد تحريم الربا مطلقاً حيث يقول الله فيها: ﴿**الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾ الآية. وكذا آية ٢٧٨، ٢٧٩ من نفس السورة يقول الله فيهما: ﴿**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ أى وأطيعوا الله لعلكم تنجون مما حذركم الله من عذابه وتدركون مارغبكم فيه من ثوابه والنصر على أعدائه، وتقدمون أموالكم ابتغاء مرضاته للجهاد فى سبيله ﴿**وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون**﴾ فى الدنيا والآخرة وتنتصرون على أعدائكم فما ابتلى الله المؤمنين فى أحد إلا بسبب عصيان بعضهم لأوامر رسولهم.

وفى الآية ١٣٣ : ١٣٦ يدعو الله هذه الأمة إلى الخير والكمال الإنسانى فيأمر المؤمنين بالتسابق والمسارعة إلى مغفرة الله العظيمة وجنته الواسعة التى أعدها للمتقين، الذين يجتنبون المنهيات ويعملون الصالحات، ويتنافسون فى مكارم الأخلاق وحميد الصفات وإنفاق الأموال فى الخيرات، والتوبة من الذنوب والسيئات حتى يحقق الله لهم النصر فى أقرب الأوقات ويدخلهم جنة عرضها الأرض والسموات.

فيقول تعالى: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين**﴾.

وفى الآية ١٣٧ يقول تعالى: ﴿**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾.

هذه آية كريمة من آيات ربنا الحكيمة تدعم إيماننا بربنا وتزيدنا يقيناً واعتصاماً بديننا وتبين لنا أن لله سنناً فى خلقه لاتتبدل ولا تتغير من سار عليها سعد وانتصر، ومن حاد عنها وكذب بها ضل واندحر.

﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التى لم يخلق مثلها فى البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذى الأوتاد. الذين طغوا فى البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد**﴾[1]

---
١ ــ الفجر ٦ : ١٤ .

ألم تر كيف فعل ربك بالمغول الذين اكتسحت جحافلهم الشرق، وكادت تميد من جبروتهم الأرض، ونشروا الفساد والدمار حيثما حلوا وملأ طغيانهم الجو إعصاراً والقلوب رعباً، لقد اختفت امبراطوريتهم الكبيرة وأصبحوا دولة صغيرة فى شمال شرق آسيا؟ ألم تر كيف فعل ربك بألمانيا الهترلية التى فتكت بالبشرية ودمرت المدنية، وبالدول الاستعمارية التى استعبدت غيرها من الدول الصغيرة واستنزفت ثرواتها وابتزت خيراتها، كيف ضاع نفوذها وغابت شمسها؟ **﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾**(1). وما علينا إلا أن نسير فى الأرض، وندرس أخبار الظلم والظالمين فنأخذ العبرة من الأمم التى ضلت طريقها وكذبت بآيات ربها فهلكت وأصبحت أثراً بعد عين.. وأعداؤنا اليوم يحملون جرائيم الهلاك والدمار ناسين أن ماحل بالظالمين من قبل، غداً واقع بهم فعلينا ألا نهاب الظالمين وألا نخشى المعتدين وحسبنا الله ذو القوة المتين.

وفى الآية ١٣٨ يقول تعالى: **﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾** هذا الذى تقدم بيان للناس كافة ليسيروا على ضوئه ويهتدوا بهديه. وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصة لأنهم الذين يستفيدون من سنن الله والسير فى أرضه، وتدبيره لأمور كونه.

وفى الآية ١٣٩ يقول تعالى: **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾**.

وهذه آية أخرى من كتاب ربنا تقوى عقيدتنا فى النصر على أعدائنا وتزيدنا شجاعة وقوة فى نضالنا وجهادنا وتدفعنا إلى العمل بجد وحزم وجلد وصبر حتى يتحقق لنا النصر، وتحتم علينا فى كفاحنا ألا يخطر اليأس على قلوبنا وألا يتسرب الوهن إلى نفوسنا وألا نسمع لإذاعة أعدائنا فتضعف عزائمنا، فنحن العالون والمنتصرون عليهم مادمنا مؤمنين حقاً بربنا وعاملين بتشريعات ديننا.

وفى الآية ١٤٠، ١٤١ يقول تعالى: **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾**.

١ـ هود ١٠٢.

وهذه باقة كريمة من آيات الله الحكيمة تدفعنا إلى تحمل المشاق مهما تكن والأزمات مهما تشتد فإن يصبنا جهد وتعب أو يقتل بعضنا فلا يضعف ذلك من عزمنا ولا يقعد بنا عن المضى فى نضالنا وإتمام جهادنا فقد مس الأعداء مثله بل أشد، وعند الشدائد يظهر الإيمان ويتضح إخلاص المؤمنين للرحمن فى كل مكان وزمان.

والحروب كما جرت سنة الله ليست نصراً دائماً فى جميع الجولات ولكن العاقبة فيها دائماً لأصحاب الحق المؤمنين به والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس فى الدفاع عن هذا الحق. الذين لايهمهم تهديد ولا يخيفهم وعيد ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾.

فالرسول ﷺ وصحبه إذا كانوا قد ابتأسوا فى معركة أحد بسبب مخالفة بعض جنوده لتعليماته فإنهم انتصروا فى غيرها من المعارك انتصاراً ساحقاً واستفاد أصحابه من موقعة أحد دروساً قيمة انتفعوا بها فى مستقبلهم والمسلمون بعد وفاته ﷺ فى معاركهم مع الفرس هُزموا فى معركة الجسر بسبب مخالفة القائد أبى عبيدة بن مسعود الثقفى لرأى مستشاريه وانتصروا فيما قبلها وما بعدها. ولم ينتصر أول جيش خرج لغزو الروم بقيادة خالد بن سعيد ولكن الجيوش التى غزت الروم بعده حالفها النصر حتى النهاية.

فالهزيمة فى معركة أو معارك بسبب خطأ أو تقصير ليس معناها الفشل الذريع، فقد انتصر خالد على مسيلمة الكذاب بعد أن هزم مسيلمة جيشين للمسلمين، وانتصر المسلمون على التتار فى موقعة عين جالوت نصراً حاسماً بعد أن غطت انتصاراتهم الأرض من شرق آسيا حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط، بعد أن أخربوا البلاد وأبادوا العباد، وعثوا فى الأرض الفساد وملئوا الأرض جيوشاً والدنيا خوفاً ورعباً.

وهزم الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية هزائم ساحقة فى دنكرك سنة ١٩٤٠م وفى اليونان وكريت سنة ١٩٤١م وفى عدة معارك بليبيا واجتاح رومل طبرق فى يونية سنة ١٩٤٢م وأسر ثلاثين ألف جندى وفى يناير سنة ١٩٤٢م أغرق العدو لهم بارجتين ضخمتين.

وفى فبراير سنة ١٩٤٢م استسلمت سنغافورة مع ٧٥ألف جندى، وفى مارس وأبريل سنة١٩٤٢م فشلت حملة بورما الأولى.

وفى يونيه سنة ١٩٤٢م أرغم روميل الجيش الثامن على الانسحاب أمامه إلى العلمين، وغير هذا كثير، ومع تلك الهزائم وغيرها انتصر الحلفاء فى موقعة العلمين وما بعدها. فالهزيمة كثيراً ماتؤدى إلى تدارك الأخطاء التى سببتها. قال جورج واشنطن: إنما الهزيمة عامل يحفز الهمم. ثم لماذا نتألم من الحرب ولا يتألمون ونبكى على قتلانا ولا يبكون، ونحن نرجو من الله مالا يرجون **﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾**[1] إن قتلانا الذين استشهدوا دفاعاً عن الحق وعزة الإيمان أحياء عند ربهم يرزقون **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾** وقتلاهم فى النار، لأنهم ماتوا دفاعاً عن الظلم والعدوان، إن قتلانا باستشهادهم فى سبيل الله وذوداً عن الحق قد وصلوا إلى درجة عالية ومنزلة سامية دونها كل المنازل، **لقد دفعتهم الشهادة إلى أعلى الجنان** مائة درجة مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض، **﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾**[2].

وروى البخارى[3] أن أم الربيع بنت البراء وهى أم حارثة بن سراقة، أتت النبى ﷺ فقالت: يانبى الله، ألا تحدثنى عن حارثة، وكان قتل يوم بدر — أصابه سهم غرب — فإن كان فى الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء؟ قال: (ياأم حارثة إنها جنان فى الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى).

وبعد هذا فإن الله لايحب الظالمين الذين يعتدون على حقوق الناس ولا ظلم أبشع وأشد من طرد الإنسان من وطنه واحتلال مكانه واغتصاب أمواله وانتهاك شعائر الله ومقدساته، وإذا كان الله لايحب الظالمين فإنه يحب المؤمنين فلا يتركهم ليقضى عليهم أعداؤهم.

وإذا كان الله يداول الأيام بين الناس ليميز بين المؤمنين والمنافقين وليكرم من أكرم من أهل الإيمان بالشهادة فإنه يداولها ليختبر الذين آمنوا ويطهرهم من كل

١ — النساء ١٠٤. ٢ — النساء ٩٥، ٩٦. ٣ — فى جـ ٤ صـ ٧٥.

عيب بالبلاء الذى نزل بهم، ويظهر كيف صبرهم ويقينهم وثباتهم مع الحق وتفانيهم فيه، وليمحق الكافرين ويبطل من المنافقين قولهم بألسنتهم ماليس فى قلوبهم حتى يظهر منهم كفرهم الذى يستترون به، فالكافرون إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم، والمنافقون لأنهم لايقين ولا دين عندهم ولا يتحملون الشدائد وسرعان مايظهرون كفرهم ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة**[1] **انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين**﴾[2] .

وفى الآية ١٤٢، ١٤٣ يقول تعالى: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ولقد كنتم تمنَّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون**﴾. أى لايحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين فى سبيله والصابرين على مقاومة الأعداء، وقد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون إليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذى تمنيتموه وطلبتموه فدونكم فقاتلوا وصابروا فقد قال ﷺ: (أيها الناس لاتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) رواه الشيخان عن عبد الله بن أبى أوفى[3] .

وفى الآية ١٤٤ يقول تعالى: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين**﴾.

أى إن محمداً ليس إلا بشراً قد مضت الرسل قبله مات بعضهم وقتل بعضهم، أفإن مات محمد كما مات موسى وعيسى وغيرهما من النبيين أو قتل كما قتل زكريا ويحيى، تنقلبوا على أعقابكم وترجعوا عما كنتم عليه؟ والرسول ﷺ ليس مقصوداً لذاته بل المقصود ماأرسل به من الهداية التى يجب على الناس اتباعها. قال أنس بن النضر يوم أحد حين انتشر فى الناس أن الرسول ﷺ قد قتل: (إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ماقاتل عليه، وموتوا على مامات عليه).

---

١ ـ ابتلاء ومحنة .   ٢ ـ الحج ١١ .   ٣ ـ اللؤلؤ ٢ / ٢٠٢ .

ومن ينقلب فيرجع عن جهاده ومكافحته الأعداء فلن يضر الله شيئاً بما فعل بل يضر نفسه بتعريضها لسخطه وعذابه، وحرمانه من الثواب والله قد وعد بنصر من ينصر دينه ويعزه وهو لامحالة منجز وعده.

وقد أعطانا الله فى هذه الآية درساً قيماً، فإذا كنا نجاهد فى سبيل الله لرد حق مغتصب أو دفاعاً عن وطن مغتصب وحرية ضائعة وكرامة مهدرة فلا ينبغى لنا أن نضعف أو نتزلزل إن سقط منا شهداء أو مات منا عظماء فكلهم دون خاتم الأنبياء ﷺ.

وفى الآية ١٤٥ يقول الله تعالى: ﴿**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين**﴾.

أى ليس من شأن النفوس أن تموت بغير إذنه تعالى ومشيئته فقد كتب الله الموت على كل نفس كتابا موقوتا بأجل محدود لايتقدم ولا يتأخر، فكثير من الناس يتعرضون لأسباب المنايا بخوض غمرات الحروب أو يتعرضون لعدوى الأمراض أو يتصدون لأفاعيل الطبيعة وهم مع ذلك لايصابون بالأذى فالشجاع المقدام قد يسلم فى الحرب ويقتل الجبان المتخلف ويفتك المرض بالشاب القوى ويترك الضعيف الهزيل فللأعمار آجال وللآجال أقدار لاتتخطوها وإذا كان محيانا ومماتنا بإذن الله فلا محل للخوف والجبن ولا عذر فى الوهن والضعف وما أروع قول عنترة العبسى:

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حى ... فداعيه لأهل الأرض داع

وما أعظم ماقاله خالد بن الوليد وهو يموت على فراشه: لقد شهدت مائة زحف أو تزيد، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء.

وفى ابن كثير(١) قال حجر بن عدى: مايمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه

١ـ جـ ١ صـ ٤١٠.

النطقة ــ يعنى دجلة ــ **﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا ﴾** ثم أقحم فرسه بدجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رآهم العدو قالوا: ديوان[1] فهربوا.

وقوله تعالى: **﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾** أى من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ماقدره الله له ولم يكن له فى الآخرة من نصيب ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وما قسم له فى الدنيا كما قال تعالى: **﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب﴾**[2] وقال تعالى: **﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا﴾**[3] ولذا قال ههنا **﴿وسنجزى الشاكرين﴾** أى سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم.

ثم ينطلق القرآن مشعلا جذوة الإيمان فى قلوبنا دافعا لنا إلى التأسى بغيرنا والتمسك بديننا والاستماتة فى الدفاع عن حقوقنا وفى سبيل العزة الإسلامية والكرامة الإنسانية فيقول: فى آية ١٤٦: ١٤٨: **﴿وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين. وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾**.

المفردات: كأين: كثير. الربيون: هم الربانيون، مفردها ربى بكسر الراء: منسوب إلى الله مباشرة لأنه شديد التمسك بطاعته تعالى. فما وهنوا: فما ضعفوا، وما استكانوا: وما خضعوا لعدوهم يفعل بهم مايريد. وإسرافنا فى أمرنا: تجاوزنا حدود ماشرعته لنا.

والمعنى: أن كثير من النبيين الذين خلوا قد قاتل معهم كثير ممن آمن بهم واعتقد أنهم هداة ومعلمون، لأرباب معبودون، فما وهنوا ولا جبنوا لما أصابهم

١ــ كلمة فارسية تدل على الفعل، وفى البداية لابن كثير ٦/٢٦ ديوان ديوان.

٢ــ الشورى ٢٠. ٣ ــ الإسراء ١٨، ١٩.

فى سبيل الله من الجراح وقتل أنبيائهم وأصحابهم، وما ضعفوا عن الجهاد، وما استكانوا وخضعوا وذلوا لعدوهم، بل صبروا وصابروا والله يحب الصابرين فينصرهم ويعزهم.

وما كان قولهم أثناء الشدة والمحنة إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا فى أعمالنا وإسرافنا فى أمرنا وتجاوزنا الحد الذى رسمته لنا وثبت أقدامنا بتقويتنا على الجهاد، ونصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وهو النصر والغنيمة وحسن ثواب الآخرة وهو أعلى الجنان، وأعطاهم من الأجر فوق مايستحقون تفضلا منه وإحسانا والله يحب المحسنين الذين يؤدون ماأمرهم الله به كما شرعه لهم ويأتون به على خير وجه وأكمله.

وتنطلق الآيات التى نزلت فى غزوة أحد فتدفعنا إلى الثبات على مبدئنا من التقوى والإيمان والتفانى فى عقيدتنا وتحذرنا من طاعة الكافرين والمنافقين فإن طاعتهم تورث الردى فى الدنيا والآخرة فيقول تعالى فى آية ١٤٩: ١٥١.

﴿يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين. بل الله مولاكم وهو خير الناصرين. سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾.

والمعنى: يأيها المؤمنون إن تطيعوا الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد ﷺ فتقبلوا رأيهم وتسمعوا نصحهم فيما يزعمون أنهم لكم ناصحون، يحملوكم على الردة بعد الإيمان والكفر بالله وآياته ويرجعوكم عن إيمانكم ودينكم الذى هداكم الله له خاسرين الدنيا والآخرة أما خسران الأولى فبخضوعكم لسلطانهم وذلتكم بينهم وحرمانكم من السعادة والملك والتمكين فى الأرض، وأما خسران الثانية فيما يصيبكم من العذاب الأبدى فى النار وبئس القرار.

فعليكم بطاعة الله وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فإنكم إن فعلتم ذلك فإن الله سبحانه سيلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب والخوف منكم والذلة لكم بسبب كفرهم وشركهم مع ماادخره لهم فى الدار الآخرة من العذاب والنكال فقد قال ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة

فليصل، وأحلت لى الغنائم وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة» رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله[1] .

وفى قوله تعالى: ﴿**بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا**﴾ وقوله ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**» بشرى عظيمة للمؤمنين الثابتين على إيمانهم والقائمين بتعاليم ربهم فى كل زمان ومكان بأن الله معهم يتولاهم ويرعاهم وينصرهم على أعدائهم ويلقى الرعب والخوف فى قلوبهم فينهزمون أمام المؤمنين ويذلون لهم.

وهكذا أيها المؤمنون تتوالى الآيات مبينة أنه إذا تمسك أهل الحق بحقهم وصبروا وصابروا فى الدفاع عنه فإن انتصار الحق أمر لابد منه وغلبة أهله على غيرهم فى نهاية المطاف قانون لازم محتم، يؤكد ذلك الرسول الكريم ﷺ فيقول: «واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا» أخرجه رزين[2] .

وفى الآية ١٥٢ : ١٥٤ بين سبحانه ماحصل للمسلمين فى أحد وسببه وموقفهم منه فقال تعالى: ﴿**ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غمًّا بغم لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ماأصابكم والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم والله عليم بذات الصدور**﴾.

المفردات: تحسونهم: تستأصلونهم بالقتل، من قولهم جراد محسوس إذا قتله البرد، فكأن القاتل أبطل حسه بالقتل. بإذنه: بعونه وتأييده. فشلتم: ضعفتم. فى

١ ــ اللؤلؤ ١/١٠٤ .   ٢ ــ تيسير ٣/٣٧٥ .

الأمر: أى أمر الحرب. صرفكم عنهم: كفكم عنهم حتى تحولت الحالة من الغلبة إلى ضدها. ليبتليكم: ليختبركم، والمراد ليعاملكم معاملة من يختبر ويمتحن، وإلا فالله عالم لايحتاج إلى اختبار. تصعدون: تذهبون فى الأرض وتبعدون من أصعد بمعنى أبعد فى الذهاب وأمعن فيه. ولا تلوون على أحد: ولا تلتفتون إلى أحد من شدة الهرب. فى أخراكم: فى جماعتكم المتأخرة التى وقفت تدافع عن النبى ﷺ فأثابكم: فجازاكم. الغم: ألم وضيق فى الصدر من الأمر الذى لايدرى الخلاص منه. أمنة: الأمنة والأمن سواء وهما ضد الخوف. يغشى: يغطى ويستر. لبرز: لخرج. إلى مضاجعهم: إلى مصارعهم التى يصرعون فيها.

ماحصل فى أحد..!

روى بن جرير عن السدى قال: لما برز رسول الله ﷺ إلى المشركين بأحد أمر الرماة فقاموا بأصل الجبل فى وجوه خيل المشركين وقال لهم: لاتبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم فإنا لن نزال غالبين ماثبتم مكانكم، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، ثم إن طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين قام فقال: يامعشر أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة، أو يعجلنى بسيفه إلى النار؟ فقام إليه على بن أبى طالب فقال: والذى نفسى بيده لاأفارقك حتى يعجلك الله بسيفى إلى النار أو يعجلنى بسيفك إلى الجنة فضربه على فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته فقال: أنشدك الله والرحم يابن عم، فتركه، فكبر رسول الله ﷺ وقال أصحاب على له: مامنعك أن تجهز عليه؟ قال: إن ابن عمى ناشدنى حين انكشفت عورته فاستحييت منه ثم شد الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم، وحمل النبى ﷺ وأصحابه فهزموا أبا سفيان فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين حمل فرمته الرماة فانقمع.

ثم لما نظر الرماة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فى جوف عسكر المشركين ينتهبونه بادروا إلى الغنيمة فقال بعضهم: لانترك أمر رسول الله ﷺ فانطلق عامتهم فلحقوا بالعسكر — فلما رأى خالد قلة الرماة صاح فى خيله ثم حمل على أصحاب النبى ﷺ فلما رأى المشركون أن خيلهم تقاتل تنادوا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوا منهم نحو سبعين. أهـ.

سبب النزول: روى الواحدى عن محمد بن كعب قال: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة — وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد — قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى بالنصر؟ فأنزل الله ﴿**ولقد صدقكم الله وعده**﴾ الآية.

معانى الآيات الكريمة

أى والله لقد وفى ربكم بوعده الذى وعدكم على لسان رسول الله ﷺ من النصر على العدو حين تقتلونه قتلا ذريعا بتيسير الله ومعونته، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم بالنصر يومئذ إن انتهوا إلى أمره، نعم صدقكم الله وعده حتى ضعفتم فى الرأى والعمل فلم تقووا على حبس أنفسكم عن الغنيمة فقال بعضكم: مابقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون؟ وقال آخرون: لانخالف أمر الرسول ﷺ فانتهى النصر لأن الله تعالى إنما وعدكم النصر بشرط التقوى والصبر على الطاعة.

(منكم من يريد الدنيا) وهم الذين تركوا أماكنهم طلبا للغنيمة (ومنكم من يريد الآخرة) وهم الذين ثبتوا فى مكانهم من الرماة مع عبد الله بن جبيروهم نحو عشرة وكان الرماة قبلا نحو خمسين، ثم كفكم عنهم حتى تحولت الحرب ودالت الدولة، فعل هذا ليعاملكم معاملة من يمتحنكم ليستبين أمركم وثباتكم على الإيمان ويظهر الصادقون منكم من المنافقين. ولقد عفا الله عنكم بذلك الابتلاء والتمحيص الذى محا أثر الذنب من نفوسكم وتاب عليكم لما ندمتم على مافرط منكم إنه هو التواب الرحيم ذو الفضل العظيم على المؤمنين. صرفكم عنهم وقت أن ذهبتم منهزمين لاتلتفتون من شدة الدهشة التى عرتكم، والذعر الذى فاجأكم والرسول ﷺ يدعوكم فى جماعتكم المتأخرة ويقول: إلى عباد الله إلى عباد الله، أنا رسول الله — من يكر فله الجنة. فجازاكم الله غما وهما حين ابتلاكم بالهزيمة بسبب غم الحقتموه بالنبى ﷺ بعصيانكم أمره، ويصح أن يكون المعنى جازاكم الله غما متصلا بغم من الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ بعد الغم بالجرح والقتل وظفر المشركين بكم حتى صرتم من شدة الدهش يضرب بعضكم بعضا وفوات النصر والغنيمة، وما فعل بكم ذلك إلا ليعود كم تحمل الشدائد فإنها هى التى تخلق الأفراد والأمم، ولئلا تحزنوا على شىء فات، ولا ماأصابكم من عدوكم والله خبير بأعمالكم فمجازيكم عليها.

﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم﴾، روى عن الزبير رضى الله عنه أنه قال: لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف فأرسل الله علينا النوم والله إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ماأسمعه إلا كالحلم يقول: (لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا). ثم أنزل الله الأمن على القلوب والطمأنينة على النفوس بالنعاس حتى كان السيف يسقط من يد أحدهم فيأخذه فعن أبى طلحة رضى الله عنه: غشينا النعاس ونحن فى مصافنا فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه وما من أحد إلا يميل تحت حجفته[1]، والنعاس فى هذه الحالة نعمة من نعم الله، وحد فاصل بين حالتى الأمن والخوف. هذا النعاس قد غشى طائفة من الناس. قال ابن عباس: هم المهاجرون وعامة الأنصار الذين كانوا على بصيرة فى إيمانهم.

﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾، أى وجماعة من المنافقين كمعتب بن قشير وأمثاله من أتباع عبد الله بن أبى لم يغشهم النعاس قد شغلوا بأنفسهم عن الرسول والدفاع عن الدين ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ أى يظنون غير الظن الحق الذى يجب أن يظنوه إذ كانوا يقولون فى أنفسهم لو كان محمد نبيا حقا ماسلط الله عليه الكفار. وهذا مقال لايقوله إلا أهل الشرك بالله، كما قال فى آية أخرى ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا﴾ الآية.[2] ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شىء﴾ أى يقول بعضهم على سبيل الإنكار هل لنا من النصر نصيب؟ يعنون أنهم ليس لهم من ذلك شىء، لأن الله سبحانه لاينصر محمدا (ص) فهم قد فهموا أن النصر، وحقية الدين متلازمان فما حدث فى ذلك اليوم دليل على أن هذا الدين ليس بحق، وهذا خطأ كبير، فإن نصر الله رسله لايمنع أن تكون الحرب سجالا والعاقبة للمتقين.

﴿قل إن الأمر كله لله﴾، أى قل لهم يامحمد: إن الأمر والنصر كله لله ولا يكون من غيره ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلى﴾[3]، ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾[4]، ومعنى قوله تعالى: ﴿يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك﴾ يضمرون فى أنفسهم مالا يستطيعون إعلانه لك، فهم يظهرون أنهم يسألون مسترشدين طالبين النصر بقولهم ﴿هل لنا من الأمر من شىء﴾ ويبطنون الإنكار

١ــ ترمه. ٢ ــ الفتح ١٢. ٣ ــ المجادلة ٢١. ٤ ــ الصافات ١٧٣.

والتكذيب ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا هاهنا**﴾ أى يقولون لو كان لنا من النصر والفوز نصيب ماقتلنا ها هنا. فهزيمتنا دليل واضح على أن النصر لن يأتى لنا وأن محمدا ليس نبيا فهم يربطون بين النبوة والنصر، وما علموا أن النصر من عند الله وتوفيقه، وأن الهزيمة من أعمالهم ومخالفتهم.

ثم أمر الله نبيهم أن يجيبهم بقوله: ﴿**قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم**﴾ أى لو كنتم فى بيوتكم وقد كتب عليكم القتل لخرج الذين كتب عليهم القتل إلى حيث يصرعون ويقتلون، فالحذر لاينجى من القدر، والتدبير لايقاوم التقدير والأمر كله بيد العلى القدير.

﴿**وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم**﴾ أى وقد فعل الله مافعل ليكون القتل عاقبة من انتهت آجالهم، وليمتحن مافى صدور المؤمنين من الإخلاص وعدمه، فيظهر ماانطوت عليه من ضعف وقوة ويمحص مافى قلوبهم من وساوس الشيطان ويطهرها حتى تصل إلى الغاية القصوى من الإيقان ﴿**والله عليم بذات الصدور**﴾ أى عليم بالأسرار والضمائر التى فيها فهو الغنى عن الابتلاء والاختبار وفى الآية ١٥٥ يقول الله تعالى: ﴿**إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم**﴾ استزلهم الشيطان: أوقعهم فى الزلل والخطأ. ببعض ماكسبوا: بسبب بعض الذنوب التى اقترفوها فمنعوا من التأييد الإلهى.

والمعنى: إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان من المشركين والمسلمين فى أحد وتركوا أماكنهم أو تولوا منهزمين إنما أوقعهم الشيطان فى هذا الخطأ بسبب بعض أفعالهم السابقة فإن الذنب الذى يفعله الإنسان يترك نكتة سوداء فى القلب يرتكز عليها الشيطان فينفذ منها إلى الإنسان ويوحى إليه بالسوء. ولقد عفا الله عنهم لما تابوا إليه وأنابوا، وكانت عقوباتهم فى الدنيا جوابر لهم، إن الله غفور للذنوب حليم لايعاجل بالعقوبة.

عدم التأسى بالكفار فى الأقوال والأفعال

وفى الآية ١٥٦: ١٥٨ يقول الله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا**

عندنا ماماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ .

المفردات : المراد بالذين كفروا هنا : المنافقون كعبد الله بن أبى وأصحابه ، ضربوا فى الأرض : سافروا فيها للتجارة والكسب . لإخوانهم : لأجل إخوانهم أى فى شأنهم ، والمراد بالأخوة ماهو أعم من أخوة النسب والدين والمودة . غزى : جمع غاز وهو المقاتل فى الحرب . حسرة : ندامة فى قلوبهم .

المعنى : فى هذه الآيات يبث الله فى المؤمنين روح التضحية والعمل والكفاح فى سبيل الله فيحذرهم من المنافقين والمعوقين عن الخير الذين يقولون فى شأن إخوانهم فى الدين والرأى حين يسافرون للتجارة والكسب أو يجاهدون فى سبيل الله فيموتون أو يقتلون لو كانوا عندنا لم يبرحوا مكانهم ماماتوا وما قتلوا ناسين أن الغزو أو السفر لادخل له فى تقصير العمر كما أن القعود لادخل له فى تطويله **﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا﴾** وقال تعالى : **﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا﴾**[1] . وعبر عن هؤلاء المنافقين بالكافرين لبيان أن مثل هذا لاينبغى أن يصدر من المؤمنين إنما يصدر من الكافرين إذ من مات أو قتل فقد انتهى أمره فقولهم (لو كان كذا) عبث لأن ماوقع لايرتفع والحسرة عليه لاتأتى إلا بالآلام والأحزان ولذا قال ﷺ : «وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»

فالله هو الذى يحيى ويميت ولا دخل للغزو والسفر والإقامة فى الإحياء والإماتة ، فالله قد يحيى المسافر والغازى مع تعرضهما لأسباب الهلاك ويميت المقيم والقاعد وإن كان يتمتع بالنعيم فى بروج مشيدة ، والله بما تعملون بصير فلا يخفى عليه شىء مما تكنون فى أنفسكم من المعتقدات التى لها أثر فى أقوالكم وأفعالكم ، فطهروا نفوسكم من وساوس الشيطان حتى لايصدر منها مايصدر من الكفار . وفى هذا تهديد للمؤمنين حتى لايقلدوا الكفار فى أقوالهم وأفعالهم .

---

١ ــ الأحزاب ١٦ ، ١٧ .

وتالله أيها المؤمنون لئن قتلتم فى سبيل الله أو متم فإن مغفرة الله ورحمته خير لكم من جميع مايتمتع به الكفار من المال والمتاع فى هذه الدار الفانية فإنه ظل زائل، وما عند الله نعيم خالد. ولئن متم أو قتلتم فإنكم إلى الله تحشرون لاإلى غيره فيجزى كلا منكم بما يستحق من خير أو شر فتزودوا بالعمل الصالح ذلكم خير لكم. وتقديم القتل فى الجهاد والموت فى غيره نظرا للكثير الغالب.

التأسى برسول الله ﷺ فى الأقوال والأعمال

وفى الآية ١٥٩، ١٦٠ يقول تعالى: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين. إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾.

فى الآيات المتقدمة أرشد سبحانه وتعالى المؤمنين إلى ماينفعهم فى معاشهم ومعادهم وعفا عما صدر منهم لأنه لم يكن بينا وصادرا عن عزم وتدبير سابق، وفى هاتين الآيتين زاد فى فضله عليهم وإحسانه إليهم، فمدح الرسول ﷺ على عفوه عنهم، وتركه الغلظة عليهم، وقد نزلت هذه الآيات عقب موقعة أحد التى خالفه فيها بعض أصحابه وكان من جراء ذلك ماكان من الفشل وظهور المشركين عليهم حتى أصيب النبى ﷺ مع من أصيب فصبر وتجلد ولان فى معاملة أصحابه وخاطبهم بالرفق ولم يعاتبهم اقتداء بكتاب الله إذ أنزل فى هذه الواقعة آيات كثيرة بين فيها ماكان من ضعف بعض المسلمين وعصيانهم وتقصيرهم حتى ذكر الظنون والهواجس النفسية، ولكن مع العتب المقترن بذكر العفو والوعد بالنصر وإعلاء الكلمة ــ وقد مضى الكلام على هاتين الآيتين فى التوكل والأخذ بالمشورة.

سمو منزلة الرسول ﷺ وفضله

وفى آية ١٦١: ١٦٤ يقول الله تعالى: ﴿**وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون. أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير. هم درجات**

عند الله والله بصير بما يعملون . لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ .

المفردات : **الغل : الأخذ خفية كالسرقة ، ثم غلب استعماله فى السرقة من الغنيمة قبل القسمة ، ويسمى الغلول أيضا . توفى كل نفس ماكسبت : تعطى جزاء ماعملت تاما وافيا . وباء : رجع . السخط بفتحتين وبضم فسكون : الغضب العظيم . المأوى : المصير . هم درجات : ذو درجات ومنازل . البصير : الذى يشاهد ويرى حتى لايعزب عنه ماتحت الثرى . منّ : أنعم وتفضل . من أنفسهم : من جنسهم من العرب ليفقهوا كلامه . يزكيهم : يطهرهم من أدران الوثنية والعقائد الفاسدة . من قبل : من قبل بعثته ﷺ ، ضلال مبين : ضلال بين لاريب فيه .**

سبب النزول : روى الكلبى ومقاتل : أنه قيل للرماة الذين تركوا أماكنهم يوم أحد : لم تركتم أماكنكم ؟ فقالوا نخشى أن يقول النبى ﷺ من أخذ شيئا من الغنيمة فهو له وألا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر ، فقال لهم النبى ﷺ : ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى ؟ فقالوا : تركنا بقية إخواننا وقوفا فقال لهم : بل ظننتم أننا نغل ولا نقسم .

والمعنى : أن الله قد عصم أنبياءه ورفع درجاتهم وجعلهم أفضل الناس وقدوة حسنة لغيرهم فما يليق بنبى منهم أن يغل وهم يعلمون أن من يأخذ مالا يحل له يأت به يوم القيامة ويفضح به على رءوس الأشهاد ، ثم توفى كل نفس يوم القيامة جزاء ماعملت من خير أو شروهم لايظلمون ، وإذا كان من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فهل يسوى بين من اتبع مايرضى الله وعمل الطاعات كمن اتبع مايسخطه وعاد إلى الله بذنوبه وأوزاره ومأواه جهنم وبئس المصير ؟ لايستويان ، بل هم درجات عند الله فمن اتبع رضوانه كان فى أعلى عليين ومن رجع إلى الله فى الآخرة بمعاصيه كان فى أسفل سافلين والله بصير بعمل كل فيجز يه بما يستحق .

وبعد أن نفى الغلول والخيانة عن النبى ﷺ على أبلغ وجه أكد ذلك بقوله : ﴿**لقد من الله على المؤمنين**﴾ الخ . أى تالله لقد من الله وتفضل على المؤمنين إذ

أرسل محمدا ﷺ رسولا ورحمة للعالمين ومن عليكم أنتم إذ أرسله من أنفسكم ومن جنسكم فهو عربى من ولد إسماعيل، وإذا كان كذلك كنتم أعرف الناس به وبخلقه وصدقه ولسانه وعلى هذا كنتم السابقين إلى الإسلام والمصدقين به ﷺ وهذا هو وجه المنة عليهم، وفى قراءة من أنفسهم: أى من أشرفهم وهو يتلو عليكم آيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته وكمال صفاته. وهو يزكيكم ويطهركم من كل رجس ودنس فقد أخرجكم من العرب الجاهلين أمة لها نظام وحكم وسياسة وإدارة حكمت أقوى الأمم من الفرس والروم، ويعلمكم الكتابة والقرآن والحكمة أى معرفة أسرار الأشياء حتى كان منكم الكتاب والعلماء والحكماء والقادة فى جميع العلوم والمعارف، وقد كانوا قبل بعثته فى ضلال مبين واضح.

بعض جرائم المنافقين

وفى الآية ١٦٥ : ١٦٨ يقول الله تعالى: ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون. الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾.

المفردات: مصيبة: ماأصابهم يوم أحد من ظهور المشركين عليهم وقتل سبعين منهم. مثليها: ضعفها بقتل سبعين من المشركين وأسر سبعين يوم بدر. أنى هذا: من أين لنا هذا، وهو تعجب مما حل بهم من هذا المصاب.من عند أنفسكم: بشؤم معصيتكم. الجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين. فبإذن الله: بإرادته الأزلية وقضائه السابق بارتباط المسببات بأسبابها. فادرءوا عن أنفسكم: فادفعوا عن أنفسكم، إن كنتم صادقين: أى فى دفع المكاره بالحذر.

المعنى: بعد أن حكى الله قولهم واتهامهم للنبى ﷺ المعصوم من كل عيب، بين خطأهم فيما قالوا وفعلوا يوم أحد.

أى لاينبغى أن تعجبوا مما حل بكم فى موقعة أحد فإن خذلانكم لن يبلغ مبلغ ظفركم فى بدر فقد نصركم الله فيها ضعف انتصار المشركين فى أحد حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين من المشركين، وفى أحد قتل المشركون منكم سبعين فقط، فلماذا نسيتم فضل الله عليكم وقلتم متعجبين: من أين هذا الذى أصابنا؟ قل لهم يامحمد: هو من عند أنفسكم بسبب فشلكم وتنازعكم وعصيانكم أمر رسولكم، والله تعالى إنما وعدكم النصر بشرط أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم، وإن الله على كل شىء قدير فلا يعجز عن نصركم لو صبرتم واتقيتم، ولا على التخلى عنكم إن خالفتم وعصيتم وما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم بجمع المشركين فى أحد فهو بإرادة الله الأزلية وقضائه السابق بربط المسببات بأسبابها، فكل عسكر يحصل منه ماحصل منكم فى أحد من الفشل والتنازع والعصيان يصاب بمثل ما أصبتم به أو بما هو أشد، وقد ابتليتم بما أصابكم كيلا تعودوا إلى أخطائكم، وليظهر علم الله بحال المؤمنين من قوة الإيمان وضعفه ويتضح حال المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان، وكفرهم وحقدهم على المؤمنين يملأ قلوبهم والذين خرجوا مع الرسول ﷺ فى ألف من أصحابه إلى أحد ثم رجع زعيمهم عبد الله بن أبى إلى المدينة فى ثلثمائة من أصحابه، فلما قيل لهم: تعالوا قاتلوا ابتغاء مرضاة الله وإقامة دينه إن كنتم مخلصين لربكم، وإلا فقاتلوا دفاعا عن أنفسكم وأهليكم ووطنكم فإن هزيمة المسلمين هزيمة لسكان المدينة وضياع لكرامتها.

قالوا: لو نعلم أنكم تلقون قتالا فى خروجكم ماسلمناكم بل كنا نتبعكم، وقيل فى معنى كلامهم لو نعلم أنكم ذاهبون لقتال لذهبنا معكم ولكنكم ذاهبون إلى هلاك محقق فنحن لانذهب معكم. وهم للكفر حين قالوا مقالتهم هذه أقرب منهم للإيمان لظهور أمارات كفرهم بانخذالهم عن نصرة المؤمنين واعتذارهم لهم على وجه الخديعة والسخرية فإن الجهاد فى سبيل الله والدفاع عن الأهل والوطن عند هجوم الأعداء واجب على كل مؤمن ولا ينبغى تركه فى أية حال، قال تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾**[1] . وإنما قال: أقرب إلى الكفر

---

١ ــ الحجرات ١٥ .

ولم يقل إنهم كفار تأديبا لهم عسى أن يتوب من لم يتمكن الكفر فى قلوبهم، ومنعا للناس من الهجوم على التكفير بالظنة ووجود الأمارات فحسب.

هؤلاء يقولون نحن مؤمنون بأفواههم فقط وهذا شأن المنافقين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون من الكفر والعداوة للمسلمين وتمنى هزيمتهم وزوالهم ولم يكن هذا نفاقهم فحسب، ولكنهم قعدوا عن القتال وتخلفوا عن شرف الجهاد وقالوا لأجل إخوانهم ومن على شاكلتهم فى الجنس والدين والجوار: لو أطاعونا ولم يسيروا مع المسلمين ماقتلوا، كأنهم جعلوا أسباب الموت والهلاك فى ميدان القتال، ونسوا أن كثيرا ممن يذهب إلى القتال ينجو، ومن يتخلف يموت.

إن كانوا صادقين فى هذا الزعم الفاسد فليدفعوا عن أنفسهم الموت، إنهم أينما يكونوا يدركهم الموت ولو كانوا فى بروج مشيدة.

تكريم الله للشهداء والمجاهدين

وفى الآية ١٦٩ : ١٧٥ يقول الله تعالى: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين. الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم. إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾.

المفردات: الاستبشار: السرور الحاصل بالبشارة. الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم: المقاتلون فى سبيل الله ولم يستشهدوا. القرح: الألم الشديد والمراد به ماحصل يوم أحد. الإحسان: إتقان العمل على أكمل وجه. واتقوا: أى أخذوا الوقاية من عذاب الله وخافوا الإساءة والتقصير فى العمل. حسبنا الله: كافينا. الوكيل: الذى توكل إليه الأمور. فانقلبوا: فرجعوا بسرعة. الشيطان: نعيم بن

مسعود، أو إبليس. يخوف أولياءه: يخوفكم أنصاره من المشركين.

سبب النزول: روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا فقال الله تعالى: ﴿**أنا أبلغهم عنكم**﴾ فأنزل الله هذه الآيات.

علاقة الآيات بما قبلها: بعد أن ذكر الله مقالة المنافقين فى القتال وقعودهم عنه وقولهم لإخوانهم لو قعدتم معنا ماقتلتم، ذكر مايلاقيه المقاتلون عموما فى سبيل الله والمستشهدون منهم خاصة حتى لايلقوا بالا لأقوال المنافقين وحثا للمؤمنين على الجهاد والرغبة فى الاستشهاد لإعلاء كلمة الله.

والمعنى: ولا تحسبن أيها المخاطب والسامع لقول المنافقين السابق أن الذين جاهدوا فى سبيل الله وقاتلوا وقتلوا أمواتا لايشعرون بشىء ولا يجازون على ماقدموا من خير بل أحياء بعد استشهادهم حياة تليق بهم ولا نشعر بها إنهم مكرمون عند ربهم فى درجات لم يصل إليها غيرهم ينعمون بما أعده لهم ربهم كما جاء فى آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم مسرورون بما آتاهم الله من فضله وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والزلفى من الله عز وجل والتمتع بالنعيم المخلد عاجلا، ويسرون بالبشارة بإخوانهم الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله فيلحقوا بهم من خلفهم.

﴿**ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ أى هم يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم أحياء، وهى أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية لايكدرها خوف من وقوع مكروه من أهوالها، ولا حزن من فوات محبوب من نعيمها.

﴿**يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين**﴾ النعمة هى الثواب الذى يلقاه العامل جزاء عمله، والفضل هو التفضل الذى يمن الله به على عباده الطائعين، والمراد بالمؤمنين الشهداء، الذين وصفوا بالأوصاف الآتية بعد، وعبر عنهم بوصف الإيمان للإشارة إلى سمو مكانته ورفعة منزلته وكونه مناط السعادة.

وفى ذلك تحريض على الجهاد وترغيب فى الشهادة وحث على الازدياد فى الطاعة وبشرى للمؤمنين بالفوز العظيم، ثم وصفهم بحسن أفعالهم الموجبة لزيادة أجورهم فقال:

﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم**﴾ أى هؤلاء المؤمنون هم الذين أجابوا دعوته ولبوا نداءه وأتوا بالعمل على أكمل وجه، واتقوا عاقبة تقصيرهم على ماهم عليه من جراح وآلام أصابتهم يوم أحد، لهم أجر عظيم على ماقاموا به من جليل الأعمال.

روى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد فبلغوا الروحاء (موضع بين مكة والمدينة) ندموا وهموا بالرجوع حتى يستأصلوا من بقى من المؤمنين، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة، فندب أصحابه للخروج فى أثر أبى سفيان، وقال: لايخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد (موضع على ثمانية أميال من المدينة) وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لايفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين، فذهبوا إلى مكة مسرعين فنزلت الآية ـ وتسمى هذه الغزوة غزوة حمراء الأسد، وهى متصلة بغزوة أحد.

ومعنى قوله: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾ أى وهم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعى ومن وافقه وأذاع قوله، وهم أربعة: إن أبا سفيان وأعوانه قد جمعوا الجموع لقتالكم فاخشوهم ولا تخرجوا للقائهم. ﴿**فزادهم إيماناً**﴾ أى فزادهم هذا القول إيماناً بالله وثقة، به ولم يلتفتوا إلى تخويفهم، بل حدث فى قلوبهم عزم وتصميم على محاربة هؤلاء الكافرين، وطاعتهم للرسول فى كل مايأمر به وينهى عنه، وإن أضناهم ذلك وثقل عليهم، لما بهم من جراحات عظيمة، وقد كانوا فى حاجة إلى قسط من الراحة وشىء من التداوى، لكن وثوقهم بنصر الله وتغلبهم على عدوهم أنساهم كل هذه المصاعب فلبوا الدعوة سراعاً ـ ونحو الآية قوله تعالى: ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً**﴾[1].

١ ـ الأحزاب ٢٢.

﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ أى قالوا معبرين عن صادق إيمانهم بالله: الله يكفينا مايهمنا من أمر الذين جمعوا الجموع لنا، فهو لايعجزه أن ينصرنا على قلتنا وكثرتهم، أو يلقى فى قلوبهم الرعب فيكفينا شر بغيهم وكيدهم، وقد كان الأمر كما ظنوا، فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان وجيشه على كثرة عددهم وتوافر عتادهم، فولوا مدبرين وكان فى ذلك عزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

روى البخارى عن ابن عباس **﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾** قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وأخرج ابن أبى الدنيا عن عائشة (ض) أن النبى ﷺ كان إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته، ثم تنفس الصعداء وقال: (حسبى الله ونعم الوكيل) وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: (حسبى الله ونعم الوكيل أمان كل خائف).

﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ أى فتوكلوا على الله وخرجوا للقاء عدوهم فكفاهم ماأهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم **﴿بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾** أى رجعوا إلى بلدهم بقوة إيمانهم وأجر عظيم لهم، ولم يمسسهم سوء من أعدائهم. **﴿واتبعوا رضوان الله﴾** أى واتبعوا فى كل ماأتوا من قول أو فعل رضا الله الذى هو وسيلة النجاة والسعادة فى الدنيا والآخرة، فأطاعوا رسوله فى كل مابه أمر وعنه نهى وزجر.

﴿والله ذو فضل عظيم﴾ إذ تفضل عليهم بزيادة الإيمان والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد والجرأة على العدو وحفظهم من كل مايسوؤهم، وفى هذا تحسير لمن تخلف عنهم، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء.

ثم قال تعالى: **﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾** أى ذلكم المنافق نعيم بن مسعود القائل **﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾** إلخ.

هو الشيطان يخوفكم أولياءه وهم كفار قريش ويوهمكم أنهم ذو بأس وذو شدة، قال تعالى: **﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾** أى إذا خوفكم وأوهمكم بشدة العدو فتوكلوا علىّ والجئوا إلىّ فإنى كافيكم وناصركم عليهم إن

كنتم مؤمنين حقاً. كما قال تعالى: ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ وقيل إن الشيطان هو إبليس الملعون.

وهكذا تبين الآيات فضل الله على عباده الذين استشهدوا فى سبيله ومن فى طريقهم إلى الاستشهاد، وأن قوى الإيمان لايكون جباناً، فالجبن لايجتمع مع الإيمان الكامل، وأن الإنسان لايخاف من الأعداء مهما كانوا وإنما يخاف من الله فقط، وأن على المؤمن أن يعالج أسباب الخوف ولا يسترسل فيها حتى لاتتمكن منه وتتجسم صورته فى خياله.

الإمهال ضرر للكفار والابتلاء خير للمؤمنين

وفى الآية ١٧٦ : ١٧٩ يقول تعالى:

﴿ **ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ولهم عذاب عظيم. إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم. ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين. ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**﴾.

المفردات: ولا يحزنك: حزن يحزن وأحزن يحزن بمعنى يكدرك ويؤلمك. يسارعون فى الكفر: يسارعون فى نصرته والاهتمام بشئونه والإيجاف فى مقاومة المؤمنين. حظاً فى الآخرة: نصيباً من الثواب فيها. اشتروا الكفر: أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان كما يفعل المشترى من إعطاء شيء وأخذ بدله. نملى: نمهل والإملاء والإمهال: التخلية بين العامل وعمله ليبلغ أقصى مداه من قولهم: أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف يشاء، ومنه الملأ للأرض الواسعة والملوان: الليل والنهار. ليزدادوا إثماً: لتكون عاقبتهم زيادة الإثم. يميز الخبيث من الطيب: أى يميز من مازه. بمعنى ميزه. والخبيث والطيب المراد بهما المؤمن والمنافق. يجتبى: يصطفى.

علاقة الآيات بما قبلها: لما أظهر الكافرون والمنافقون ماكانوا يضمرونه للنبى ﷺ

من أمثال قولهم: لو كان محمد نبياً لانتصر أصحابه ولما ابتلاهم الله وأسرعوا فى نصرة الكفار وتثبيط المؤمنين عن القتال كل هذا كان يؤلم النبى ﷺ فنزلت هذه الآيات تسلية له.

معنى الآيات: ولا يحزنك أيها الرسول الذين يسارعون فى نصرة الكفر والسعى فى إعلاء كلمته ويبذلون المال والرجال فى خدمته كأبى سفيان وغيره من صناديد اليهود والكفار والمشركين فإنهم لن يضروا حزب الله وأولياءه وأنت على رأسهم شيئاً من الضرر مهما جمعوا من أموالهم وقدموا من كيدهم وإنما لم يهلكهم الله فى الحال مع قيامهم بهذه الجرائم لأنه أراد أن يمهلهم ليزدادوا طغياناً وضلالاً فلا يكون لهم فى الآخرة أى نصيب من الخير والثواب بل لهم عذاب لايقادر قدره ولا ينتهى ألمه.

وليس هذا العقاب والعذاب خاصاً بهؤلاء فقط بل هو عام فى كل من اختار الكفر بدل الإيمان ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ولا يظن هؤلاء أن إمهال الله لهم وإطالة أعمارهم خير لهم. إنما يكون الإمهال فى العقوبة والعمر خيراً لو أقلعوا عن كفرهم وأنابوا إلى ربهم وتزودوا بالعمل الصالح. أما هؤلاء فمصرون على كفرهم وشرورهم فإمهالهم لايزيدهم إلا جرائم وآثاماً فيتضاعف عقابهم وعذابهم، كما قال تعالى:

﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون﴾(1) وكما قال سبحانه **﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون. وأملى لهم إن كيدى متين﴾**(2).

وقوله تعالى: **﴿ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾** أى ماكان الله ليترك المؤمنين على حالهم فلا يميز الصادق من الكاذب فإن ذلك يضرهم فوقت المحنة يكون عليهم لالهم فالاختبار بالشدائد والامتحان بالمصائب يظهر المجاهد الصابر من المنافق الكاذب قال تعالى: **﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾**(3) وقد اختبر الله الناس بغزوة أحد كما مضى فظهر المؤمنون المخلصون من غيرهم ثم قال تعالى: **﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾** أى ماكان الله ليعلمكم حقيقة ماغاب عنكم ولا حقيقة

1 — المؤمنون 55، 56. 2 — الأعراف 182، 183. 3 — محمد 31.

أنفسكم بطريق الغيب فإنه خلق الإنسان وقدر له أن يصل إلى مايريد بالعمل الكسبى الذى ترشد إليه الفطرة وهدى الدين، ولذلك جرت سنة الله أن يميز بالابتلاء ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾.

﴿**ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء**﴾ كقوله تعالى: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً**﴾[1] أى ولكن الله يختار من يشاء من رسله، لأن مرتبة الاطلاع على الغيب مرتبة عليا. فالرسول يطلعه الله على بعض الغيب فيخبر ببعضه عباده فيكون منهم الذين يؤمنون بالغيب، ولذا قال سبحانه ﴿**فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**﴾ أى أطيعوا الله ورسوله فيما شرع لكم فإنكم إن فعلتم ذلك فلكم أجر عظيم وثواب جزيل. جعلنا الله من المؤمنين الطائعين.

بعض ماتضمنته آيات غزوة أحد

١ ـــ تخطيط الرسول ﷺ للمعركة كان كاملاً ومؤدياً بعون الله إلى النصر التام لولا مخالفة بعض أصحابه لتعليماته.

٢ ـــ وسائل النصر لابد منها فى تحصيل النصر.

٣ ـــ إذا بذل المؤمنون كل مايستطيعون من قوة ولم يصلوا إلى مستوى العدو فإن الله سيجبر قصورهم وينصرهم على أعدائهم كما حصل فى بدر.

٤ ـــ اجتناب استغلال الأفراد والجماعات.

٥ ـــ بناء الأمة على العلم والإيمان وعلى تقوى الله ورضوانه.

٦ ـــ أوامر القائد يجب أن ينفذها الجندى حرفياً دون تفسيرها حسب هواه فمن أصدر الأمر أعلم بما يراد منه.

٧ ـــ كل جندى فى المعركة يجب أن يعتبر نفسه على ثغر من ثغور الإسلام فلا يتحول عن مكانه إلا بأمر قائده حتى لايؤتى المسلمون من قبله.

---

١ ـــ الجن ٢٦، ٢٧.

٨ — الاحتراس من الأخطاء اثناء المعركة فالخطأ البسيط قد يؤدى إلى أضرار كبيرة.

٩ — المحن والشدائد قد تؤدى إلى خير فيظهر الإيمان الحق من الإيمان المزعزع إيمان المنفعة والنفاق فيجب الاحتراس من هؤلاء النفعيين والمنافقين فإنهم لايزيدون الجيش إلا ضعفاً.

١٠ — اجتناب اليأس والتفكير فيه مهما يشتد الأمر فالشدة إذا تفاقمت أعقبها النصر.

١١ — أن الله سبحانه لايترك عباده المخلصين وقت الشدة تحرقهم المحنة وتقضى عليهم بل يرعاهم ويتولاهم كما أنزل النعاس على المخلصين من أصحاب الرسول ﷺ أمنة لهم.

١٢ — يجب عدم السماع والتأثر بالدعايات المسمومة التى يبثها المنافقون وأعداء الإسلام.

١٣ — الإيمان بأن الحروب والشدائد لاتقصر الأعمار وأن تجنبها وملازمة الديار لايطولها لأن كل شىء عند الله بمقدار **﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾**.

١٤ — الأخطاء غير المقصودة فى المعركة لاتسقط اعتبار المجاهد والأخذ برأيه وينبغى العفو عنه **﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر﴾**.

١٥ — المجتمع الإسلامى خلال المعركة يتحمل مسئولياته وينهض بتبعاته ولا يزيده الخطر الذى يواجهه إلا إيماناً بالله وتوكلاً عليه **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**.

* * *

الخاتمــــة

السلطان صلاح الدين وموقعة حطين
كمثال للتطبيق العملى والإعداد والاستعداد

لقد أعد صلاح الدين نفسه وأمته للجهاد فى سبيل الله إعداداً كاملاً مادياً ومعنوياً، فأما مادياً فقد سلح نفسه وأمته بكل أنواع الأسلحة التى عرفت فى وقته وأنفق فى ذلك كل أموال بيت المال وكل الأموال الخاصة به.

وأما معنوياً فلم يكن صلاح الدين قائداً حربياً انتصر فى حطين فحسب بل كان قائد أمة صممت على العودة إلى الله فكان عالماً فاضلاً مخلصاً تقياً نقياً عابداً قانتاً فى الليل مجاهداً بالنهار، وكان يحرص على صلاة الجماعة ويصوم حتى فى أيام المعارك، وكان يكثر من تلاوة القرآن ويبكى من خشية الله عند سماعه، ويواظب على مجالس العلم والحديث حتى فى ليالى القتال، ولم يترك صلاة الليل إلا نادراً. يلجأ إلى الله كلما داهمته الشدائد وضاقت عليه المسالك، فيستغيث بمن يجيب المضطر إذا دعاه، فيجد الفرج والنجاة، لأنه إن سدت أبواب الأرض أحياناً فإن باب السماء لايسد أبداً **﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾**[1] .

وكان يهتم بإعداد جنوده روحياً كاهتمامه بإعدادهم مادياً وعسكرياً أو أكثر، حتى أنه كان يتفقد معسكرات الجيش وخيامه فعندما لايسمع تسبيحاً أو دعاء أو قرآناً أو صلاة من خيمة قال: من هذه سنؤتى، أى أن أهل هذه الخيمة الذين رقدوا فلم يتهجدوا هم سبب الهزيمة إن وقعت.

وقبل حطين توفرت لدى صلاح الدين معلومات عن إمدادات هائلة للصليبيين تداعت من مختلف الإمارات من طرابلس وعكا والكرك وبيت المقدس

١ ــ البقرة ١٨٦ .

وغيرها وتجمعت فى صفورية فى منتصف الطريق بين طبرية وحيفا تحت إمرة ريمون وأرناط وجاى وصاحب عكا والناصرة وصور وغيرهم، وكانت جند صلاح الدين قد احتلت طبرية وحاصرت قلعتها، وأحس صلاح الدين بأن معركة فاصلة وشيكة الوقوع بينه وبين الفرنجة فأوجس خيفة وارتبك فى أمره وأمعن فى تفكيره هل يخوض حرباً ضروساً لايدرى نتيجتها بجيش لم يتجاوز اثنى عشر ألفاً ضد جيش بلغ ثلاثة وستين ألفاً أم ينسحب حتى يطلب النجدات وتأتيه الإمدادات من البلاد العربية وتتكامل قواه.

وفى الهزيع الأخير من الليل صعد على قمة مشرفة على معسكرات جنده وهو لايزال يفكر فى أمره وأجال نظره ووجه سمعه إلى مخيمات جيشه فوجد كلاً منهم فى شغل مع ربه، هذا يتوضأ وذاك يصلى وآخر يتلو ورابع يستغفر وخامس يدعو مولاه ويطلب العون والنصر من الله فامتلأ بالحماس الإلهى وقال: معى جنود من هذا الصنف، ثم أنهزم أو أستسلم؟ فتوكل على الله وخاض معركة حطين، فنصره الله على الصليبيين وحطم أعداء الدين.

بمثل هذه الروح المعنوية العالية والإيمان القوى استطاع صلاح الدين أن يصنع الأعاجيب فقواته دون قوات العدو بكثير ومع هذا فقد انتصر لأن الله كان مع المؤمنين بتوفيقه وعونه وجنده، فهيأ لهم أسباب النصر ولأعدائهم وسائل الهزيمة.

تحرك الصليبيون من صفورية لإنقاذ طبرية بجيوشهم الوفيرة، فتقدم صلاح الدين بجيشه خمسة أميال غربى طبرية عند قرية حطين، وهى غنية المرعى وفيرة المياه وتركوا وراءهم بحيرة طبرية بمائها الدافق فاضطر الفرنجة إلى النزول على سطح جبل طبرية تلمساً للهواء بعد أن حيل بينهم وبين الماء، ولم تشرق شمس اليوم الرابع من يولية حتى كان صلاح الدين قد انتهز فرصة ظلام الليل وأحاط بالصليبيين وأدرك المسلمون أن الأردن وراءهم وأرض العدو أمامهم وأنه لاينجيهم إلا الاستماتة فى القتال، فدارت بين الفريقين معركة طاحنة، واختلطت الجيوش بعضها ببعض، ولعب السلاح الأبيض دوره، وصلاح الدين يزأر فى قلب المعركة والمسلمون يشددون هجماتهم ويوالون ضرباتهم، واستمرت المعركة حامية الوطيس مشتعلة ليلاً ونهاراً يومين كاملين حتى أسفرت عن انتصار المسلمين

انتصاراً مؤزراً وانهزام الأعداء شر هزيمة أمام رهبان الليل وفرسان النهار جند صلاح الدين.

انتصروا لأنهم تمسكوا بوسائل النصر فهيأ الله لهم أسبابه، فمع أن اليوم الرابع من يولية سنة ١١٨٧م الذى دارت فيه المعركة كان شديد الحرارة فقد تسلطت أشعة الشمس فيه على وجوههم، واشتعلت النار فى الأعشاب والأشواك اليابسة التى تكسوا سطح الجبل، وكانت الريح تهب على الفرنجة فحملت النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم حر الشمس وحر العطش وحر النار والدخان، وحر السلاح ولهيب القتال، فحلت بهم هزيمة ساحقة قضت عليهم قضاء تاماً، حتى قال المؤرخ الكبير ابن الأثير:

كان من يرى الأسرى لكثرتهم لايظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى. كان القتلى ثلاثين ألفاً والأسرى ثلاثين ألفاً أيضاً فيهم كل ملوكهم وأمرائهم إلا أمير طرابلس فإنه فر فى ثلاثة آلاف ولكنه مات فى الطريق ومات معظم من معه متأثرين بالجراح.

ولم يغر صلاح الدين هذا النصر المبين بل ازداد تواضعاً وتقرباً إلى الله، ولم يخلد إلى الراحة والدعة بل تابع سيره وفتوحاته المظفرة، وأخذت مدن فلسطين تسقط فى يديه مدينة مدينة ولم تبق إلا القدس، أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى محمد ﷺ فقرر صلاح الدين استرجاعها، وأمر حسام الدين لؤلؤ قائد اسطوله بحراسة الشواطىء حتى لاتتعرض لهجمات مفاجئة أثناء حصار بيت المقدس، وسار هو نحوها.

ولقد كانت أسوارها حصينة وحصونها منيعة والقدس أكبر إمارة، إلا أن جند صلاح الدين كانوا يتلهفون لسماع هتاف: الله أكبر يصدع به مؤذن الصخرة والأقصى، فشددوا على الفرنجة حتى استسلمت القدس فى اليوم السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ الموافق ١٢/١٠/١١٨٧م. ودخل صلاح الدين ليلة الإسراء والمعراج وكان يوم جمعة فطهرت المدينة والمسجد الأقصى من دنس الطغاة ورجسهم وأقيمت فيه صلاة الجمعة التالية ليوم الفتح بعد أن تعطلت ثمانية وثمانين عاماً وتبارى الشعراء فى تخليد هذا اليوم الأغر فقال الشاعر المصرى الشريف الجوانى:

أترى مناماً ما بعينى أبصـــر	القدس يفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم	ير قبل ذاك لهم مليك يؤســـر
قد جاء نصر الله والفتح الذى	وعد الرسول فسبحوا واسغفروا
يايوسف الصديق[1] أنت لفتحها	فاروقها عمر[2] الإمام الأطهر
ملك غدا الإسلام من عجب به	يختال والدنيا به تتبختـــر
غاراته جمع[3] فإن خطبت له	فيها السيوف فكل هام منبـــر

ومن مآثر صلاح الدين هذا الكتاب التاريخى الذى كتبه رداً على رتشارد ملك الانجليز (أما القدس فهو لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما عندكم ففيه مسرى نبينا ومجمع الملائكة فلا تتصور أننا ننزل عنه ــ أما البلاد فهى لنا فى الأصل، واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الحين).

* * *

١ ــ يوسف صلاح الدين .
٢ ــ يشبه صلاح الدين فى فتح القدس بعمر بن الخطاب .
٣ ــ كان يتخذ يوم الجمعة موعدا لبدء هجومه .

الختـــام

إلى أمتنا المجيدة، ذات المدنية العريقة، والتاريخ المشرق المضيء، التى ولدت الحضارة على أرضها، وجلجل الوحى على رباها وجبالها، وتألقت أنوار القرآن فى سمائها، ورتلت آياته فى ربوعها.

إلى أمة الإسلام فى كل مكان، أقدم وسائل النصر من القرآن والسنة، والبيان التطبيقى لها من قائد القواد، وبطل الأبطال، وإمام المجاهدين، محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين، تدارسها أصحابه رضوان الله عليهم، ومرنوا عليها ومارسوها، فنفثت فيهم روحاً ربانياً، وخلقت منهم جيلاً محمدياً ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ ﴿**يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾.

وقفوا فى بدر — وهم قلة — يعلنون كلمة الحق والحرب على الشرك متحدِّين بذلك كل أمم الأرض، يدل على ذلك قول القائد والرسول العظيم ﷺ: (اللهم إن تهلك هذه العصابة فلا تعبد فى الأرض بعد اليوم).

خاضوا بها الغزوات مع رسولهم فكان النصر حليفهم، وبعد أن لحق صلوات الله وسلامه عليه بالرفيق الأعلى لم تهن عزائمهم، ولم تضعف قواهم، بل جيّشوا الجيوش، وكتبوا الكتائب، وساروا على طريق النصر متمسكين بوسائله، ففتحوا الجزيرة العربية، ونشروا الإسلام فى ربوعها، ثم انطلقوا شرقاً وغرباً يعلنون دعوة الحق، ويفتحون البلاد التى عمها الشر وطبقها الفساد، ليخرجوا العالم من ظلمات الشرك والبغى إلى نور الحق والعدل، انطلقوا مستعذبين الموت فى سبيل الله، والاستشهاد عندهم أحب من الحياة، تميد الجبال ولا يميدون، ويلين الحديد ولا يلينون، لاتستعصى عليهم قلاع مهما قويت، ولا تقف أمامهم حصون مهما اشتدت، ثلّوا عروش الأكاسرة، ودكوا ممالك القياصرة، واكتسحوا بلاد أفريقيا، واستمر زحفهم يمتد حتى غطت انتصاراتهم الأرض، من جدار الصين فى الشرق، إلى المحيط الأطلسى فى الغرب، ومن حقول الجليد فى الشمال إلى خط الاستواء فى الجنوب، ففتحوا الدنيا، وطهروا العالم، ومدّنوا الإنسانية، وملئوا الوجود علماً وإيماناً، ونوراً وعرفاناً، وعدلاً وإحساناً.

إلى أحفاد أولئك الأبطال البواسل، وأشبال أولئك الأسود الكواسر، أقدم وسائل النصر لتعطينا قبس النور وإشارة البدء بجهاد كل عدو يعتدى على ديننا، أو يحتل أوطاننا ويهدد استقلالنا، فنخوض معه بكل قوانا معركة حامية الوطيس، ضارية اللهيب، نستمد فيها العون والمدد من صاحب الحول والطول ذى القوة المتين الذى يقول للشيء كن فيكون.

نخوضها ونحن ندعو ونردد ﴿**ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. حسبنا الله ونعم الوكيل.

بذلك نعيد ذكرى انتصارات بدر والقادسية، واليرموك وحطين وعين جالوت، وقد وعد الله المؤمنين النصر على المعتدين والظفر بهم إذا عمر الإيمان بالله قلوب المجاهدين فى سبيله، وكان عملهم وسلوكهم تطبيقاً عملياً لكتاب الله الكريم، وهدى رسوله الأمين.

بذلك يذلل الله لهم الصعاب، وييسر لهم وسائل النصر، ويهيىء لهم عوامل الظفر، ويجند لمعونتهم ونصرهم كل القوى الكونية، فهو الذى يقول مخاطباً المشركين ﴿**ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين**﴾[1] ويقول: ﴿**ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين**﴾[2] ويقول: ﴿**يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾[3]، كما يقول: ﴿**وما يعلم جنود ربك إلا هو**﴾[4].

وهو الذى أهلك عاد بريح صرصر عاتية، وثمود بصيحة مدوية، وأصحاب الفيل بطير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، ﴿**وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى**﴾[5] وهزم الأحزاب فى غزوة الخندق بريح عاصف فى ليلة مظلمة باردة، أقلعت الخيام، وأكفأت القدور، ونسفت التراب فى وجوههم فولوا مدبرين.

وفى معاركنا الإسلامية العديدة مايثبت بالدليل القاطع أثر الإيمان فى التمسك

١ــ الأنفال ١٩.   ٢ــ يونس ١٠٣.   ٣ــ محمد ٧.
٤ــ المدثر ٣١.   ٥ــ النجم ٥٢، ٥٣.

بتعاليم القرآن فى النصر على أعداء الإسلام، ويؤكد ذلك قول خليفة رسول الله أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وهو يقوى عزائم المؤمنين على الجهاد: (ماانتصرنا بعدد ولا عدة، وإنما بشيء وقر فى الصدور من هذا الدين).

فيامن يريدون النصر والعزة والكرامة، هذه وسائله التى قام عليها على مدى التاريخ الإسلامى، فهلموا إليها **﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾**[1] .

وصلى الله على سيدنا محمد القائد العظيم، والمجاهد الكبير، وعلى آله وصحبه أبطال الجهاد، وأحباء الاستشهاد، ومن استرشد بهم، وسار على هديهم إلى يوم الدين.

* * *

٦ــ الصف ١٣ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثانى

الموضوع **الصفحة**

الباب الثالث

